رواية

مكتبة

جيوكوندا بيلي

صوْفِيّا والنُّذُر

ترجمة: بسّام البزّاز

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

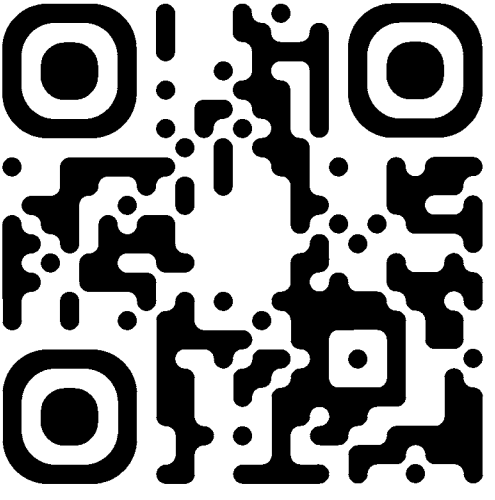

telegram @soramnqraa

صُوْفِيّاْ والنُّذُر

رواية

Author: **Gioconda Belli**

اسم المؤلف: جيوكوندا بيلي

Title: **Sofía de los presagios**

عنوان الكتاب: صُوْفِيَا والنُّذُر

Translated by: **Bassam Al-Bazzaz**

ترجمة: بسّام البزّاز

P.C.: **Al-Mada**

الناشر: دار المدى

First Edition: **2024**

الطبعة الأولى: **2024**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Gioconda Belli

c/o Schavelzon Graham Agencia Literaria

www.schavelzongraham.com

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800

+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 706 15017 + 961 175 2617

+ 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2275 + 963 11 232 2276

ص.ب: 8272 + 963 11 232 2289

مكتبة

t.me/soramnqraa

جيوكوندا بيلي

مكتبة
t.me/soramnqraa

صُوْفِيّاْ والنُّذُر

ترجمة: بسّام البزّاز

إلى جيزيلا وصوفيّا
إلى كارلوس وأولادي
إلى السِّحْر.

ثمّة جزءٌ في كلّ حياة
حتّى في التافهة منها
ينقضي في البحث عن علّة الوجود
عن الانطلاقة والمبدأ
عن الأصل والمنشأ.

مارغريت يورسنار

مذكرات أدريانو

نستكشف ونستكشف ونستكشف،
ثمّ نعود إلى نقطة البداية،
لنتعرّفَ على المكان.

تي. أس. إليوت

مقدمة المترجم

لهذه الرواية أكثر من خصوصيّة وعلامة فارقة.

فبعد مغامرات الترجمة الصعبة والطويلة في **طائر الليل البذيء وثلاثة نمور حزينة وابن الإنسان وأنا الأعلى**، وجدتُ نفسي إزاء رواية لا تهتمّ بتقنيات السرد الجديدة ولا صرعات الأدب التي بدأت تميّز أدب أمريكا اللاتينيّة منذ أكثر من نصف قرن.

أمّا المؤلّف فكاتبة نسويّة، روائيّة وشاعرة، من نيكاراغوا، لها عوالمُ ولغة وأبطالٌ ومسارح بعيدة كلّ البعد عن عوالم دونوسو وإنفانته وكاربنتييه وباستوس، وحتّى بادورا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

هنا لدينا قصّة تقصّ

قصّة ببداية ونهاية

أمّا أجواؤها فهي أجواء بلدة ومزرعة وتلّ وبركان خامد وبحيرة.

طيور غريبة وأشجارٌ عجيبة

أرضٌ معمورة بالأفاعي القاتلة والقردة العوّاءة... والسحر.

أرض سحرة ونبوءات.

وقد يتسع المسرحُ أحياناً ليصل إلى العاصمة (ماناغوا)، فتحملنا في جولة سياحيّة سريعة لا نعود منها إلّا بفكرة عن مكتب محامٍ وموقف سيارات ومدينة ألعابٍ جابت أنحاء أمريكا الوسطى ومحلات للملابس أو لتصفيف الشعر.

وأنا أترجم، شعرتُ أنّني أتحرّك في مجال جغرافي وسرديّ ضيّق.

فنيكاراغوا، بلد بعيد مركون، لم يصل إلينا من أخباره غير أنّه يقع في أمريكا الوسطى، تقلّبت أحواله بين الإسبان والإنكليز والمكسيكيين والأمريكان، قبل أن تُطبق الدكتاتورية على عنقه فينزلق إلى حروب أهليّة تنتهي بانتصار الجبهة الساندينيّة التي أطاحت بدكتاتورية عائلة سوموثا (1936 – 1979)، لتسلّم مقدرات البلد إلى دكتاتوريات جديدة، بنكهةٍ ثوريّة ديموقراطية.

مؤلفة الرواية، جيوكوندا بيلي (1948) تقف شاهداً وضحيّة من شهود هذه «الديموقراطية» وضحاياها، إذ جُرّدت، بداية هذه السنة، من الجنسية النيكاراغويّة، ضمن قائمة ضمّت 300 ممّن كانوا، في يوم من الأيام، رفاق سلاح ونضال، ثمّ باتوا يوصفون بالمنشقين والمعارضين.

أرجو أن يجد القارئ في هذه الرواية نكهة جديدة تُضاف إلى الكثير الكثير الذي تذوّقه من نكهات الأدب الأمريكي اللاتيني.

وأرجو أن تكون إضافة ترفد مكتبته وتعرّفه بقلم جديدٍ وقريحة لاتينيّة جديدة.

الجزائر/ 5 تمّوز2023

بسّام البزّاز

-1-

الوقتُ ليلٌ والعالمُ سكون. الأضوية في (ديريّا) مطفأة. يقتضي الدخول إلى بلدة السّحَرة تلك، التي تصعد إلى قمة التلّة، وتتوقف فيها، ثمّ تنحدر صوبَ بحيرة (أبويّو) الكبيرة الواسعة، السيرَ على رؤوس الأصابع. ترقد البلدة غافية على صفحة الماء، ويخيّم عليها الصمتُ، بعد ضجيج مهرجان الأحد. فقد طوى أصحابُ السيرك خيامَهم، ورحلت الطبول، وأغلقت الأبواب. في المتنزه، خيّم الغجرُ، الذين جاءوا من أمريكا الجنوبيّة، وكانوا قبلها قد جاءوا من أوروبا ومصر والهند، وجاءوا، قبل قبلها، من **جنّة الأرض**، حيث فَتنتْ غجرية، سبقت حوّاء، آدمَ، وأنجبتْ منه سلالة من الرجال، دون أن تدنّسها الخطيئة الأصليّة. يخيّم الصمتُ على العربات. الأطفال يحلمون، والنساء المتعبات يُطفئن النار، بينما الرجالُ يشعلون سجائرهم بالجمرات التي ما زالت تتوهّج ويدخّنون. قربَ إحدى العربات، وقف رجلٌ وامرأة يتجادلان، فكأنّهما يتحاوران. تقول له إنّها تكرهه. ويقول لها إنّه يكرهها. سترحل، تقول له، لا تريد أن تراه ثانية، لا تريد أن تسمع شيئاً عنه، سترحل مع جماعتها، وما هم بغجر، فهي لا تريد أن تبقى مع القبيلة، لأنّها تكرههم جميعاً. يدخّن الغجري ببطء، ولا يردّ عليها. تنهض هي وتدخل إلى العربة، تنظر إلى الطفلة النائمة وتخرج، فلا يلتفت الغجري إليها، كان يدير لها ظهره. لم تكن الطفلة نائمة، فقد سمعت الجدال وشعرت بالخوف. ترى خيالَ أمّها يختفي، فتنحني، وتنتعل حذاءها، وتقرر أن تتبعها. تخرج لتتلقّى الريحَ المعتمة، التي تهبّ من ناحية البحيرة.

جدران بيوت البلدة عريضة. نحو الكنيسة، يصعد شارعُها الرئيس، المُعبّد بالحجر والطين، فما من أسفلت في ذلك الصقع الضائع. مقابل

الكنيسة سياجٌ خشبيّ، ملعبٌ بدائي، تقام فيه، أيّام الأحد، نزالات الديوك والثيران، التي لا يموت فيها أحد، ولا يُسفك فيها دمٌ؛ ففي هذا النوع من المصارعة، يمتطي المصارع الثور، والفائز هو من يصمدُ أطولَ وقتٍ على ظهر الحيوان، وإنّ نطّ هذا ورفسَ وركلَ ما وسعه النطّ والرفسُ والركل. يتكشّف ضوءُ الصبح وتبدأ الديكة بالصياح في باحات البيوت. في معسكر الغجر، الجميع نائمون، إلّا ذلك الرجل، الذي كان يفكّرُ في امرأته وابنته: أين عساهما ذهبتا. ماذا عساهما فعلتا؟ لا يتحرّك. يفكّر في الأمر، ويغضبه أن يقلق من سلوكها. لن يخرج للبحث عنها. ستعود. إنّه لا يشكّ في أنّ الاثنتين ستعودان. ولكن، ها هو النهارُ يطلع، وها هم الرجال يخرجون من عرباتهم، وكذلك النساء، لأنّ ساعة الرحيل قد أزفت. والغجر لا ينتظرون. لا يستطيعون الانتظار. عليهم أن يواصلوا طريقهم، وها هو يؤخرُ رحيلهم. يسأله أعمامُه الشيوخ عن المرأة والبنت، فلا يجد ما يجيبهم به. يقول لهم إنّه غير مهتمّ؛ فقد قرّرت الرحيل مع أهلها. وأخذت الطفلة معها. ماذا سنفعل؟ سألوه، فأجابهم: ماذا سنفعل؟ سنبحث عنهما في الطريق. يجب أن ننطلق. فأنا لا أتأخّر.

وفي دروب الحبّ ومتاهاته، تضيعُ الطفلة؛ سيظنّها ذهبت معها؛ وستظنّها ذهبت معه.

رأت البلدة، التي استيقظت للتو، عربات الغجر تمرّ. وليس في البلدة من يتذكر حكايات الأجداد عن «الهنغاريين» في نيكاراغوا. لذلك يظنّ الناسُ أنّ ما يرونه هو من الجديد الغريب الذي جاءت به الثورة، مثلها مثل السيرك الروسي والمغنين البلغاريين والشقر الذين ليسوا بأجانب. يشاهد رجال البلدة ونساؤها قافلة الغجريين والغجريات تمرّ. إنّهم يخافون أساطيرهم والجهل بجذورهم وأصولهم. «هم كاليهود التائهين -تقول پاتروثينيو وترسم علامة الصليب على صدرها-: لنشعل الشموع للعذراء -تقول-، هيّا بنا إلى الكنيسة». وتخرج نساء البلدة للصلاة في الصباح الباكر البارد. يسرن ببطء على التراب الذي تخلّفه العربات التي تمرّ في الشارع الرئيس. ويسرن في طابور على الرصيف، ويتلفتن لينظرن إلى العربات المبتعدة، ويرين الرجل الذي يركب في العربة الأخيرة، وهو يتلفتُ أيضاً، وينظر،

ويبحث بنظراته، وقد ظهر على وجهه تعبيران: واحد ينمّ عن ضيقٍ وألم على البنت، وآخر، لا يكاد يبين، ينمّ عن حزنٍ على المرأة التي يحبّها حدّ الكُره.

تشعر شينتال، الساحرة العجوز التي تسكن في تلّة (مومباچو)، بنُذُرٍ في الأجواء، فتضع فِلقاً من القرفة عند باب بيتها.

-2-

في صباح (ديريّا)، تفتح الحوانيتُ أبوابَها، تدخل النسوة بأيد فارغة ويخرجن بأكياس الحليب وأرغفة الخبز، ملفوفة في جريدة. تمرّ العربات محمّلة بالحطب، ويصعد الحوذي، يسوق ثيرانه، في الدرب الذي يلي الكنيسة ليفرّغ حمله في باحة معمل (خوليو)، صانع الأصص الفخاريّة، التي يبيعها في ماناغوا للراغبين في زراعة النباتات في حدائق منازلهم الداخليّة. يخرج أولاد لولا ونيديا وبيرونيكا إلى المدرسة بسراويلهم وتنوراتهم الزرق وقمصانهم البيض، وتصل الجريدة على دراجة فرمين الهوائيّة، ويخرج الرجالُ إلى عملهم في مقلع الحجر، ويستقرّ النهارُ بين بيوت (ديريّا)، وتبدأ الشمس بالصعود إلى سمت الرأس. تنزل الطفلة من الدير الكائن في أعلى المطلّ، حيث أمضت ليلتها تبكي على أمّها. لقد جاءت بملابسها التي كانت ترتديها لحظة صحتْ على الجدال بين أمّها وأبيها: التنورة الحمراء الطويلة البالية، والقميص المورّد الذي كان لأمّها، وحذاؤها الأسود الوحيد. وقفت في أعلى الدرب. لم يبقَ شيء من المعسكر. لم يبقَ أحدٌ غير أناس عاديين، ليسوا من الغجر، أناس لا تعرفهم، أناس لم ترهم إلّا أمس، ومن بعيد، نساء قرأت لهن عرّافات القبيلة حظوظهنّ على راحة أيديهنّ. لم تكن أمّها غجريّة. في الليل، حين تكونان وحدهما، بعيدتين عن مسمع الأب، كانت أمّها تحكي لها أنّها تركت بيت أهلها من شدّة حبّها له. ولمّا لم تكن غجريّة، شرحت لها، لم تسمح القبيلة لها بأن تقرأ الكف ولا بأن تنبئ بالحظ، كما تفعل الأخريات. لكنّها كانت ترى أمّها متأهبة دائماً لحمايتها من خطر محدق، ولطالما بكت وهي تقول لها إنّها تحبها كثيراً. بحثت الطفلة عن أمّها، ظنّاً منها أنّها قريبة، ورأت أنّ عليها، هي أيضاً، أن تبحث عن أمّها. سارت وواصلت النزول عبر

الدرب، ومرّت من جانب معمل (خوليو)، بالقرب من حوذي العربة التي تجرها الثيران. أطلّت برأسها على الكنيسة التي أغلقت أبوابها فلم ترَ أحداً، ونزلت ونظرت داخل حلبة مصارعة الثيران، وواصلت النزول نحو شارع البلدة الرئيس، حيث لمحتها إيولاليا، وكانت تطلّ من شباك بيتها، بانتظار صبيّ التورتيّا. رأت تلك المرأة الحزن بادياً على وجه الصغيرة، وتذكرت أنّها تعيش مع الغجر: «هيييه، أيّتها الصبيّة، تعالي إلى هنا.»

سقتها إيولاليا شراب الذرة، وأعطتها قطعة تورتيّا كبيرة وساخنة، وسألتها عن اسمها.

- صوفيّا - قالت، وبدأت بالبكاء.

- كم عمركِ؟

- سبع سنوات.

ردّت على أسئلة إيولاليا، وهي تبكي: أبوها اسمه سابينو، وأمّها، ديميتريا. وهي لا تدري من أين جاءا، ولا إلى أين ذهبا. نظرت إليها إيولاليا. للبنت عينان لوزيتان وأنفٌ مستقيم وشعرٌ أسود كثيف ومجعّد، سُمرة صافية وجميلة. يا للمسكينة، فكّرت. طافت إيولاليا بصوفيّا البلدة، لكنّها لم تجد والديها في أيّة ناحية. لا تفهم الطفلة كيف تتركها أمّها، وهي التي طالما خافت عليها. أمّا أبوها فشيء آخر. وحين عادت الاثنتان إلى بيت إيولاليا، أجهشت الطفلة المتعبة بالبكاء.

يجب الاتصال بالشرطة، فكّرت العجوز. يجب أن تتكفّل الشرطة بالبحث عن الغجر. ونامت الطفلة، بعد قليل، على سرير الخيش.

خرجت إيولاليا قاصدة بيت العمدة، في الطرف الآخر من الشارع. كان العمدة يجلس مع دون رامون، أغنى مُلّاك الناحية، وتاجر القهوة الأرمل، ذو الجزمة الطويلة. الكلّ يحبون دون رامون، الذي لا تثير ثروتُه حقد أحد، لأنّه رجلٌ صالح. سيبلّغون العاصمة، قال العمدة لها. وبعد وقت قصير، باتت البلدة كلّها تعرف بقصّة الطفلة. دار الحديث في البيوت كافة: ما أبعد الوالدين اللذين تركا ابنتهما عن طباع البشر! وما أقسى قلبيهما! يا للفتاة المسكينة! صاروا يودّون رؤيتها، النظرَ إليها، وصاروا يعرضون عليها

الرقائق والحلوى، ويقدمون لها عرانيس الذرة المطبوخة، حين تخرج عصراً وتتجوّل في البلدة وتمدّ عنقها نحو الأبواب.

بينما يبتعد البعضُ عن الأبواب، ويمنعون أولادهم من الاقتراب من البنت. يا لهذه الغجرية من نذير شؤم! يا لها من شرّ ظهر بينهم من العدم. تبدو كأنّها رجس من عمل الشيطان.

بعد أسبوع، استدعى العمدة إيولاليا. ودعا وجهاءَ البلدة وحكماءَها إلى اجتماع. الوالدان لم يظهرا. يُشاع في (ماسايا) ظهور عربة **الناغوا** -تلك المرأة الشبح التي تبكي الأطفال الضائعين-؛ وشاعت في (چيناندیغا) أخبارٌ عن غجر متجهين نحو السلفادور. يقولون إنّ غجرياً سكّيراً حاول اختطاف طفلة في الحديقة. هذا كلّ شيء.

- نشرنا إعلاناتٍ في الجريدة -قال دون رامون-، وفي الراديو، وبلّغنا رجال المطافئ، فربّما جاءهم أحدٌ يبحث عن طفلة ضائعة...لا شيء.

- لن يعودا أبدا - أكّدت دونيا كارمِن، التي يثق الجميعُ بنبوءاتها وعرافتها.

الجميعُ يتبادلون النظراتِ بصمت. يتأرجحون، على مقاعدهم الهزّازة، في بيت العمدة. لا تفهم إيولاليا سبباً لفرحتها. تتصنّعُ القلقَ والحزنَ، لكنّها تشعر بالتوتّر وبضغطها يرتفع. ولو أنّ اللحظة مناسِبة للتعبير عن الفرح، لصعدت إلى المطلّ لتشكر عذراء الدير؛ لتقبّل قدميها الصغيرتين اللتين تسطحتا واستويتا من كثرة ما تمسحت بهما الأيدي التقيّة. ولكنّ شخصاً آخر، في حلقة الصمت تلك، كان فرحاناً: فها هو الأرمل، دون رامون، يقول إنّ في مقدوره أن يكفل البنتَ، فتصبح عنده، هكذا، بنتٌ طالما تمناها. ويضيف أنّه مستعد لأن يعطيها كلّ شيء. فقلبه أكبر من أن يكون له وحده.

- ماذا نفعل؟ - قال العمدة، أخيراً.

- أستطيع أن أكفلها - قالت إيولاليا ودون رامون، في وقت واحد.

ظلّ الآخرون صامتين، يتبادلون النظرات بأطراف العيون. فهم يرون في إيولاليا امرأة صالحة، لكنّهم عالمون بفقر حالِها ووحدتها وقلة حيلتها، وقد سمعوا بنوبات البكاء التي تعتادها حين تتذكّر ولديها اللذين قتلا في

الحرب، ولطالما أغلقت على نفسها لأيّام، فلا يراها أحدٌ، حتّى يضطروا إلى إخراجها من حجرتها بالقوة... وإن كانت هي من عثر على البنت، وهي من رآها لأوّل مرّة. أمّا دون رامون فيعيش في بيته وحيداً، بلا أهلٍ ولا ولد، وستحظى البنتُ معه بتربية حسنة، ويمكنها أن تذهب إلى المدرسة، إن هي شاءت. بيته كبيرٌ وجميلٌ، وفيه حدائق وببغاوات ومكاوات وبقرات تدرّ الحليب، حيث ستسمن صوفيّا وتزداد جمالاً وطولاً، وحيث ستنسى أنّها كانت غجريّة. كانت أفكار المجتمعين من الزحمة أنّ أزيزها يكاد يكون مسموعاً. وتشعر إيولاليا بضغط الأفكار يشتدّ، وبضغطها يهبط. لا يريد دون رامون أن ينظر إليها. فهو يتصوّر أيضاً اتجاه الأمور، ويشفق على إيولاليا.

راح اهتزازُ الكراسي يضبط الوقتَ، ويضبط إيقاع صمت الذين يهتزون ويفكرون. لا أحد يتكلّم.

- يمكن لإيولاليا أن ترعاها في منزلي -قال دون رامون أخيراً-، ثمّ إنّ منزلي قريب.

- نعم - قال الآخرون، وقد أحسّوا بالراحة. إيولاليا يمكنها أن تعتني بها، لأنّ صوفيّا فتاة، والفتاة تحتاج إلى رعاية امرأة.

استعادت الوجوهُ تعابيرَها. واسترخت عضلات وجه العمدة، الذي راح يجفف العرق بمنديله الكبير، ذي المربعات الحمر والخضر.

وتقبّلت إيولاليا الفكرة بعد أن دوّرتها في رأسها. لا بدّ من الاعتراف بأنّ الفكرة هائلة وعادلة، كما هو دون رامون.

- ولكن، يجب ألّا نتوقف عن نشر الإعلانات -قال العمدة-، لعلّ والديها الحقيقيين يظهران.

هزّ دون رامون رأسه موافقاً. وانحنى ليعدّل جواربه. منذ زمن بعيد وهو لا يشعر بالرغبة في البكاء، لكنّه لا يريد، الآن، أن يلحظوا عينيه نديتين.

فرحت الطفلة، لأنّها ستعود إلى الخروج والتنقّل. إنّها غير معتادة على ظلمة البيوت. صحيح أنّ إيولاليا امرأة طيبة، وقد حرصت على ألّا ينقصها شيء، لكنّها تشتاق إلى العربة وتحنّ إلى القبيلة. فقد أمضت حياتها تتنقل. حياتها هي الترحّل، واللعبُ في الشوارع، والمهرجانات، وحلقاتُ النار في

الليل؛ والأسرة الكبيرة الممتدّة، وأمّها وهي تحثّها على النوم مبكراً وإلّا ظلّت صغيرة. بلغوا الطريق العام، وراحت سيّارة *الجيب* تنط من فوق حفر الشارع. الوقت أيّار، وفي أيّار تزهر أشجار البونسيانا: لهيبٌ من الزهور، على ضفتي الطريق.

ها هي ذي إيولاليا، وقد استحمّت وارتدت أفضلَ ملابسها، ونثرت الطلق على رقبتها وتحت إبطيها. منذ وقت طويل وهي لا تتزين، فكّرت، ولا تنثر مسحوق الطلق على رقبتها وتحت إبطيها، أمّا هذا الصباح، فقد أخرجتْ فستانها البنّي ومنديلَ رأسها المورّد، بل لقد صبغت شفتيها بالأحمر. السائق اسمه دانوبيو، مثل اسم النهر، مثل *الدانوب الأزرق*، الفالس الذي بسببه وقع والداه بعضهما في غرام بعض. يحدّث إيولاليا عن بدايات مطر الشتاء. سيكون فصلاً جيداً، قال، وسيكون المحصولُ وفيراً، ستتحسن الأحوال. يا ليت، ردّت إيولاليا. تتطلّع الطفلة إلى السيارات، وتحدّق في الطرق الترابية التي تصبّ في الطريق العام. إنّها ما زالت تنتظر أبويها، لكنّها تذكر جيداً ما قاله لها سابينو، والدها، من أنّ حياة الغجر هي أن يعيشوا يومهم، فلا ينظرون لا إلى الوراء ولا إلى الأمام. ذلك هو أن تكوني غجريّة، قال لها، وذلك هو الفرق بينهم وبين الپايوس[1]، الذين لا يحسنون العيش إلاّ في مكان ثابت، لأنّهم عبيدٌ لما فات وعبيدٌ لما هو آت. أمّا هم، فلا شيء يربطهم بمكان.

دخلت السيّارة من تحت القوس الذي يعلن عن اسم العزبة. تنظر صوفيّا إلى كلّ شيء؛ تنظر إلى مزرعة البنّ، التي تمتدّ من طرف إلى آخر، وتنظر إلى الأشجار الكبيرة التي تظللها، وإلى المراعي حيث الأبقار، وتنظر، أخيراً، إلى البيت الكبير الذي له سقف من القرميد الأحمر وجدران سماويّة.

كان دون رامون يقف بانتظارهم، عند باب منزل (الإنكانتو) [السحر].

مكتبة
t.me/soramnqraa

1- Payos من هم ليسوا غجراً.

-3-

في البداية، عبّرتْ صوفيّا عن تحفّظها وقلقها بفتراتِ صمتٍ طويلة، ثمّ لم تلبث أن تكيّفت، فبدأت تستغلّ حرصَ دون رامون وإيولاليا على كسب رضاها لتحصل منهما على ما تشاء.

الغجر لا يعودون، لا يُعرف شيء من أخبارهم. لن تفهم الطفلة لماذا لم تعد أمّها للبحث عنها إن كانت تحبّها فعلاً. وترى أباها محقاً إذ كان يرى أنّ الپايوس [1] ليسوا جديرين بالثقة، ولكن، لماذا لم يعد هو أيضاً؟ وهكذا كبُرت بهويّة منحرفة. تعتادها أحلامٌ طويلة ومفصّلة، ترى فيها غجريّة ترقص أو تقرأ الطالع، وتستيقظ وهي تبكي لأنّها لم ترَ وجه أمّها، لكنّها لطالما حلمت بأنّ الغجر يرفضونها، لأنّ دمَها دمُ پايوس. إنّها عاجزة عن تحديد هويتها، وما أسهل ما غيّرت، وهي تلعب مع الأطفال، دورَها، فتندمج معهم حيناً، أو تهدّدهم بقواها السحريّة التي لها أن تحوّلهم إلى ضفادع، إن شاءت، أو إلى أمراء مسحورين، فذلك مرهون بتلبيتهم رغباتها أو امتناعهم عن تلبيتها.

أمّا ذكرياتها عمّا سبق (ديريّا)، فقد تراكمت في ثقبٍ أسودَ يجعل قلبَها مثقوباً، وإلى الأبد.

أمّا موقف البلدة فتتوزعه ثلاثُ جماعات: جماعة تتقبل مصيبتها؛ وأخرى تتوقع مصائب منها أخرى؛ أمّا الذين عرفوا السحر وامتهنوه، فقد قرّروا وضعها تحت حمايتهم.

تقاسم دون رامون وإيولاليا مسؤوليات تربيتها. واتفقا كما يتفق الشريكان، دون أن يكونا شريكين، على ألّا يعوزَ البنتَ شيء. وصار كلٌ

يحبّ البنت على طريقته ومن طرفه، وما لبثت صوفيّا أن غيّرت حياتهما وباتت شغلهما الشاغل. إنّها تحبّهما على طريقتها، وتلعب لعبة أن تكون ابنة الاثنين، مستغلّة التنافسَ الصامت بين العجوزين لتكسب منهما ما وسعها الكسب. تبدي مهارة الأنثى وشطارة المرأة، فتمضي ساعات العصر الطويلة مع إيولاليا تتعلّم منها الخياطة والطبخ؛ ثمّ تُدخل السعادة على قلب دون رامون حين تُظهر له مهارتها في ركوب الخيل، وترافقه في جولاته لدفع الأجور إلى العمّال، ورحلاته القصيرة إلى (موميا چو)، البركان الخامد الذي يمثّل عالماً منغلقاً على نفسه.

تغويهما الطفلة وترافقهما. ولا تقلقهما عفرتتها، إذ تختبئ أو تتنكّر أو تكذب كذباً منكراً، ولا يأبهان لما فعلته في السنة الدراسية الأولى، التي أمضتها في العزبة، إذ أخذها دون رامون إلى مدرسة الراهبات الداخليّة المرموقة -مدرسة **ماريا غرناطة المُساعدة**-، حين استدعت الراهبات المالك، بعد ثلاثة أشهر، ليقلن له إنّهنّ غير قادرات على مواصلة تربية الطفلة، معللات قرارهنّ بأنّهنّ لا يستطعن فهم المشاكل التي تعترضهنّ: فلصوفيّا، في ما يبدو، شخصيتان، قلن له، فهي ذكيّة وتؤدّي الفروض والواجبات، لكنّها لا تحسب حساباً لقواعد المدرسة وأنظمتها. تصل إلى الدرس متأخرة، وتلبس من الثياب ما يعجبها، وتستعير في الخفاء كتباً لا تتناسب وسنّها، ولا تلتزم في الحمّام بقواعد النظافة المرعيّة.

- يا للعجائز المتحاملات! - يسبّهنّ دون رامون، ثمّ ينقل البنتَ إلى مدرسة (ديريّا).

تواصل تعليمُ صوفيّا على يد معلمين خصوصيين استدعاهم من (ماناغوا). وبدت البنتُ لهؤلاء المعلمين طالبة مقبولة، وهو ما قاد دون رامون وإيولاليا إلى الاستنتاج أنّ العلّة كانت في المدرسة الداخليّة، التي لم تناسبها. وراح كلّ واحد منهما يفسّر ذلك، بحسب تفكيره، على أنّه دليل حبّ الفتاة له وعدم رغبتها في الابتعاد عنه. وهكذا راح الاثنان يشيخان سعيدين، إذ يحسبان أنّهما يحسنان رعايتها.

ومضى الوقتُ بلا مشاكل. وأشرفت صوفيّا على نيل البكالوريا. لقد

نضجت وأصبحت شابة في السابعة عشرة، ورأى دون رامون أنّه لن يلبث أن يزوجها. سيزوّجها، فكّر، من شخص كُفء، قادرٍ على أن يصرّف شؤون العزبة، وأن يرث معها (الإنكانتو).

– لا تفكّرْ في الموت، أبي – قالت له صوفيّا.

لكنّه يعلم أنّ منيته تقترب. تدنو منه في الليل، تجرجر أذيالها، من تحت نافذته. يُخيفها. يصرخ بها، يطلب منها أن تنصرف، فما زال أمامه الكثير الكثير، ولا يفتح لها الباب. إنّه يتعجّل معرفة المستقبل، ترتيب شؤون صوفيّا وضمان سعادتها، كما فعل طوال تلك السنين. أمّا إيولاليا فقد عوّضها عن جهودها، وها قد نمتْ أشجارُ البيت الذي بناه لها في العزبة، لكي يوفّر عليها مشقة الرحيل كلّ يوم للعناية بالفتاة.

ورأى الاثنان الفتاة، كلّ من مكانه البعيد عن الآخر، وقد استطالت ساقاها وتكوّر ردفاها. ضفرت لها إيولاليا شعرها الأسود، بينما تكفّل دون رامون بجلب الكتب واستدعاء المدرسين من ماناغوا. وهكذا هوّنا على المراهقة وطأة كوابيسها، ورافقاها في فترات صمتها الـكئيبة.

كانت صوفيّا تناديهما بأبي وأمّي، وإن طلبتْ منهما، بين الحين والحين، أن يحكيا لها عن الغجر الذين خيّموا، تلك الليلة، في (ديريّا).

«لم أر أشباحاً أكثر حياة منهم»، اعتادت إيولاليا أن تقول لصديقتها إنغراثيا. ربّما أخطأ دون رامون وأخطأتْ هي إذ أبقيا على الذكرى الباهتة حيّة في رأس الطفلة، قالت. كان من الأفضل أن تنسى البنتُ الغجرَ والعربات. ولكن، هيهات! فقد كانت تحمل ذكراهم في دمها. المشكلة أنّهم لم يعاودوا الظهور في تلك الأنحاء. بل صار يبدو لها أنّها تحدّث الفتاة عن حلم، حين تعود هذه، كلّ بضعة أشهر، وتطلب منها أن تكلمها عن الغجر. «البنت كبرتْ، أليس كذلك؟»، تقول إيولاليا؛ وها هو دون رامون يفكّر في تزويجها، فأمامها شهر واحد وتنال البكالوريا، وقد قرّر أن يقيم لها حفلاً كبيراً، وما انفكّ أشخاصٌ يأتون من (ماسايا) ومن ماناغوا حاملين أشياء كلّفهم بها دون رامون: دجاج وخنازير وحلوى (ديريومو)، وأوركسترا ماناغوا، وكراسٍ وخياطات يقسن لها ثوبَ العرس.

تقيمُ صوفيّا في غرفة كبيرة تطلّ على الحديقة. يفتح باباها الخشبيان القويّان العاليان المطليان بالأحمر على ممرّ وفضاء من ضياء وأزهار، يقع في وسط البيت. لسريرها البرونزي تيجانٌ وناموسيّة. ولكي ترى صورتها كاملة، فقد أهداها أبوها، دون رامون، حين بلغت الخامسة عشرة، مرآة عليها نقوشٌ عربيّة ورسوم ملائكة يسعون إلى السقف لا إلى السماء. عند حافة المرآة خزانة ملابس بثلاثة أبواب، تُخرج إيولاليا لها فستان الأورغانزا الأصفر. تنظر صوفيّا، الجالسة على سريرها، إليها، وتنظر إلى نفسها في المرآة بطرف عينها.

– ما أجمله عليكِ! –تقول إيولاليا، وهي تمرّر يدها على تنورته الفضفاضة– هيا، يا ابنتي، لا تتكاسلي... البسيه... أريد أن أرى كيف يبدو عليك...

– حسناً – تقول صوفيّا. تأخذ منها الفستان وتدخل إلى الحمّام، وهي تلفّ حول نفسها.

ترتديه. تنظر في المرآة، وتردّ شعرَها عن كتفيها. يعجبها شكلها، وتتشوّق للحفلة، وتتحمّس لفكرة أن تكبر وأن تدخل إلى العالم الحقيقي، عالم الكبار، الذي ما كانت تراه إلّا من خلال فضول عينيها الغامقتين. ما زالت جاهلة بقواعد التهذيب. تضع يدها على فمها وتقلّد صوت الأبواق، قبل الخروج من الحمّام، ثمّ تسير ببطء مقلدة الحسناوات اللائي تشاهدهنّ في أفلام سينما (ديريامبو).

تصفر إيولاليا كما يصفر العامل في مزارع البن. تكتم صوفيّا ضحكتها وتواصل سيرها إلى أن تصل إلى وسط الغرفة، قبالة المرآة، تنحني توقيراً لصورتها، ثمّ تلتفت لتردّ على صفير إيولاليا الثاني بقهقهة.

«آآآآي، إنغرائيا، ليتك رأيتِها –تقول إيولاليا لصديقتها–، كم هي لطيفة ورقيقة، مع ذلك، فقد بدت، حين ضحكتْ، كأنّها كبرت، وما عادت طفلة؛ بدتْ غجرية سمراء، بعينيها تينك وشعرِها المجعّد، ذاك الشعر الذي يغطّي نصف وجهها... لقد أخافتني، إنغرائيا... أرعبتني. إذ لم نرَ أحداً هكذا. بدت لي نجمة من نجمات السينما... وإلّا فماذا نسمّي امرأة شهوانيّة، لها وجه

يشي بالخطيئة والإثم؟... لقد بدت لي... بدت لي... نعم، نعم. بدت لي مثل صوفيّا لورين. نعم...نعم. صوفيّا لورين»

ويشعر دون رامون، هو الآخر، بالخوف من صوفيّا. إنّه ليتمنّى لو كانت على شاكلة صديقتها خيرترودِس، التي تتمتّع بهدوء العذراء السمراء الوادع اللطيف. ما عاد، مؤخراً، يحبّ أن يأخذها معه ليطوف بها مزارع البنّ، وما عاد يطلب إليها أن ترافقه أيام دفع أجور عمّال المزرعة المجاورة، التي باتتْ ملكه. فنظراتُ الشبّان لا يمكن أن تكون أكثر وضوحاً وتعبيراً، وإن حاولوا أن يغضّوا أبصارهم عنها، احتراماً له ومراعاة لشخصه. لا بدّ من تزويجها، وبسرعة. إنّه مقتنع تماماً بذلك. صحيح أنّ الشباب المناسبين باتوا قليلين في البلدة، بعد سنواتٍ كثيرة من الحروب، لكنّ في باله عدداً من المرشحين، وقد قرّر أن يدعوَهم جميعاً إلى الحفلة.

تضع روزنامة (بريستول) تاريخ الاحتفال بنتائج البكالوريا ليتصادف مع اكتمال القمر.

ازدانت باحاتُ تجفيف القهوة، وجُهّزت لتكون مسرحاً للاحتفال، فعُلّقت الأضوية البيض ونُشرت أشرطة المصابيح، وراح المدعوون، بقمصانهم الوطنيّة الملوّنة، يصلون راكبين أو راجلين. وتشعّ نيديا ولولا وبيرونيكا، اللاتي ارتدينَ فساتينَ الساتان المشغولة بحبيبات البلّور، بينما حشرتْ أخرياتٌ أذرعهنّ في قفازاتٍ طويلة لطالما ارتدينها وهنّ يؤدين دور العرّابات في أكثر من عرس. حتّى فيرمين الفقير، اشترى ملابس جديدة للاحتفال ببكالوريا صوفيّا. وراحت الأوركسترا، المؤلفة من كمان وكونترباص وغيتارات وترومبيتات، تصدح بموسيقى (الرانچيرا) و(الميرينغي) و(الكومبيا). على المنضدة الطويلة صُفّت بيرة السيفون وزجاجاتُ الرون وصحونُ الليمون وكؤوس الماء والكوكا كولا وجرادل الثلج. من مؤخرة الفناء تأتي رائحة اللحم المُحلّى والماعز الذي يشوى مدفوناً بين الحجر والفحم. وراحت إيولاليا تردّ على تحيّة العرّابات والعمدة وكلّ من جاء من (ديريّا) لمشاركتهم الاحتفال. أمّا دون رامون فقد جلس تحت شجرة المطاط العملاقة، في صدر مائدة الشرف، حيث جلست أيضاً صوفيّا، توزّع الابتسامات على الجميع وبيدها زجاجة الكوكا كولا.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ من الليل حتّى بلغ الرقصُ ذروته. وراحت الجوقة الموسيقيّة، وقد استعدّت وسخنت، تصدحُ بالميرنغي بعد الميرنغي، حتّى ما عاد يجلس عند طاولة الشرف غير المسنّين، يرقبون، بين حنينٍ وتحسّر، الشبابَ وهم يرقصون ويطربون.

لم يفوّت الرجالُ فرصة النظر إلى صوفيّا وهي ترقص: يحرفون شريكاتهم حتى يتمكنوا من النظر إليها بين اللفّة والأخرى. ينظرون إليها وقد تحوّل فستانُها الأورغانزا الأصفر، في عيونهم، إلى فستان راقصة فلامينكو غجريّة أحمر. لقد ظلّت قصة الفتاة تفتنهم. الكلّ يعرفها، ولم يكفّوا يوماً، ومنذ ألعاب الطفولة، عن البحث لصوفيّا عن سحر ولادتها. أمّا الآن فقد باتوا يظنّون أنّهم يفهمونها، فتقرّب منها كلّ من توسم في نفسه القدرة على ذلك، طمعاً في لمسة من خصرها الدقيق أو التصاق بها أكثر ممّا تسمح به الأخريات. وتقلق الفتيات ويضطربن، إذ يشعرن أنّهن يخسرنَ المنافسة والسباق. ويُمعنّ في عرض مهاراتهنّ، فيبالغن في هزّ أكتافهنّ في رقصة (بالو دي مايو) على أنغام موسيقى (الكومبيا). وتوبّخ الجريئات منهنّ شركاءهنّ؛ إلام تنظر هناك؟ هل أنتَ معي أم معها؟ وتضجّ حلبة الرقص بالغمغمات والهمهمات، وتدوس الأقدام على الأقدام، بينما صوفيّا في شغل عمّا يحدث. فهي لا ترى غير لحظة انتصارها تلك، ولا تتصوّر إلّا أنّها، بردفيها وذراعيها، إنّما ترمي في الهواء بكلّ الكتب والدفاتر وأقلام الرصاص والمعلمين.

يتوقف رينيه عن الرقص، لكنّه لا يرفع عينيه عنها. يواصل النظر إليها، وهي ترقص مع روخيليو. يزمّ قبضتيه غيرةً ويجفف عرقه. لن تكون صوفيّا إلّا له، يعدُ نفسه. ستصبح زوجته، ولن يمسّ أحدٌ شعرة منها. سيرافقها إلى الكنيسة أيام الأحد، وسيبقيها مثل بندقية المزرعة، محشوّة، ممتلئة البطن، حتّى يُنهي أمرَ خصرِها الدقيق، ويذيقَ تلك العيون السود، التي لا تدرك هي خطورَتها ولا تلاحظ كيف تذوّب نظراتُها قلوبَ هؤلاء البلهاء، حلاوة الأمومة.

يرمي بالسيجارة إلى الأرض، ويدوسها بقدمه. يدنو، مستغلاً توقف الموسيقى، من روخيليو ويطلب منه أن يسمح له بالرقص مع صوفيّا. يفهم

روخيليو تصميم الآخر فيتنحّى جانباً، ويبتعد باحثاً عن طاولة يعبّ فيها الرون.

– رقصتِ مع الجميع إلّا معي – قال لها رينيه.

ابتسمت، وأومـأت له، بشعرها وخصرها. فالحلّ سهلٌ، وها هي الموسيقى تصدح من جديد.

يعرف الجميع أنّ رينيه راقصٌ كبير، ففي حفلات بلدة (خينوتيبي)، يتحلّق حوله الأصدقاءُ، وتتحرّق الفتيات رغبة في مراقصته. أمّا مع صوفيّا، فقد أراد أن يستعرض أفضل ما لديه: حرّكها، لفّها، دارَ بها، قبل أن ينتقل الشريكان إلى ما يشبه مباراة في الرقص. يتوقف الآخرون للتفرّج عليهما. يحدّق رينيه في عيني صوفيّا لكي تتحرك على إيقاعه. تقرّب دون رامون وإيولاليا والمسنون ممن كانوا يجلسون عند طاولة الشرف، من حلبة الرقص ليروا الشريكين وهما يبليان بلاءً حسناً. شعرت صوفيّا بسعادة غامرة لأنّ رينيه حملها إلى حيث كانت ستحمل شريكتها لو أنّها كانت الرجل، وأعجبت بعينيه المشدودتين إليها، كما هي العيون التي تظهر على أغلفة الأسطوانات. ومع انتهاء الرقصة، شعرت صوفيّا بأنّ رينيه يعجبها وبأنّها منجذبة إليه. صحبته لتناول شراب الرون والكوكا كولا، تحت شجرة المانغو. وحين انتهت الحفلة وانصرف الجميع، شعرت صوفيّا بأنّها باتت قاب قوسين من الارتباط بخطيب.

-4-

لم تدم فترة الخطوبة طويلاً. فبعد ستة أشهر، بدأت التحضيراتُ للعرس. فلا بدّ من تزويج صوفيّا في الأسبوع الأخير من نيسان، قبل بداية موسم المطر.

ترغب صوفيّا في الزواج، لأنّ الزواج، في نظرها، بداية حياتها البالغة، حيث لا تجبُ براءةٌ ولا انقياد. إنها لا تعرف إن كانت مغرمة برينيه، لكنّها تعرف، ومنذ أن كانت طفلة، أنّ الحبّ خدّاع، وأنّ المهمّ هو أن يقدر الواحد على فعل ما يريد.

وصل فاوستو إلى العزبة. وفاوستو هو ابن أخي دون رامون الوحيد، وهو يعيش، منذ سنوات، في باريس. أرسلته **الحكومة** في منحة دراسية، بُعيدَ انتصار **الثورة**، حين طُرحتْ منحٌ لدراسة أيّ شيء. لكنّ فاوستو لم يعد من باريس، بل آثر البقاء للعمل في أحد إستوديوهات السينما.

وسارت الأمورُ معه في باريس على ما يرام، وعمل مخرجاً سينمائياً. وها هو يعود إلى وطنه الصغير، وقد بات فرنسياً يلبس البنطلون الأبيض والقمصان الضيّقة التي تحمل علامة التمساح. واستمعت صوفيّا، وهي جالسة جنب أبيها رامـون، إلى فاوستو وهو يتحدث عن أوروبـا، عن جادة الشانزليزيه، وعن بولفار سان جيرمان، ومتحف اللوفر، والتماثيل، والمتاحف، وتاريخ **الثورة الفرنسية**، وحرب **المائة عام**. ما أظرف طريقة فاوستو في سرد التاريخ! وما أغربَه وهو يحرّك يديه برقّة ولطف.

– ليتني أصبحتُ مؤرخاً – قال.

لم تكن صوفيّا بحاجة إلى سماع كلام من هنا أو هناك لتدركَ أنّ ثمّة خطأ في جنس فاوستو.

وهكذا فهمتْ لماذا يسمح دون رامون لابن أخيه بالدردشة معها ساعاتٍ وساعات، حتّى يحينَ وقتُ زيارة رينيه، عصراً، ووصوله في سيارة *الجيب*. ويصل رينيه، فيلقي على فاوستو نظرة ملؤها الاحتقار، لكنّها خالية من أيّ شعورٍ بالغيرة.

تحلم صوفيّا، أثناء نومها، بأوروبا، وبحديث فاوستو عن أصل أوروبا، تلك المرأة التي اختطفها زيوس المتنكر في هيئة ثور.

وتمنّت على رينيه أن يمضيا شهر العسل في أوروبـا. لكنّ أوروبا بعيدة، قال لها، والوصول إليها يكلّف غالياً، ثمّ إنّهما لا يجيدان الفرنسية ولا الإنكليزية ولا أيّة لغة من لغاتها الغريبة. فتقول له: ذلك لا يهمّ، انظرْ إلى فاوستو، لم يكن يعرف الفرنسية، لكنّه تعلّمها. ما أكثر ما يعرف، وما أحلى ما يقول، وما أمتع ما يحكي! ويستاء الخطيبُ، ويقول لها إنّه لا يحبّ أن يسمعها تتكلّم عن «مخنثين». ويغيّر الموضوع، فيسألها عمّا فعلت في ماناغوا، ويسألها إن وجدت القماش المناسب لفستان العرس.

وتجاري صوفيّا خطيبها، وهو يتحدث عن تفاصيل الزواج. فهي لا ترغب في أن تجادله، ولا أن تراه يغضب ويعصر أصابعه؛ فهي تشعر بصدى غضبه يتردّد فيها، وبتقطّب وجهه سخطاً عليها. سخطٌ يتسلل من بين أسنانه، التي تصطكّ وتشي بغضب مقنّع بابتسامات. ما أفظع رينيه حين يغضب! ولذلك تفضل أن تراه هاشاً باشّاً. تفضّل أن تراه وهو يتأمّل وجهها بعيني المتعبّد. ولذلك فهي لن تقابل غضبه بغضب، كي لا تُفسد خططها.

– هذه هي حال الرجال، يا ابنتي –تقول لها إيولاليا–، لا معارضة ولا اعتراض. حين يشيخون، يهدأون. فقط حين يشيخون. وحينها يصبحون كالأطفال. أمّا في سنّ رينيه، فهم يحبون السيطرة. تلك هي طبيعتهم، وذلك هو طبعهم، الذي لا يمكن تغييره ولو أشعلت كلّ الشموع للعذراء.

لكنّ رينيه فتى طيبٌ وحنون. يأتيها بالهدايا من ماناغوا. أخذها، ذات يوم، إلى المدينة ليتناولا الغداء في مطعم فاخر. لكنّها لم تأكل شيئاً تقريباً، لأنّها انشغلت بالنظر إلى الناس الداخلين، وإلى النساء اللائي يرتدين التنورات القصيرة، المتزوقات، المتزينات، واللاتي طلين أظافرهن بالأحمر. ولم

يأكل رينيه شيئاً تقريباً أيضاً، فقد أزعجه الرجال الذين انصرفوا، كما يقول، لا إلى أكل ما تشتهيه بطونهم بل إلى التهام صوفيّا بعيونهم. ما أشدّ غيرة رينيه!

– لأنّه يحبّك –تقول لها إيولاليا–، فهكذا هم حين يحبّون.

وتصدّقها صوفيّا، وأدعى لها أن تصدّقها. فهي تحلمُ بحفل الزفاف، بوجه الطفل الذي سيصبح عليه وجهُ إيولاليا ووجه بابا رامون. فقد بدا على الاثنين، وهما مشغولان بترتيبات العرس، أنّهما استعادا شبابهما. باتا يسيران وظهرهما أكثر استقامة، وبات يومُهما أقصر، وهما يقطعانه من أوّله إلى آخره، يخططان لمكان الطاولات، ويفكران في الأطباق التي يجب تقديمها، والكراسي وشراشف المائدة التي يجب كراؤها، وفي ملابس الوصيفات. وكانت صوفيّا تستمتع بذلك الاهتمام، وتعلّق آمالها على دخولها إلى (ديريا): تريد الدخول مع دون رامون، وعلى صهوة *خيتانو*، حصانه.

– سيستغرب الناسُ، بنيّتي، –حاول دون رامون إقناعها–، فلا أحد هنا يفعل ذلك.

– سيكون حدثاً لطيفاً، بابا رامون؛ وماذا يعني أنّ أحداً لم يفعل ذلك من قبل؟ أليست هناك مرّة أولى دائماً؟

ويوافق دون رامون على فكرتها، وكم مرّة يتزوّج الواحد في حياته!

تجري الاستعداداتُ على قدم وساق. لكنّ ما يهمّ صوفيّا هي لحظة ترجّلها عن الحصان، حين يستقبلها رينيه في الكنيسة، ويضوعُ عطر الياسمين من الأقواس التي ستُصفّ على طول الطريق إلى المذبح. تتخيل الأب پيو وهو يغمز لها إذ يتذكّر ما باحت له في اعترافها من أفكار. وتتصوّر ليلة الدخلة، وتضحك في سرّها.

باتت صوفيّا، مؤخراً، تعاني من الأرق. تحاول النوم. تتقلب في فراشها، وقد استبدّ بجسدها مزيجٌ من الإثارة والخوف. لم تتحدث عن «ليلة الدخلة» الشهيرة إلّا مع خيرترودِس. تبادلتا معلومات في علم التشريح، وتحاورتا بصوت منخفض. حين كانت صوفيّا تلاعب أولادَ عمّال المزرعة، فهمت بعض الأشياء عن الأعضاء التناسلية. رأت أعضاء الذكور منهم، وسمحت ليد أحدهم بأن تمسّ ثدييها، لكنّ حاجز عذريتها ظلّ محفوظاً مصاناً.

قالوا لها إنّ جسدَ المرأة ممرٌ مُغلق، يُفتح عنوة وبالدم، لكنّها لا تعرف مبلغ الحقيقة والخيال في ما حكوه. فكلّ واحد ممّن عاشوا التجربة يرويها بشكل مختلف، فيزداد خيالها تشوشاً.

قدّم دون رامون إلى رينيه هدية زواجه، منزلاً يقع على مسافة خمسة كيلومترات من العزبة، لكي يؤهله الخطيبان حسب رغبتهما. وأتى رينيه بالمهندسين من ماناغوا، وأتى أيضاً بمصممة ديكور إيطاليّة، لكنّه لم يسمح لخطيبته ولو بالاقتراب من البيت. قال إنّه يريد أن يفاجئها. وأصرّت صوفيّا -بدفع من فاوستو- على أن تشارك في ترتيب بيتها الذي ستعيش فيه، لكنّ رينيه لم يتفهم أسبابها.

- ماذا تريدين أكثر -قال لها-، سأتكفّل أنا بالأمر. ضعي ثقتك بي.

وهكذا، استيقظت صوفيّا، صباح اليوم المحدد، وقد قبلت، باسم الحب، ومن أجله، ألّا تتدخل في التحضيرات لعرسها.

انتظرت إيولاليا خروجَها من الحمّام. وساعدتها في ارتداء ملابسها وضبط زينتها والألوان على خدودها. بدت صوفيّا متوترة. فقد ارتعشت يداها وهي تضع الإكليل، ومن فوقه الطرحة، التي تغطّي وجهها. وشعرت بالغرابة، وهي ترتدي ثياب العرس، وبالحرّ، وهي ترتدي الساتان. من أيّام وهي تنتظر هذه اللحظة، لكنّها تجد الآن نفسها خائفة؛ ترغبُ في امتطاء *خيتانو*، لكنّها لا تريد أن يذهب بها إلى الكنيسة؛ وتتساءل عمّا ستفعله حين تعيش مع رينيه. في تلك الأثناء، كان دون رامون ينتظرها ومعه الحصانان مسرجين.

ودّعها عمالُ المزرعة والخدم؛ وودّعتها إيولاليا، التي ستركب في *الجيب* مع دانوبيو. أمّا دون رامون، فامتطى حصانه وحذّر صوفيّا من السرعة، ثمّ بدأ الاثنان في السير حتى خرجا إلى الطريق العام.

لن تشعر صوفيّا بالراحة على ظهر الحصان. فها هو *خيتانو* يحرّك رأسَه كأنّه يطلب من فارسته أن تطلق له العنان، بعد أن قرأ أفكارها، لكنّها تمسك نفسها كي لا تثير حصانَ أبيها، الذي راح يسير متأنيّا فيبعث فيها الملل.

- دعني أتقدمك، بابا رامون - ألحّت عليه.

فيردّ عليها رافضاً. لأنّ عليهما أن يصلا إلى باب الكنيسة معاً. ثمّ يصلان معاً، لكنّهما لا يترجلان معاً، فبعد أن أمسك العمدة بزمام حصان دون رامون، لم تستطع هي أن تمسك بزمام نفسها، بل همزت حصانَها فانطلق يخبّ صوب (نانديمه). لم يصدّق الحاضرون ما رأت أعينهم. ورسمت بعض النسوة علامة الصليب على صدرهنّ، وخرج الذين كانوا داخلَ الكنيسة على جناح السرعة، لكنّهم لم يحظوا إلّا برؤية طرف من طرحة العروس، التي لم تلبث أن اختفت في المنعطف. سمع رينيه بفعلة صوفيّا، فانضمّ إلى مجموعة المعلّقين والمحللين، لكنّه سرعان ما شعر بأنّه بات بطل حدثٍ درامي. لا أحد يجرؤ على النظر إلى عيني العريس. وظلّت إيولاليا ودون رامون حائرين ينتظران، وكيف لهما أن يُقرّا بأنّ العروس قد هربت؟ وهكذا راحا يحاولان تهدئة المدعوين.

غذّت صوفيّا السيرَ بحصانها وجدّت، حتّى شعرت بالراحة. وعندها أعادت توجيهه، وفاجأت الجميع بظهورها في سحابة من الغبار، بعد أن كان حفلُ الزفاف قاب قوسين من أن يُلغى بعد أن حكّم الدمُ الغجريُ فيها رأيَه.

لم يسبق لـ (ديريّا) أن شهدت حادثاً كهذا، ولم يسبق لها أن رأت عروساً مغبرّة كتلك. ترجلت العروس عن الحصان، وعانقت دون رامون وإيولاليا، اللذين ما كانا قادرين على قول شيء. نفضت الغبار عن طرحتها، وأعادت وضعَها على رأسها. وطلبت منديلًا لنفض الغبار عن فستانها، ثمّ أشارت برأسها إلى أنّها باتت جاهزة. وعندها، أطلقت إشارة البدء، حين تأبّطت ذراع دون رامون وقادته في الممرّ الذي خيّمت عليه الدهشة وغمرته رائحة الياسمين.

وتأملها المدعوون، الذين عادوا ودخلوا إلى الكنيسة، بصمت، وهي تمر، مرفوعة الهامة، وقد علا الغبارُ فستانها الأبيض، ولطّخ عرقُ الحصان حاشيته وطرفاً من تنورتها الساتان الفضفاضة، وبات شعرُها أشعثَ منفوشاً.

وتطيّرت النساء، بينما آثر الرجالُ، الذين حسدوا رينية طوال أشهر، الابتسام، بعد أن تحققت لهم صحة المثل القائل بأنّ من يضحك أخيراً يضحك كثيراً.

نظرت صوفيّا، من خلال الطرحة، ودقات الطبل تطرق في صدرها، إلى رينيه، الواقف بجوار المذبح. لاحظت علامات الغضب ما زالت بادية على وجهه الوسيم. لن يسامحها على أنّها تجرأت وأثارت شكوك الآخرين. سيروضها. وسترى كيف سيزايلها جموح تلك الفرس الوحشيّة الذي يسكنها.

ولم يلبث الترويض أن بدأ، بعد انتهاء الاحتفال مباشرة. فما إن خرج العروسان، مغمورين برائحة البخور والشموع المعطرة، حتّى أمسك رينيه بذراع صوفيّا، ومنعها من أن تصعد على ظهر الحصان. سيركبان في *الجيب*. وهو الآن من يأمر وينهى.

في هدأة الليل، وفي الطريق إلى فندق (سان خوان ديل سور)، حيث سيمضي العروسان شهر عسلهما، التزم رينيه الصمت. عبثاً حاولت أن تشرح له أنّها لم تستطع كبح رغبتها في الجري بالحصان، بعد ذلك السير البطيء به مع بابا رامون. فهو لا يستطيع نسيان المهانة التي شعر بها حين رآها تدخل الكنيسة وقد كساها الغبار وعبثت الريح بشعرها، بعد أن كان يحلم بعروسٍ بيضاء مبرّأة من كلّ شائبة، لتكون مبعث فخره وزهوه.

– ليس الذنبُ ذنبك –قال لها أخيراً–. فكلّ الغجريات عاهرات. إنّه طبعٌ يسري في دمك.

وأمضت تلك الليلة، وهي تصرخ تحت ذلك الحيوان المتوحش الذي أقسم لها أنّها ستدفع غالياً ثمن فسادِ أصلها.

قاومت صوفيّا، ما وسعتها المقاومة، انقضاض رينيه، بعضوه الضخم، عليها، ونشبت أظافرها في الملاءات، وراحت تلعن الغجرَ الذين تخلّوا عنها، والساعة التي قبلت فيها الزواجَ من ذلك الوحش.

-5-

ما إن وصلت صوفيّا إلى بيت الزوجيّة، بعد عودتها من شهر العسل، حتّى اتصلت بإيولاليا لتنطق باسمها ثمّ تنخرط في البكاء، تماماً كما فعلت حين وجدتها العجوزُ في الساحة، طفلة تائهة تتسكّع.

إنّها لا تكلّم زوجَها إلّا قليلاً، ولا تُبدي أمامه ضعفاً، وتتجاهل استغرابَه حين يستيقظ صباحاً فيجدها مكوّرة في وضعيّة الجنين وقد حشرت إبهامها في فمها.

يطوف بها رينيه أرجاءَ المنزلِ ليريها الديكورات التي أضافها من أجلها، وأثاث الخيزران الذي استجلبه من غرناطة، والسرير الكبير الذي اشتراه من دبلوماسيين يوشكون على الرحيل من البلد، والنوافذ فرنسيّة الطراز، وهي خيرُ ما بات يمكن الحصول عليه منذ أن مُنع استيراد الأباجورات ونوافذ الريَش الزجاجية، لكلفتها وغلاء سعرها. ثمّ راح يفرّجها على المطبخ المكسوّ بفورميكا السلفادور وخزف ميامي، وعلى مناشف كانون الفاخرة... وتنقّل بها بين أرجاء المنزل الجديد بزهو المتفضّل، مفصّلا الكلام عمّا كلفه الحصولُ على هذا أو ذاك، وعن السفرات التي تجشم عناءَها إلى ماناغوا، وعن الرسائل الإحدى عشرة التي أرسلها لتمشية الأمور في بعض الدوائر والمصالح البيروقراطيّة. وأخيراً، وتتويجاً لعصبيّته، التي يبدو أنها لم تفارقه، لا ليلاً ولا نهاراً، منذ صبيحة العرس، فتح شبيكة غرفة النوم المزدوجة، وفرّجها على السرير الكبير، وعلى الحائط والسقف اللذين كُسيا بالمرايا، حتّى بدت مساحة الغرفة مضاعفة، ثمّ على الحمام الذي توسط أرضيته بانيو دائري.

– أنا ذاهب إلى العمل –قال لها–. أرجو ألّا تخرجي. واعلمي أنّك، من الآن فصاعداً، لن تغادري البيت إلّا بصحبتي.

بعد الظهر، وصلت إيولاليا ودون رامون. استقبلتهما صوفيّا في الممرّ المؤدي إلى باحة المنزل. قدمتْ لهما الشراب في الكؤوس الجديدة، هديّة عمدة (ديريّا) لهما بمناسبة زواجهما. رسمت الفرحة على وجهها، وحدثتهما عن شهر العسل، الذي أمضياه في فندقٍ بـ (سان خوان ديل سور)، وعن رحلتهما البحريّة في مركب شراعي، حيث حظيا باهتمام زوجين إنكليزيين يسافران، منذ ست سنوات، إلى (أوريغون)، حيث الخيول المرقطة التي يشتريانها ليشاركا بها في العروض الأكروباتيكيّة التي يقدمانها في المهرجانات الشعبيّة التي تقام في شتّى أنحاء بريطانيا العظمى. ثمّ اصطحبت صوفيّا والديها بالتبنّي للتجوّل في أنحاء المنزل، وأخذتهما إلى غرفة المرايا، فراحا ينظران إلى العروس بحبّ، ويضحكان بصوت خافت، وهما يشعران بشيء من الإحراج.

لم تكفّ إيولاليا عن النظر إلى عيني الفتاة، وخمّنت، بحكمة المرأة العجوز، أنّ شيئاً مّا لا يسير على ما يُرام، شيء تتحرّج الفتاة من الإفصاح به في حضرة دون رامون. مسألة تخصّ النساء. قالت لصوفيّا إنّها ستعود إليها صباحَ اليوم التالي، وصباحَ كلّ يوم، حتّى تتعلّم الفتاة إدارة المنزل. عند المغرب، حين تبادل الثلاثة العناق، أحسّ دون رامون، هو الآخر، بغرابة في طريقة صوفيّا في عناقه، لكنّه كذّب إحساسه، لا بدّ أنّه التوتر الذي يصيب المتزوجين حديثاً، كلّم نفسَه.

شيعتهما صوفيّا بنظراتها وبقيت في الممرّ، برهة طويلة، تسترجع أوقاتَ سعادتها معهما في العالم الأوليّ الذي رتّباه على مقاسها ولبّيا فيه كلّ رغباتها. مسحتْ دموعها، فسيعود رينيه، وهي لا تريد أن يراها تبكي، بعد أن بدأت تشعر نحوه بكراهية حقيقية.

في المنزل ثلاثُ غرف. وعدا تلك التي تكسو المرايا جدرانَها وسقفها، فليس في الباقيات سوى القليل من الأثاث. في إحداها نافذتان كبيرتان، يمكن منهما رؤية الطريق العام، من وراء أشجار الليمون المصطفّة في

الحديقة. أمضت صوفيّا بقيّة ساعات المغرب في إفراغ الغرف الأخرى من بعض أثاثها من طاولاتٍ وكراس، بمساعدة خادمتها، پترونا. إنّها تفكّر في ترتيب مكانٍ خاص بها، غرفة للخياطة، ستقول لرينيه. ستزينها بالنباتات، وستحتفظ فيها بأشيائها، لتحظى، هكذا، بمكان تشعر فيه باستقلالها، وملاذٍ تلجأ إليه هرباً ممّا تتجرعه من مرارة رينيه.

في العشاء، حكت له عن فكرتها. هزّ كتفيه.

– البيتُ بيتك، ولكِ أن تفعلي فيه ما تشائين.

وجاءتها إيولاليا، صباحَ اليوم التالي. وكان رينيه قد خرج إلى شؤون يومه. أخذتها صوفيّا إلى المطبخ لتعرفها على پترونا. شربت الثلاثة القهوة في فناجين الخزف، ورحن يتحدثن عن شؤون المنزل، وعن أفضل الأيام للتسوّق، وعن الطعام والطبخ، وكيف يُنظم أمرُ كيّ الملابس وغسيلها.

– أريد أن أتعلم التطريز – قالت صوفيّا.

أخذتْ إيولاليا إلى غرفتها، وأغلقت البابَ عليهما، وراحت تبثّ للعجوز شكواها وتحكي لها عن مصائبها، وهي تنظر صوب الحديقة وعيناها غارقتان بالدموع.

– لن تصدقيني، يا ابنتي، لن تصدقيني –كررت إيولاليا، وهي تستمع إليها–، إن قلتُ لكِ إنّي توقعتُ المشاكل بعد ما فعلتِ. كدتُ أموتُ وأنا أراك تنطلقين بالحصان، لكنّ الأمر لا يستحقّ كلّ ذلك... ليس الأمرُ بالسوء الذي تتصورين... فهو، على الأقل، لم يضربك... – وبدا أنّ إيولاليا لم تكن متأكدة من ذلك، فسألتها: هل ضربكِ؟

– لم يضربني –بكت صوفيّا–، لكنه فعل بي ما هو أسوأ. لو ضربني لقتلته...

– لا تقولي هذا، يا ابنتي. لا تقولي هذا. واعلمي أنّ الزواجَ ليس لعباً، عليك أن تتحمّلي. سيهدأ، مع الوقت، وينسى.

ليس في وسعها أن تفعل شيئاً. لا هي ولا إيولاليا، وهذا هو المحزن في الأمر. ما من شيء يمكنها فعله غير الانطلاق، ثانية، بالحصان، كما فعلت يوم إدانتها، ولكن إلى غير رجعة، هذه المرّة. ولكن، ماذا سيجري لإيولاليا

وبابا رامون؟ لن يتحملا الخبر. ستشعر إيولاليا بأن أولادها يموتون مرة أخرى، وسيعاني دون رامون بصمت، وستزيد الشيخوخة المتراكمة، التي يرفض الاعتراف بها، من تقوّس ظهره. لذلك عليها الانتظار. من أجل إيولاليا ودون رامون، عليها الانتظار.

– هل تظنّين أنّ دونيا إنغراثيا تستطيع أن تعلّمني التطريز؟ سألتْ صوفيّا، وهي ترفع رأسها.

أمضت صوفيّا أيّاماً، توزّع النباتاتِ في أرجاء البيت. وبدا رينيه أكثر هدوءاً وأقلّ عدوانيّة. صار يحدّثها عن أمور عمله. ويعاملها معاملة من له معرفة قديمة بها، بلا رومانسيّات ولا عواطف. حتّى إذا أوَيا إلى فراشهما، توجّه ناحيتها، بعزيمة وصمت، كأنّه ينفّذ بنداً من بنود عقد الزواج التي لا تحتمل التأجيل. حتّى إذا انتهي من مأموريته، أدار لها ظهره. وتمنّى لها ليلة سعيدة، ونام.

أمّا هي، فتظلّ بلا حراك، تفكر في ما اعتادت التفكير به طوالَ اليوم: كيف السبيلُ إلى حياة بلا حبّ، حياةٍ لا تودي بها إلى مستنقعات الحزن والندم. وتراود عقلها، وهو يُضاجعها، فكرة أخرى: لن تنجبَ منه. إذا كان الوقت قد تأخر، فستذهب إلى مُعالجات (ديريّا) ليصفن لها أعشاباً خاصة. وقد تستطيع أن تقنع خيرترودِس لكي تجلب لها، من (ماسايا)، الحبوب الشهيرة التي تبرعت بها الأمم المتحدة، والتي تقول عنها الصحف إنّها متوفرة في جميع الصيدليات.

أمّا مشكلتها الكبرى، إن كانت حاملاً بالفعل، فهي الخروج من البيت. فمنذ عودتهما من شهر العسل، لم تخرج بمفردها. خرجت بصحبة رينيه، مرتين، لزيارة دون رامون. وأصرّ على مرافقتها، في المرات القليلة التي تمنّت فيها زيارة والديها بمفردها. ولمّا لم تكن صوفيّا تعرف حدود ذلك القرار، فقد عزمت على أن تجسّ النبض، حالما يستقر وضعها في المنزل.

انتظرتْ خروج رينيه. ورأته يختفي في سحابة الغبار الذي تصاعد من الطريق الترابية التي تصبّ في الطريق العام. فتوجهتْ بهدوء، مشوب بالتوتر، نحو الحمّام. استحمّت، وارتدت ثيابها. لقد قررت الانطلاق بحصانها إلى

عزبة (الإنكانتو)، لأنّها لا تريد أن تجازف بالذهاب إلى أبعد من منزل والدها بالتبني.

خرجتْ إلى باحة الدار وأمرت پترونا بأن تنادي على فرناندو، الناظر.

حضر فرناندو، الذي كان يرتدي قميصاً بمربعات وقبعة راعي البقر. خلع قبعته احتراماً.

- تفضّلي، دونيا صوفيّا، بم تأمرين؟

- فرناندو -قالت، بهدوء وثقة-، هل يمكنك أن تسرجَ لي واحداً من الخيول؟ أريد أن أذهب إلى (الإنكانتو)

خفض الرجلُ عينيه ورسم على الأرض خطوطاً بحذائه الأيمن.

- ليس عندنا خيول، سيّدتي.

- كيف؟ -قالت صوفيّا-. قال لي أبي، دون رامون، إنّه أرسلَ لي *خيتانو*...

- ألم تعلمي، سيّدتي -قال الناظر دون أن يرفع عينيه- أنّ *خيتانو* جمح بعد عودتكِ مباشرة وكُسرت ساقه، فاضطر السيّد إلى قتله بنفسه؟ أمّا بقيّة الخيول، فقد نُقلتْ إلى المزرعة الأخرى. لم يبقَ هنا غير حصان واحد، وقد أمر السيّد ألّا يمسّه أحد، كائناً من كان، إلّا بإذنه.

عادت صوفيّا أدراجها، وأغلقت على نفسها في غرفة الخياطة.

- منذ ساعات وهي في غرفتها -قالت پترونا لإيولاليا عند وصولها-. سمعتُها تبكي، ولكن يبدو أنّها كفّت عن البكاء. فمنذ برهة وأنا لا أسمع شيئاً. طرقتُ البابَ، لكنّها لم تفتح لي ولم تردّ عليّ. يا للمسكينة! كم كانت تحبّ حصانها! هي لا تعلم أنّ السيّد سيقتلنا لو أنّنا سمحنا لها بالخروج وحدها. هذا ما قاله لنا حين عادا.

كانت پترونا خائفة ومتوترة، تشدّ مئزرها مرّة وتطلقه مرّة أخرى. هدّأتها إيولاليا، ثمّ طلبت منها، بما للسيدة العجوز من سُلطة، أن تحكي لها إن كان *خيتانو* قد مات فعلاً بسبب كسر في ساقه، فكشفت لها الخادمة عمّا شكّت به منذ أن رأت عمّال رينيه يسحلون الحصان الميت سحلاً، حتّى إنّها رسمت علامة الصليب على صدرها، لكنها لم تشأ أن تخبر صوفيّا بشيء.

– هو مَن قتله، أليس كذلك؟

– بلى، دونيا إيولاليا. حكى لي فرناندو إنّه أطلق النار على الحصان المسكين، وتركه تملأ الثقوبُ جسمَه. ما أغربَ ذلك الرجل! لم يهدأ له بال حتّى قتل الحصان المسكين!

– افتحي صوفيّا، افتحي لي، يا ابنتي. – نادتها إيولاليا، وهي تدقّ على الباب.

لكنّ صوفيّا لم تفتح. حلّ الليل والحالُ كما هي. دقّ رينيه على الباب مرتين ثمّ استدار. هزّ كتفيه وذهب إلى الفراش.

– لن تلبث أن تستردّ طبيعتها – قال مخاطباً إيولاليا. لا تقلقي، حضرتك. يمكنك أن تعودي إلى بيتك، فهذه أمورٌ عاديّة تحدث بين كلّ زوج وزوجته.

في اليوم التالي، حين وصل دون رامون، كانت صوفيّا في الممرّ تخيط. لم يحدث شيء، قالت له، فقد كسرت ساق *خيتانو* واضطر رينيه إلى قتله. صحيح أنّها تأثرت، لكنّها الآن بخير، قالت، فلا تقلق، يا أبي. شعر دون رامون بالاطمئنان، فقد كانت تبتسم وهي تحكي له عن دروس الخياطة وتدعوه لتناول الغداء معهما يوم الأحد. «إيولاليا، إذاً، كانت تبالغ»، قال دون رامون لنفسه وهو عائد مع دانوبيو إلى العزبة.

واصلت صوفيّا الخياطة بصمت. ها هي تشعر بالراحة، بعد أن جاءها الحيضُ في الليلة البارحة، التي أمضتها باكية ساخطة.

لا تفهم خيرترودِس سبب عزوف صوفيّا عن الحمل.

– حين تحملين سوف يغيّر معاملته لك – قالت لها.

لكنّ صوفيّا بدّدت تلك القناعة؛ وأبلغتها بأنّها خططت لنسيان ما جرى يوم الزفاف، لكنّها ما زالت غير مستعدة للحمل. طلبت منها أن تشتري لها اثنتي عشرة علبة من الحبوب.

– هذا يعني عاماً كاملاً! – قالت خيرترودِس، بين خائفة ومترددة.

– أرجوك، خيرترودِس، ضعي ثقتك بي. أنا أعرف ما أفعل.

بعد ثلاثة أيّام، عادت خيرترودِس تحمل الحبوب، فوجدت المنزلَ وقد أحيطَ بسور. لقد أمر رينيه بإقامة ذلك السور لحماية صوفيّا من اللصوص.

-6-

باتت صوفيّا مقتنعة أنّها ستظلّ حبيسة البيت، ولوقت طويل. ستمضي، ربّما، كلّ شبابها في ذلك الحبس، لكنّها لن تمضي فيه كلّ عمرها. فذات يوم، حدّثت نفسَها، ستجتاز بوابات السور، وستطير من قفصها، دون أن تلتفت إلى الوراء. لكنّها لن تضيّع وقتها، حتّى ذلك الوقت، بالبكاء والنحيب. صحيح أنّها لن تنال مبتغاها، لكنّ رينيه لن ينال، هو الآخر، ما يريد.

يراقب رينيه زوجته الصغيرة، ويرى فيها صلافة وتكبراً، لكنّه لا يأبه، فصلفها وتكبرُها سيزولان، بلا شكّ، مع الوقت ومع الأطفال، الذين لا بدّ أن يولدوا، لأنّه يفعل ما يفعله كلّ فحل، وكلّ ليلة، وإن كان متعباً، وإن ظلّت هي تحته، لا تصدر صوتاً، ولا تبدي حركة، مستلقية وعيناها جاحظتان، تحدقان في السقف، مثل تمثال باردٍ وجميل.

وتقبّل دون رامون أيضاً حالة ابنته، معلّلا نفسَه بأنّها ما عادت ملكه، بل ملك زوج غيور، يعتني بها ولا يقصّر في حقها، ولذلك فهو يفهمه ويتفهم مشاعره. وهو لا يستطيع أن يلوم رينيه على الذعر الذي أصابه يوم الزفاف، ولا على الخوف الذي جعله يتصوّر أشباحاً، ويخشى أن تتخلى صوفيّا عنه. هو نفسه عاش هذا الخوف حين كانت صوفيّا تكبر؛ الخوف من احتمال عودة الغجر وخروج صوفيّا وراءهم، تتبعهم ببريق عينيها الذي كان يقلقه حين كان يصطحبها إلى ماناغوا، إذ يراها مأخوذة بأضوية المدينة وزحمتها. أمّا الآن، فما عاد يقدر إلّا على أن يهوّن عليها حبسَها، ويصلّي من أجل أن تحبل بسرعة وتنجب أطفالًا يخففون عليها رتابة الأيام في المزرعة.

- أبي، قل لفاوستو أن يصحبك ويُحضر لي كتباً - قالت الفتاة.

وصل فاوستو مع دون رامون، وقت الضحى، يحمل صندوقاً مليئاً بالكتب المنوّعة في مواضيعها، المختلفة في أحجامها، مع موسوعة. كان رينيه غائباً.

– هذه موسوعة *كنز الشباب* –قال لها–. إنّها مخصّصة للمراهقين، لكنّها عظيمة الفائدة.

تفتح صوفيّا كتباً بيضاً مؤطرة باللون الذهبي، وتتأمّل كتاب «س. ج»، وسير الشخصيات والقصص، وتفتح الصندوق، الذي احتوى روايات الغموض والجريمة وروايات الحب والمجلات.

– تمنّيتُ لو أتيتُ لك بكتبٍ أفضل –قال فاوستو–، لكنّي لم أستطع الحصول على غير هذه.

تفرح صوفيّا وتعانق فاوستو وتقبّله من خدّه. ويطلب دون رامون منهما أن يواصلا الدردشة، بينما يرتب هو مع الناظر، فرناندو، أمر نقل عدد من قاطفي البنّ.

– فهذا المتخلّف يحبسك، إذاً، – قال فاوستو، حين انصرف دون رامون.

روت له صوفيّا، بألم، ما حلّ بـ*خيتانو*، وكيف أنّ جميع العاملين في المنزل والعزبة يراقبونها بأمرٍ منه، خائفين مرعوبين، لأنّ رينيه هدّدهم وحذّرهم من أن يسمحوا لها بالخروج وحدها؛ وحكت له عن السور الذي أمر ببنائه، وعن التلفزيون الكبير الذي اشتراه لها، بعد محاولتها تلك للخروج. وأخذته لتريه غرفة الخياطة، وكادت أن تحدّثه عن حبوب منع الحمل، لكنها أمسكت لسانها.

– وماذا ستفعلين؟ – سألها فاوستو.

– سأقرأ وأشاهد المسلسلات التلفزيونيّة.

نظر إليها فاوستو بحزن. إنّه يشعر بالانجذاب إليها، بل لقد فكّر في أنّها قد تكون السبب في حرف ميوله نحو الجنس الآخر، لكنّه لا يريد أن يزيد حياتها تعقيداً.

- المهم هو ألا تنكسري -قال لها-، وأن تبحثي عمّا يسلّيكِ.

- فعلاً.

- اطلبي منه أن يأتي لك بتلفون -نصحها فاوستو-، وهكذا يكون في استطاعتي أن أتصل بك من ماناغوا للحديث معك، ما دام لا يسمح لي بالتردد عليك هنا.

تحسن صوفيّا التعاملَ مع وحدتها. تغلق عليها وعلى نفسها باب الغرفة، وتكلّمها. تخيط أحياناً، وتقرأ أحياناً. تُمضي ساعات من النهار في الحديقة، داخل السور. زرعت، بمساعدة البستاني، فلورنثيو، شجيرات الورد، والجهنمية، وصفوفاً من السراخس. زرعتها أسفل النخلات. تعلّمت أصول التعامل من النبات، وشرعت في إعداد قطعة من الأرض، خلفيّة، بين المنزل والسور، زرعت فيها الطماطم والجزر والخس. سعد رينيه بميول زوجته الزراعيّة، وصار يصحبها، بعد الظهر، حين عودته من عمله، في نزهة، لمعاينة حقولِ البنّ والأشجارِ المعمّرة التي تظللها، ويحكي لها عن نشاط يومه ويكلّمها عن الأزمة الاقتصاديّة التي تعصف بالبلد بعدما عصفت به الحروب والأعاصير.

وتستمع صوفيّا إليه وتحدّثه عن مزروعاتها وعن دروسها مع إنغراثيا. بل لقد صارت تطرّز القمصان لتبيعها في سوق (ماسايا).

قالت له إنّها تشتاق إلى خيرترودِس، التي انتقلت إلى ماناغوا لتعمل سكرتيرة في شركة خطوط جويّة.

- لِم لا تنصب لنا هاتفاً في البيت؟ - سألته. واجتهدتْ بصمت لكي تسمعه يقول لها: حسناً.

-7-

تأخر وصول الخطّ أكثر من شهر، وبعدها، رنّ الهاتفُ الأحمر في صالون المنزل، بين نظرات بترونا وصوفيّا وإيولاليا وإنغراثيا وضحكاتهنّ.

دوّرت صوفيّا رقم خيرترودِس، وكادت لا تصدّق نفسها وهي تسمع، بعد لحظات، صوت صديقتها، قريباً منها.

حين عاد رينيه، بعد الظهر، ابتسم وهو يرى النسوة مأخوذاتٍ بذلك الاختراع القديم.

حاول في تلك الليلة، وللمرة الأولى، أن يكون رقيقًا، وأن يكلّم صوفيّا قبل أن يؤدي فروض الفراش، التي باتت روتينية.

- أرأيتِ أنّي لستُ بالسوء الذي تتصورين - قال لها، وهو يداعب رأسها.

لم تردّ صوفيّا. أخذت نفساً عميقاً، تحاول الاسترخاء. في كلّ ليلة، حين يقترب منها، تحاول الاختفاء في جسمها، فلا تجد منجاة من ذلك الاغتصاب اليومي إلّا في توهّم الغياب والبعد. ولم يكن صعباً عليها توهّمُ الغيابَ والبعد. فآلية ذلك باتت تلقائية تقريباً. نظرت إلى رينيه من مسافتها، وهزّت رأسها، قبل أن تُغلق عينيها، وتشعر به فوقها، يلهث، بينما راح خيالها يقاوم مُحدثاً حالة من الإخصاء تحرّرها من ذلك الجسم الضخم الذي يبدو كأنّه يسعى إلى تحطيم قلبها.

في تلك الليلة، لم يدر رينيه لها ظهره ولم ينم، بل أراد أن يتكلم معها، أن يتحدثا عن المشكلة التي يبدو أنّها تعاني منها لكي تحمل. فهما متزوجان منذ ستة أشهر، قال لها، وهو لم يتوقّف عن أداء ما يخصّه من التزام، إلّا أياماً قليلة، كان فيها مُتعباً. وقد حان الوقت لكي تحمل.

– هذا الأمرُ يقلقني أنا أيضاً – كذبتْ، وحكت له أنّ إنغرائيا عرضت عليها أن تأتي لها بدونيا كارمن، القابلة المشهورة في (كاتارينا).

– جرّبي –قال لها–، وإلّا فسيتعّين علينا الذهاب إلى ماناغوا لكي يعاينك الطبيب.

دونيا كارمن امرأة طويلة، فاتحة البشرة – «سُمرة مغسولة»، كما يسمّي الناسُ ذلك اللون. عُرفتْ في شبابها بجمالها، وكانت تمتلك مقهى عُرف باسم الـ «غانچاثو» [= الخطّاف]، في إشارة عاميّة وظريفة إلى ساقيها الطويلتين ومنطقتها الحسّاسة. يرتاد الفنانون القادمون من ماناغوا المقهى، عصر كلّ سبت، فيحتسون فيه الشراب وينغمسون في مغامراتٍ سرية تحت متسلقات الأجراس الزرق التي تغطّي فناء المقهى الترابي. على أنّ شهرة دونيا كارمن التي جاءتها من العرافة وقراءة الطالع وتحضير أدوية الحبّ والأمراض العضال كانت أكبر وأشيع. بل يقال إنّ لها علاقات وطيدة بسكّان العالم الآخر.

– اقرأي لي طالعي – قالت لها صوفيّا، بعد أن تركتهما إنغرائيا وحيدتين في الغرفة.

كانت دونيا كارمن تحتفظ، في حقيبتها المصنوعة من سعف النخيل، بمجموعة من الأوراق، ملفوفة في منديل من الحرير الأزرق. كارتات قديمة وممسوحة، لكنّ دونيا كارمن كانت تستعملها بالعناية والاحترام اللذين يستحقهما التنبؤ بالمستقبل.

– اخلطيها جيداً –قالت لها–. وزّعيها بيدك اليسرى إلى ثلاث مجموعات، ثمّ اجمعيها وسلميها لي باليد نفسها.

في جوّ الغرفة الخانق، تعرق صوفيّا، وتتسارع دقات قلبها.

نشرت دونيا كارمن الكارتات على الطاولة، ورسمت تصميماً غريباً.

رمت بعشرة كارتات. ورسمت في الوسط والأطراف ما يشبه الصليب، أربعة كارتات في صفّ تصاعدي. ثم راحت تحدّق في الكارتات. تنظر إلى صوفيّا، ثمّ تنظر إلى الكارتات.

– ستنجبين بنتاً –قالت–، ولكن ليس الآن... بعد سنوات.

– من رينيه؟ – سألت صوفيّا.

– من رجل آخر.

– والجمجمة التي هناك؟ – سألت صوفيّا.

– إنّها **الموتُ والبرج** –قالت دونيا كارمن–. شخصٌ ما سيموت، وأشياء كثيرة ستدمّر. إنّه التطهير بالنار... ستعانين كثيراً. هذا قدركِ. لكنكِ ستجدين الحبّ.

– وماذا تقول الكارتات أيضاً؟

– لن تواجهي مشاكل مالية. تقول أوراق التاروت إنّ عليك أن تحذري من اندفاعاتك. انتظري –قالت دونيا كارمن، وهي تنحني على الكارتات، وتحدّق فيها–. ستفقدين شيئاً ثميناً. سيتسرّب من بين يديك.

رفعت دونيا كارمن نظرها من على الطاولة، ونظرتْ إلى صوفيّا بلطف، وأخذت بيديها

– قد تكون الكارتات تأثرت بحالتك المعنويّة. –قالت لها محاولة الشدّ من عزيمتها–: أنتِ لستِ سعيدة، صحيح؟

– صحيح.

– سأقرأ لك طالعك في يوم آخر.

وتعود دونيا كارمن لزيارة صوفيّا، في أيام أخرى، لتقرأ لها طالعها. لكنّ التاروت يعود لينبئ بالأشياء نفسها. وتطلب صوفيّا من دونيا كارمن أن تعلمها قراءة الطالع. وما أحقّها بذلك العلم، وهي سليلة حماة أسرار التاروت وحرّاسه! لكنّها تذكرت ما حكته لها والدتها، وهي طفلة، عن تحريم ذلك، وتذكرت دمها المختلط. « لكنّ دونيا كارمن ليست غجرية – قالت لنفسها– وهي تقرأ الطالع. لا شكّ أنّي أحقّ منها بذلك».

– مسكينة –قالت دونيا كارمن، متحدثة مع إنغراثيا، في طريق عودتهما إلى (ديريا)–. وما أغربَ ما ستواجهه. صحيح أنّها حظيت بزواج جيّد، لكنّ زوجها ليس مستعداً لأن يغفر لها ما وقع يوم الزفاف، ولذلك يبقي عليها حبيسة في الدار. أمّا موضوع الحمل، فلا أرى إنّ وصفتي لا تفعل فعلها،

بل لأنّها لا تأخذها. أنا متأكدة. هي، في النهاية، محقّة، ولو كنتُ مكانها، لما أنجبتُ من رجلٍ كهذا، إلا إذا ضمنتُ أنّي سأكون حرّة في تربية الطفل، بهدوء، ووحدي، وكما أريد. ولكن، أنّى لها أن تعرف ذلك وهي التي لا تعرف حتى من جاء بها إلى الدنيا، مسكينة...

– وجدتُها ماهرة في الخياطة – قالت إنغراثيا.

بدأت دونيا كارمن تتردّد على المزرعة بانتظام، بعد أن نجحت صوفيّا في إقناعها بأن تعلّمها قراءة الطالع. صارتا تغلقان على نفسيهما باب الغرفة لساعات طويلة، لا للخياطة، بل لكي تفهم صوفيّا رسوم **الأسرار العظمى**، ومعاني **الأسرار الصغرى** الستة والخمسين. أهدتها دونيا كارمن مجموعة جديدة وصقيلة من الكارتات، لتتمكّن، من خلالها، من إقناع المستقبل بأن يسلّمها مفاتيحه ويفتح أمامها مغاليقه. ولم تلبث أن اكتشفت منافع التاروت الاجتماعيّة، بعد أن أشاعت بترونا أخبار براعتها في أرجاء العزبة. وسرعان ما بدأت زوجات العمّال بالتقاطر على المنزل طلباً لكرامات أصحاب الكرامات. راحت صوفيّا تتنبأ بثرواتٍ تنزل أو مصائب تحلّ، دون أن يثير ذلك قلقها، وصارت ساعاتُ عزلتها الطويلة أخفّ وطأة عليها، وهي تطّلع على مجريات حياة الآخرين. أمّا عن حياتها، فيبدو أنّ الكارتات ما كانت تكشف لها إلّا عن نبوءاتٍ مشوشة تعزوها هي إلى الروتين وإلى الفراغ الذي يملأها. نصحت دونيا كارمن صوفيّا بأن تبذل عناية أكبرَ لحظة رمي الكارتات، وأن تنبذ الخوف، لحظة قراءة الطالع، لكنّ صوفيّا تتجاهل تلك النصائح أثناء تمرّنها على حظوظ الآخرين، وتشعر بقوة سحرية تسري في دمها، وهي تقلب الكارتات وتعلن عن ولاداتٍ أو قصص حبّ خائبة، أمام نظرات مريداتها المترقبة الصامتة.

وبعد مضيّ عدة أشهر، راح رينيه، خلالها، يجبر صوفيّا على شرب وصفة دونيا كارمن، بحضوره، قرّرَ أن يأخذها إلى ماناغوا، حيث الطبيب الذي نصحتهما به زوجة أحد أصدقائه.

فحص الطبيبُ صوفيّا، بعد أن حشر يديه في قفازات مطاطيّة، فحصاً دقيقاً، ترقبه عينا رينيه المتوترتان، وأنّى لزوجٍ غيور مثله أن يترك زوجته

تدخل إلى العيادة بمفردها. لم يشر الفحصُ السريري إلى أيّة مشكلة. في الولادات الأوّلى، قال الطبيب، قد يتأخر الحمل. فليس أمامنا الآن إلّا أن نصلّي ونجتهد[1].

– هل تأكّدتَ الآن أنّي بخير؟ –قالت صوفيّا لرينيه، وهما عائدان إلى المزرعة–. قد تكون المشكلة فيكَ أنتَ...

ولم يعد رينيه يتكلّم في الموضوع.

1– يذكر المثل الإسباني *a Dios rogando y con el mazo dando* ومعناه هو ما ذكرناه.

-8-

بعد أربع سنوات من زواج صوفيّا، ماتت إيولاليا.

– من كان يظنّ، يا ابنتي، أنّني سأعيش أكثر منها! – قال دون رامون في الجنازة.

تجمع المشيعون في مقبرة (ديريّا) الصغيرة. الكلّ يبكي إيولاليا. الكلّ يتذكّر تلك المرأة التي يُحمل الآن نعشُها، المعمول من خشب الصنوبر، مكسواً بالطرحة التي ارتدتها صوفيّا يوم زفافها.

يمسك رينيه بذراع زوجته، محاولاً مواساتها.

لكنّ صوفيّا أبعدت يدها بقوّة وسارتْ نحو الحفرة التي انكبّ عمالُ المزرعة على تهيئتها.

مع أنّ صوفيّا اكتملت، بعد زواجها، جسماً وشخصيّة؛ فقد بكت، أثناء الجنازة، بكاءً مرّاً، وشعرتْ، للمرة الأولى، باليُتم.

وسمح لها رينيه بالخروج، بعد ظهر كلّ يوم، لزيارة دون رامون، لكن ليس بمفردها. وكلّف فرناندو بمرافقتها: هي على الحصان، وهو يمسكُ باللجام، طوال الطريق، في الذهاب والإياب.

ترك موتُ إيولاليا تأثيراً غريباً في صوفيّا، فقد باتت عصبيّة وسريعة الانفعال، تبدو كالطائر في القفص، يرتطم بهذا الطرف فيرتدّ إلى الطرف الآخر. لاحظ دون رامون ذلك، وخشي عليها، وخشيَ أن يموتَ هو وتظلّ هي وحيدة، فصار يصرخ بالموت ويطرده، حين يشعر بدنوّه منه، حتّى ما عاد الموتُ يأبه لصراخه، وانتبه، مؤخراً، إلى ذلك، حين رأى وجهَه رأي العين.

رأى الموتَ يطلّ، بلا حياء، ولا حجاب، من نافذة غرفته.

– عليكِ أن تهدئي، يا بنيّتي – قال لصوفيّا وهو يراها تضرب الأرض بطرف قدمها.

تهزّ صوفيّا كرسيها الذي تجلس عليه، وتهزّ رأسها، لكنّها تواصل ضرب الأرض بقدميها.

– هل تكلّمتِ مع فاوستو؟

– فاوستو يقول ما تقول. لا أعرف لماذا تطلبون منّي كلّكم أن أهدأ. أنا لم أتغيّر.

لكنّها تعلم أنّها تغيّرت. وتعود إلى بيتها، تشعر بالكراهية نحو فرناندو، لأنّه يسير ببطء، ويمسك بلجام الحصان.

يغريها الهربُ والانطلاقُ في الأرجاء، ويغريها التحرّر من دور الزوجة «المحتشمة» الخاضعة، ولولا دون رامون، لحملتها ساقاها إلى حيث لا تعرف. لقد أكسبتها العرافة شهرة تؤهلها للهوٍ يسمح به رينيه، لأنّه لا يراه خطِراً. مع ذلك، فقد باتت تشعر بالتشتت، وبدأت تنسى معاني **الأسرار**. صارت لا تجد سلام روحها في الخياطة، ولا في القراءة، التي وجدت فيها، ذات يوم، متعتها، وأخرجتها من أسوار المنزل وحملتها إلى عوالم بعيدة وأماكن غريبة. في الليل، تتسمّر أمام التلفزيون، كالمنوّمة الغائبة. وحين يتّصل بها فاوستو، تتكلّم معه وتطيل في الكلام، ثم تنسى ما قاله لها.

– تبدو كأنها تمشي في نومها –قالت پترونا لإنغراثيا–. أظنّ أنّها لن تتجاوز فقد إيولاليا. أمّا دون رينيه، فيزداد توتراً وعصبيّة. ولا أستبعد أنّه سيشدها، ذات يوم، من شعرها ويطرحها أرضاً. أقرأ ذلك أحياناً في عينيه.

في القداس الذي أقيم بمناسبة مرور شهر على وفاة إيولاليا، ذهبت صوفيّا إلى الكنيسة مع رينيه. وجدها دون رامون هادئة ساكنة. بل لقد لاحظ في عينيها بريقاً جديداً وفرحاً، وخمّن أنّها لن تلبث أن تخرج من كآبتها.

لم تسمع صوفيّا صلوات الراهب، مع أنّها في الكنيسة.

فقد سرح بالها وهي تفكر في الرجل المجهول الذي اتصل بها عصرَ

اليوم السابق. إنّه نفسُه الذي اتصل قبل أربعة أيام وادعى أنّه أخطأ الرقم، والذي لم يتوقف، من وقتها، عن الاتصال كلّ يوم.

– آلو. هل هذا هو الرقم 4022 من (ماسايا)؟

– لا. لقد أخطأتَ الرقم وطلبتَ رقماً من (ديريّا).

– وما هو الرقم؟

– 4122

– عذراً. صوتكِ جميل. ما اسم حضرتك؟

– صوفيّا.

– واسمك جميل أيضاً. وما عملكِ؟

– أنا غجرية. أقرأ الطالع.

– لكنّ صوتكِ صوتُ امرأة شابة، لا صوت عرّافات.

– أنا شابة. ومن تكون حضرتك؟

– اسمي إستيبان. وأنا محام من ماناغوا.

– أهلاً وسهلاً.

– طيّب. عذراً للمقاطعة، لكنّي مسرور بالكلام معك. ربّما استطعتِ أن تقرأي لي طالعي بالتلفون...

– هل تستطيع الاتصال بي غداً؟

– بالطبع أستطيع – وكان صوت الرجل ينمّ عن استمتاع وتواطؤ.

– ستتصل بي غداً؟

– سأتصلُ بك، صوفيّا، وبكلّ سرور.

حكت ذلك لإيولاليا، وهي في الكنيسة. فقد تستطيع هذه أن تسمعها، من مكانها. لم تستطع صوفيّا أن تستوعبَ موتَ إيولاليا المفاجئ. فقد رحلت دون مقدمات ولا تفسير، تماماً كما فعلت أمّها. ثمّ تردّ على نفسها بأنّ الموتَ أعمى، لكنّها، في الواقع، تسخط وتألم لفقد إيولاليا، أمّها التي تبنتها، فتقوم بين الشعورين موازنة تنتهي باستبعاد موتها.

ويحسب رينيه أنّ زوجته تصلّي، ويحني رأسه محاولاً أن يصلّي، ولأنّه

يحاول ألّا يشتّت انتباهه بالتطلّع إلى الآخرين، الذين يبدون غارقين في تذكّر إيولاليا التي تسبح وسط دخان الشموع وترانيم الكاهن الذي راح ينشد «يا حملَ الله الذي يرفع خطايا العالم. ارحمنا».

بعد القدّاس، اجتمع أهلُ البلدة في عزبة (الإنكانتو) ليأكلوا لحم الخنزير المشوي والموز، تحت ظلال أشجار المطاط.

راحت النساءُ يذكرنَ مناقبَ إيولاليا، كما جرت العادة في مجالس العزاء؛ بينما كان الرجالُ يتجادلون، في أحد أركان باحة تجفيف البنّ، حول الأسعار والأسمدة. أمّا صوفيّا، فراحت تحادث إنغراثيا ودونيا كارمن، وهي تحرّك الهواء أمام وجهها بمروحة معمولة من سعف النخيل.

تراجع الفراغ الذي أحسّت به، إثر فقد إيولاليا، أمام ما استجدّ على حياتها بفضل المكالمات الهاتفية، وبفضل شعورها بقرب صديق مستعد لمساعدتها على تخطّي حدود محبسها، وهو سرٌ آخر لا يعلم به غيرها.

– أنا متأكدة من أنّ إيولاليا ماتت سعيدة – قالت إنغراثيا.

– على الأقل، ماتت من دون أن تشعر –ردّت عليها دونيا كارمن–. فعلاً، لقد كانت محظوظة في هذا. ولو طلبتُ شيئاً من الربّ، فسأطلب منه أن أموت كما ماتت إيولاليا. أن أنام ولا أصحو. وهكذا أنتقل إلى العالم الآخر وأنا نائمة.

– تمنّيت لو استطعتُ أن أودّعها –قالت صوفيّا–. وسأظلّ أحملُ هذا الشعور الغريب في أنّي لم أودّعها. كان آخر شيء قلته لها: «أراكِ غداً»، لكنّني لن أراها بعد الآن.

– صحيح، يا ابنتي. الفراق يؤلم من يظلّ ويبقى –قالت إنغراثيا–، أمّا من يموت، فخيرٌ له أن يموت بلا وداع. أتذكّر حين ماتت أمّي... أتذكر الطابورَ الطويل الذي كان يمرّ من أمام سريرها، وهي تتألّم إذ ترى كأنّهم يودّعونها... ما كان أقسى ذلك! وما زلت، وقد أصبحتُ عجوزاً، أتفهّم شعور أمّي ساعة احتضارها؛ لو رأيتما كيف كانت تبكي! كنت أحسبُ أنّها تبكي لأنّها موشكة على الرحيل، لكنّي أدركُ الآن أنّها كانت تبكي من الخوف.

لا تفهم صوفيّا لماذا يبكي الإنسانُ من الخوف ساعة الموت. فقد كانت

ترى الموتَ بعيداً ومستبعداً. تخطر على بالها ذكرى عربة تشتعل. إنّها لا تتذكّر إلّا القليل عن حياتها قبل (ديريا)؛ لكنّ حديث إنغراثيا ودونيا كارمن ذكّرها بجنازة جدها الغجري. فالغجر يحرقون عربة الميت بعد أن يضعوا في داخلها كلّ ما يملك.

– وماذا يفعلون بأغراضها؟ –سألت شاردة–. الغجر يحرقونها. يحرقون كلّ مقتنيات الموتى.

تتوقف إنغراثيا عن رسم علامة الصليب. فهي لم تسمع صوفيّا من قبل وهي تشير إلى أصلها. تنظر دونيا كارمن إليها بفضول.

– ماذا قلتِ؟ – سألتها.

– تذكرتُ جنازة جدّي الغجري. لا أتذكر وجهه، ولا أيّ شيء آخر. لكنّي أتذكّر أنّهم أضرموا النار في العربة التي كان يتخذها مسكناً. كنتُ صغيرة جداً؛ لكنّي أتذكّر النار والنساء وهنّ يولولن.

– يا إلهي –قالت إنغراثيا–. من الأفضل ألا تتذكري هذه الأشياء، يا ابنتي، فما عدتِ من هؤلاء الناس. تذكّري أنّهم تركوكِ.

«تركوني»، تفكّر صوفيّا. منذ أن كانت طفلة وهي تسمعهم يردّدون هذه الكلمة، دون مراعاة الجرح الذي ينكأونه في صدرها كلّما تكلّموا عن ترك أهلها لها دون سبب ولا تفسير. ولطالما تساءلتْ عن لغز مصيرها المتعثّر. تنحي، أحياناً، باللائمة على الغجر وتظنّ أنّهم لم يسمحوا لأمّها بالعودة للبحث عنها. ولطالما حسبتْ أنّ إيولاليا تتحيّن اللحظة المناسبة لتكشف لها عن اللغز. تخيلتها مراراً، تبوح لها، وهي على فراش الموت، بسرّ أصلها الغامض. لكنّ إيولاليا ماتت بينما كانت نائمة، وما عاد في مقدرة أحدٍ أن يردّ على سؤالها.

– كنت أتمنّى لو ودّعتُ إيولاليا، قالت، ونهضت. سارت ببطء، وهي تحرّك المروحة أمام وجهها، حتى اقتربت من دون رامون وجلست، صامتة، إلى جانب الرجل العجوز.

يداعب دون رامون بيده ظهرَ صوفيّا. يحلّ الليلُ، وتظهر اليراعات المضيئة ثمّ تختفي، وتُضاء القناديل المعلّقة في الأعمدة لتنير المكان

للحاضرين؛ في الظلام، تعلو الأصواتُ مقطوعة بالضحكات. إنّه رينيه، الذي جلس، في زاوية من الزوايا، مع أصحابه من مالكي المزارع. «لا أحد يعرفني -تفكّر صوفيّا-، رآني الجميع وأنا طفلة صغيرة، مع ذلك، فلا أحد يعرفني». ماذا عسى هؤلاء أن يقولوا فيها؟، تتساءل، ماذا عساهم يقولون لو أنّهم علموا أنّها لطالما تمنّت لو أنّ فرناندو فقد صوابه، وهو عائد بها إلى المزرعة، وحملها إلى شجيرات البنّ وضاجعها هناك، كما فعل الحطّابُ في إحدى الروايات التي قرأتْها. وماذا سيقولون لو أنّهم علموا أنّها لطالما خطّطت لقتل رينيه بدسّ السمّ له في الطعام، بعد أن قرأت رواية سيرخيو راميريث *العقاب الربّاني*، التي احتفتْ بها الصحفُ والتلفزيون؟ بل ماذا سيقولون لو أنّهم علموا أنّها حتّى تمنّت أن يموت دون رامون ويموت معه ذلك الالتزام الذي يجبرها على تمثيل دور المرأة المتزوجة المحتشمة.

«لا شكّ أنّي شرّيرة وعليّ أن أرحل نهائياً»، تفكّر، لكنّها سرعان ما تندم حين يعود دون رامون ويمسح على ظهرها بيده.

- آلو؟ صوفيّا؟

- نعم.

- أنا إستيبان.

- كيف حالك؟

- أنا هنا أعملُ وأفكّر فيكِ.

صمتٌ

- هل أنتِ بخير؟

- يعني!

- حزينة؟

- ضجِرة.

تنجرف صوفيّا مع نبرات صوت إستيبان. تتصوّره وسيماً ولطيفاً، على الرغم من أنّها شكّت مراراً في تصوّرها له فتخيّلته مكرشاً مقرفاً. مع ذلك فقد استبعدت الصورة الثانية، وقالت لنفسها: ما دامت اللعبة خياليّة، فلأتصوّرْه وسيماً، كما يبدو، على الأقل، من صوته الأجشّ اللطيف. وتكلّم الاثنان

عن حياتهما الخاصة: هو يحكي لها عن إحباطاته اليومية في المحاكم، بين الأوراق وقضايا الطلاق، التي صارت شغله اليومي تقريباً، منذ أن غيروا قوانينها وصار ممكناً رفع الدعوى من طرف واحد. «قضايا الحبّ ستقضي عليّ»، قال لها. أمّا هي، فكانت تطرح عليه السؤال بعد السؤال. «يبدو أنكِ تريدين الطلاق»، قال إستيبان. «سأفعل ذلك يوماً مّا»، ردّت عليه. إنه لا يفهم كيف تصبر امرأة مثلها على زواجٍ لا يقوم على الحب، وتترك الوقت يمرّ. ولا تستطيع التوفيق بين الشخصيةِ المتمرّدة التي رسمها له في خياله والمرأة التي تتحجّج بالمسؤوليات تجاه الأبناء لكي تواصل الالتزام بذلك العقد. إنّ صوفيّا تحيّره وتسحره.

– اتصل بكِ فاوستو عدّة مرّات – قالت إنغرائيا، وكأنّها تلمح إلى شيء.

نظرت صوفيّا إليها ولم تقل شيئاً. وفي اليوم التالي، اتصلت بفاوستو وطلبت منه أن يزورها.

وصل فاوستو بسيارته البيضاء القديمة. رأته وقد أطلق شاربيه وارتدى بنطال جينز ضيّقاً وقميص التمساح المعهود.

ضحكت صوفيّا حين رأت فاوستو يقترب. فلطالما أثار ذلك الشاب فيها شعوراً غريباً، فهو في نظرها صديقة أكثر منه صديقاً. وما أسهل أن تتصوّره وعليه ملابس فتاة. «إنه مخنّث»، يقول لها رينيه، وأيّ ضيرٍ في أن يكون مخنثاً! أليس ذلك هو ما يجعل رينيه يتركها معه وهو مطمئن؟

صحبته صوفيّا إلى غرفة الخياطة. فتحت النوافذ ليتولى الهواءُ تبديد حرّ الظهيرة.

– أظنّ أنّي وقعتُ في الحبّ – قالت له.

– يا امرأة! لا تفاجئيني بهذا الكلام الخطِر –قال لها–. وهل لي أن أعرف المحظوظ؟

– لا أعرفه. فقط تكلمتُ معه في الهاتف. يهزّ فاوستو رأسه غير مصدّق.

– أريدكَ أن تبحث عنه لتخبرني كيف هو، لأنّي أنوي الهرب معه في أوّل فرصة.

– آآآي، ماميتا. على مهلكِ. ما لكِ تخرجين من واحد لتتورطي مع آخر؟...

– وماذا؟ أليس الواحد منّا محتاجاً إلى شريك؟

صمت فاوستو، ثمّ أجاب موافقاً. إنها على حقّ. فكلّ شخصٍ يحتاج إلى شريك. ويسرح به خياله: لو أنّه نال بعض إعجابها، فقد يعيد النظر في ميوله. فأن تكون مثلياً، في مجتمع كمجتمع نيكاراغوا، هو من قبيل الانتحار. هو من قبيل أن تكون حضوناً ([1])، وابنَ شيطان، وآدمياً بثلاث أرجل، ومهرّجاً، ومِسخاً. ما أسوأ أن تولدَ وكلّ هذا بين ساقيكَ، لا كما ولدت صوفيّا، بشقٍّ أنيقٍ ومنحنياتٍ لها تناسق آلة موسيقيّة. إنّه ليشعر بالندم على أن ترك فرنسا، بعد أن فشلت كلّ جهوده للتقرّب من النساء

– وأين يعمل هذا الرجل؟ ما اسمه؟

أعطته صوفيّا المعلومات، بعد أن أقسم لها ألّا يعلم طرفٌ ثالث بالأمر.

– وإذا نبّهتكَ إنغراثيا إلى أنكَ تكثرُ من الاتصال بي، فاخترع لها أيّ سبب، ولكن عليك أن تُفهمهما أنّكَ أنتَ من يتصل بي. أظنّ أنّها تشكّ في أن شيئاً يحدث.

تصلّي إنغراثيا طوال الليل. وتملأ بيتها بالشموع، حتّى ما عاد فيه مكان للمزيد منها. فمنذ أن توفيت إيولاليا، نزلتْ عليها حياة صوفيّا من السماء مسؤولية تعهّدت هي بحملها. وها هي، منذ أيّام، تشكّ في أنّ شيئاً غريباً يحدث، وها هي، منذ أيّام، تشمّ رائحة خطيئة، رائحة أمرٍ مخفي، مُخبأ؛ لقد عاشت طويلاً ورأت كثيراً، فكيف يفوتها احمرارُ وجه الفتاة، وكيف لا تنتبه إذ تراها تخفّ لسماع رنين الهاتف، أو لا تكفّ عن التطلّع إلى صورتها في المرآة؟ إنّها تتصرّف تصرّف من وقعت في حبّ رجلٍ لا يمسّها. ولكن، كيف تسنّت لصوفيّا معرفته، إن كانت لا تغادر بيتها؟ عِبر الجدران؟ وقد فحصتها إنغراثيا كلّها. في الكنيسة؟ والكنيسة لا يرتادها، هذه الأيام، غيرُ النساء. بل لقد تذكّرت إنغراثيا حكاية امرأة (كاتارينا) التي أغرمت بشبح؛ قال الناس إنّهم سمعوها تصرخ من اللذة، طوال الليل، لكنّ أحداً لم ير شيئاً في ذلك

1 – Incubus شيطان ذكر يظهر للنساء ويضاجعهنّ.

المنزل. بل كانت تكلّمه، خالتي، كما أخبرتها ابنة أخت كانت تسكن في الجوار... المهم، قد تكون صوفيّا واقعة في الحبّ. ربّما في حبّ فاوستو. وماذا لو لم يكن فاوستو مخنثاً، إنّما يتظاهر بذلك حتى لا يشعر رينيه بالغيرة منه؟ ما أذكى ذلك الرجل! هذا مؤكد. من المؤكّد أنّها مغرمة بفاوستو. وماذا عنها هي؟ وماذا في مقدورها أن تفعل غير أن تصلي؟ ثمّ إنّ الفتاة المسكينة تستحقّ أن يحبّها شخصٌ ما. ولا شكّ أنّ رينيه سيخرج رابحاً، بعد أن أساء معاملتها وتجاهلها حتّى تجمّد الدمُ في عروقها.

– هل تعلم، فاوستو، أنّي تذكرتُ أشياء وقعت لي وأنا طفلة؟

نظر إليها فاوستو بفضول.

– أشعرُ كأنّ موتَ إيولاليا كشف لي عن مساحة من ذاكرتي. وربّما لأنّ كسلاً في ذاكرتي جعلني أعتقد أنّها تحتفظ لي بذكرياتي، وأنّها ستعيدها لي على شكل أحلام بعد موتها... لا أعرف، لكنّي تذكرتُ جنازة جدي، وتذكّرتُ بلداناً أخرى عشنا فيها، بلداناً فيها جبال شاهقة وثلوج، بلداناً شعرتُ فيها بالبرد. بل لقد تذكّرتُ كلماتٍ سمعتها ليلة ضعتُ. تشاجر والداي...

-9-

- امرأتي عاقر - يبكي رينيه، وهو سكران ثملٌ، في حانة كريسثينثيو.

من الأرضية الترابية تنبعث رائحة التراب النديّ؛ ومن عريشة الأجراس الزرق، التي تظلّل طاولات الخشب الأربع، وهي كلّ أثاث ذلك «البار - المطعم»، تسقط قطراتُ الماء. تسقي پاتروثينيو، زوجة كريسثينثيو، النبتة، عصرَ كلّ يوم، فلا تراعي وجود أحدٍ في الحانة، فهي واثقة من أنّ للماء تأثيراً إيجابياً على الحُرقة الذي يسبّبها الكحولُ في الدم.

من طاولة البار، تنظر پاتروثينيو إلى رينيه بشفقة، وتحزن إذ تراه وقد فقد اتزانه، حتّى راح يشكو على الملأ أبوّته المحبطة. وها هو، كما في كلّ جمعة، يصلُ الساعة الرابعة عصراً، ويشرب ويشرب، حتى التاسعة أو العاشرة ليلاً، يعتزل الأصدقاء المخمورين مرّة، وينضمّ إلى طاولاتهم، مرّة أخرى.

«مسكين»، تتمتم پاتروثينيو، وهي تتواصل، عن بُعد، مع زوجها، الذي ينظر إليها ويهزّ رأسه مؤيّداً. لم ترُق لها صوفيّا يوماً. وكيف يروق لها كائن غريب، قادم من ظلمة الليل! وعلى الرغم من أنّ الناس في (ديريّا) اعتادوا السحرَ وألفوا التعاويذ، فقد أثارت «الغجريّة» نفورها واشمئزازها، منذ أن عثروا عليها طفلة. «إنها ليست من هذا العالم»، كانت تعلّق حين يجري الحديث عن الفتاة. لا تصدق قصة أنّ والديها تخلّيا عنها. مستحيل! ولِمَ يتخلّى كائن أياً كان عن مخلوقة كهذه! إنّما جاء بها الشيطانُ من الظلام وتركها في البلدة، وأشاع أنّ الغجر تخلّوا عنها. وما أسهل ذلك على الشيطان! ثمّ ابتلي بها المسكين رينيه حين تزوّجها! تذكرُ پاتروثينيو حكايات يوم الزفاف جيداً. حمداً لله أنّهم لم يدعوها إلى العرس، ولم يدعوا زوجها، كريسثينثيو، لكنّ الجميع كانوا مشفقين

على رينيه المسكين لزواجه من تلك المرأة القذرة. ولم يفت أحداً أنّ تدبير الشيطان ما كان ليسمح لها بأن تتزوّج وهي مكلّلة بالبياض، لذلك وصلت إلى الكنيسة والترابُ يغطي حتّى رموشها. ليس ذلك لأنّ رينيه أعجوبة من أعاجيب زمانه، بل لأنّه فتى طيب، حاله من حال الآخرين. ثمّ إنّه من الطبيعي ألّا تنجب تلك المرأة له ولداً! ومن المؤكّد أنّ إبليسَ سيصعد إليها، ذات ليلة، ليبذر فيها خلفته. ليس من الصدفة أن تقع كلّ المصائب التي وقعت، طوال سنوات، ولا كلّ الكوارث التي حلّت، بين زلازل تهزّ وأعاصير تضرب وتخرّب. يبدو أن **المسيح الدجال** سيخرج من نيكاراغوا! ولذلك تفرح پاتروثينيو إذ تعلم أنّ زوجة رينيه لن تنجب، وإن لم يُدرك هو أنّ عُقم تلك المرأة نعمة من نعم الربّ، وأنّ الشيطان كلّما تأخّر في مواقعتها وبذر خلفته فيها، كان ذلك أفضل للجميع. لكنّه كان يحسب حساباً للناس، الذين سيظنّون برجولته الظنون، على الرغم من عضوه، الذي يشي بنطالُه بضخامته، والذي كان مضرب المثل بين أصحابه في المدرسة، حتّى إنّهم كانوا يلقبونه بـ «توركودو»[ذو العضو الكبير]، لأنّه كان، بالخرطوم الذي يتدلّى من بين ساقيه، يستطيع أن يوصل دفق بوله إلى مسافة لا يستطيع سواه بلوغها. فما عليه الآن إلّا أن يكفّ عن البكاء والشكوى، وأن يبحث عمّن تأتيه بالخلفة وترزقه بالولد. وما أكثر من يتمنينه. بل لقد سرت إشاعات عن أن خيرترودِس، وهي أخلصُ صديقات صوفيّا، مغرمة به، وهو ما جعلها تنتقل إلى ماناغوا، تجنباً للوقوع في الإغراء.

مسحت پاتروثينيو يديها بصدريتها، ونزلت من مقعدها. حشرت نعالها البلاستيكي بين أصابع قدميها، وسارت إلى حيثُ رينيه. سحبت كرسياً وجلست.

– كفّ عن الشكوى، يا عزيزي –قالت له–، فذلك لا يناسبك.

نظر إليها رينيه من فضاء ثمالته المضبب.

– زوجتي عاقر، دونيا پاتروثينيو. بطنها يابسة – قال، وهو يجرجر صوته الذي بدا عالقاً بين أسنانه.

– وماذا؟ وما ذنبك أنتَ؟ إن كنتَ ترغب في الولد، فأمامكَ النساء كثيرات. وما أكثر الراغبات في الإنجاب في هذا البلد!

لقد فكر في ذلك. واستمع إلى وجهات نظر مختلفة، لكنّه يخشى أن يكون ما قالته صوفيّا، من أنه هو سببُ المشكلة، صحيحاً. ثمّ إنّه أقسم ألا يخلّف أطفالاً موزّعين هنا وهناك، هو يريد أن يجمع أطفاله وعياله في أسرة كريمة. وكم تمنّى لو أنّ صوفيّا أتته بأولئك الأطفال، فكّر، وهو يعبّ جرعة أخرى، لكنّها الساقطة تغلق دونه بطنها، وإن قال جميع الأطباء بخلاف ذلك. بل إنّها لا تحرّك حتّى رمشيها لحظة مضاجعته لها، فكأنّه يواقع جثّة هامدة.

– لا أريد أن أترك أولاداً هنا وهناك، دونيا پاتروثينيو، لا أريد. –وضرب على الطاولة بقبضته–. لا أريد ذلك، ولكن، يشهد الربّ أن ما من خيار آخر أمامي!

– هناك فرق بين أن تنجب أولاداً وأن يكون لك أولادٌ موزعون هنا وهناك –قالت دونيا پاتروثينيو–. يمكنك أن تنجبهم دون أن تفقدهم، تعطيهم اسمك، تربّيهم... ثمّ، ماذا في مقدور صوفيّا أن تقول؟ أنتَ تمارس حقك. وليس الذنب ذنبك في أن تكون المرأة عاقراً.

– هاتِ لي نصف رون آخر وكفاكِ نصحاً، فأنا لست طفلًا – قال لها رينيه، وعيناه تحكيان شظايا من الزجاج.

تنهض پاتروثينيو عن طاولته، غير شاعرة بالإهانة. منذ زمن وهي تريد أن تقول لرينيه ما تجرأت للتو على قوله. إنها تعلم أنّ الكحول الذي يسري في عروقه لن يخنق بذرة كلماتها، وهي قد رأتْ تلك البذرة تدخل مباشرة إلى قلبه. وليس سواء أن يسمع ما سمع من فم رجل أو فم امرأة، لأنّ كلمة صادرة، بهذا الخصوص، من امرأة، تفوق في وقعها ما يقوله جميع الأصدقاء من الرجال. ثمّ إنّ النساء الأخريات، ومنهنّ نساءٌ بارعاتٌ في الأعشاب، خوّافات. إنهنّ يخشين أن تعلم صوفيّا بتدبيرهنّ فيصيبهنّ سحرُها، فقد ادّعى أحدُهم أن لا رقية تقدر على رقي الغجريات. حتى إنغراثيا، الناسكة الورعة، التي تكفّلت الغجرية منذ وفاة إيولاليا، تخاف منها.

لكنّها سئمت أن تلعب لعبة الشيطان. وبدا لها أنّ الجميع يحمون ظهرَ صوفيّا، خوفاً منها. فإذا كان الجميع يحمي صوفيّا، فمن لرينيه المسكين؟

يعود كريستينثيو بالحطب، وتدخل پاتروثينيو إلى حجرتها الخلفيّة.

تُخرج، من تحت السرير، شموعاً تحتفظ بها تحسباً لانقطاع الكهرباء. شمعتان طويلتان بيضاوان مصنوعتان من الشحم الرقيق. تقرّب كرسياً خشبيّاً من التقويم المعلّق على الحائط، الذي يحمل صورة ملونة للسيدة العذراء المقدّسة، التي تأتي هديّة بمناسبة أعياد الميلاد من موزّع صحيفة (لا پرنسا). توقد الشمعتين. فلعلّ وعسى.

-10-

في طريق العودة إلى المزرعة، سار فرناندو ممسكاً بلجام الحصان. ورأت صوفيّا، في ما يراه النائمُ، رينيه سكرانَ ثملاً، بينما ضوءُ شموع پاتروثينيو يتسلّل من بين أوراق أشجار المطاط.

رمشت عيناها فتبدّدت الصورة. أخذتْ نفساً عميقاً. وما الجديدُ في الأمر؟ فاليومُ جمعة، وسيعود رينيه ثملاً من حانة كريسثينثيو وپاتروثينيو، الزوجين اللذين يحتفيان بسكارى البلدة، ويتكفّلان بسقيهم الشرابَ ثمّ إيصالهم بأمان وسلامٍ إلى منازلهم. تُبعد صوفيّا تلك الصورة عن رأسها وتأخذ نفساً عميقاً آخرَ. تلاحظ أنّ الضوء ينحسر عن أوراق الأشجار. يظهر ظلّ فرناندو، عند قدميها، صغيراً، ثمّ يلتقي، فوق الأرض، بظلها الصغير، وهي على الحصان. يروق لها أن تنظر إلى فرناندو: تتأمّل ذراعيه القويتين اللتين تمسكان باللجام، ويديه الغليظتين اللتين لهما مهارة كلّابين أسمرين. تتخيلُ يديه وهما تلمسانِها، وتتوهّم حالاتٍ مختلفة، في كلّ رحلة لهما بين العزبة ومنزلها. منذ أن قرأتْ ذلك الكتاب الذي يحكي قصّة الحطاب وزوجة الرجل المقعد، قررتْ أن يكون فرناندو هو من يجسّد شخصية الحطاب. وها قد صارت تتسلى بالفكرة وباتت الرحلة على ظهر الحصان تمنحها لذة ما عادت تعرفها إلّا حين تختلي بنفسها. أمّا أشدّ ما يعجبها فهو أن تتخيل نفسها والطقس حار، والعرق يسيل على قفاها، ويبلل شعرَها الذي عقدته إلى الخلف، ويبلل حافة ثدييها. يمسح فرناندو عرق وجهه بظاهر يده. تأمره بالتوقف، فيتوقف؛ تتجه إلى بعض الشجيرات، فتختفي وراءها، وهناك تخلع ملابسَها، ثمّ تخرج عارية، وقد برزت حلمتاها من بين خصل شعرها الأسود. تتوجّه نحو الحصان وتصعد على ظهره لتعرض له، وهي

تسعى إلى ركوب الحصان، ردفيها المكورتين وشقّ سَوْءتها المعتم. يظلّ فرناندو مطأطئ الرأس. تأمره بحرف مسارهما نحو النهر. وتمضي عارية فوق الحصان، بينما تمنحها حركة الحيوان شعوراً مريحاً دافئاً بين ساقيها، وتستمتع بارتباك الرجل وذهوله، وتتلذّذ بفعل الإغراء الغريب الذي يمارسه جسدها على ظهر فرناندو، الذي بات لعبة بيدها. يصلان إلى النهر، فتترجّل عن الحصان، وتزيح شعرَها عن نهديها المتعرقين، تتمطّى، وتتحسس العرق الذي يغطي جسدها، تداعب جسمها، ثم تقفز إلى الماء، وتعوم على ظهرها، وقد رفعها بالونانِ خفيفانِ لا يمتثلان لقوانين الجاذبيّة. يرفع فرناندو رأسه، من حين لآخر، ويرسم بنعله دوائرَ على الأرض، وقد احتقن وجهه واحمرّ، بل إنّ في مقدور صوفيّا أن تسمع دقات قلبه ترتطم بعظامه وتهزّه من تأثير شيء لا يفلح حتّى هو في تحديده: هل هو سخطٌ أم إثارة محكومة بالخوف؟ هل سيصدّقه سيّده إن ادعت هي أنّه هو من أجبرها. تتخيل أنّها تخرج من الماء وتصعد ثانية على ظهر الحصان، عارية، وتمرّ من جنب الرجل كأنّه غير موجود، لكنّها تترك رذاذَ الماء يتطاير من جسدها المبلل، ومن شعرها المنقوع، ليسقط عليه. الآن، عليك أن تنتظرني حتّى أجفّف جسمي، لتأخذني إلى حيث يمكنني أن أستلقي على العشب وأجفّف بدني. أمّا أنت فستجلس وتنتظر.مكتبة سُر مَن قرأ

خيال في خيال في خيال. بل إنّ صوفيّا شعرت بساقيها مبلولتين، وهي التي لم تنزل من حصانها، بينما راح فرناندو يغذّ السير أمامها، ممسكاً باللجام. وحين لاح البيتُ، خطر ببالها أن تحرّض الناظر، وأن تهيئه، كما يُهيأ القندلفت للاحتفال بالسر المقدس. قالت له:

– فرناندو! سأعيركَ كتاباً أتذكره دائماً حين تأتي بي إلى المزرعة...

ستعيره الكتاب، وسيأكل هو التفاحة، وهكذا تتمكّن من تحقيق تهيؤاتها.

– لكنّي لا أجيد القراءة.

تترجّل مستاءة. فها هو رينيه يثير، من جديد، غضبها، لأنّ مساعده لا يحسن القراءة. طلبت من پترونا أن تحضّر لها ماءً فاتراً لتستحمّ. وتستحم، لكنّها متوترة. فقد حاولت أن تستدرج اللذة، عبثاً، فقد بدّدها الغضب.

-11-

- صوفيّاااااا! صوفيّاااا! خيرترودِس تبحث عنكِ - يقطع صوت پترونا نومَ صوفيّا، التي غفتْ وهي جالسة على الكرسيّ الهزّاز، والكتاب مفتوحٌ على ساقيها.

مرّ وقتٌ طويل منذ أن التقتْ صوفيّا صديقتها آخرَ مرّة، وها هي تسعد برؤيتها في بيتها. تنهضُ وترتّب شعرها وتصيح طالبة من پترونا أن تسمح لصديقتها بالدخول.

باتت غرفة الخياطة زنزانة اعتقال دافئة، ومكتباً لشؤون غير منظورة. في الغرفة كرسيّان هزازان من خشب الأرز، بينهما منضدة؛ رفوف للكتب في الجدران؛ ونباتاتٌ في الزوايا؛ ومنضدةٌ أخرى، بجوار أحد الكرسيين الهزازين، عليها سِلالٌ مليئة بخيوط الحياكة؛ وصندوق خشبيّ تحتفظ فيه بشدّة أوراق التاروت لحمايتها من الذبذبات السالبة؛ وخزانة قديمة عليها مزهريّة من ورود تقطفها صباحَ كلّ يوم. أمّا ماكنة الخياطة فقد احتلّت إحدى الزوايا، وبالقرب منها مشجبٌ عُلّقتْ عليه القمصانُ التي تطرّزها.

فتحت خيرترودِس البابَ، وكانت صوفيّا تنتظرها.

بدت الصديقة أنيقة بتنورتها الزرقاء وقميصها الأبيض ومنديلها الملوّن على كتفيها. وتعانقت الصديقتان.

- وكيف تسير أمورك في ماناغوا؟

ماناغوا مدينة يتيمة الأبوين، قالت خيرترودِس؛ مسخٌ ولد من رحم كوارث، مدينة تذكّركِ بمدنٍ صغيرة وبائسة، مصفوفة على امتداد طرق الحافلات، يعزّ فيها الكهرباء، أمّا البحيرة التي تزوّدها بالماء، فلا تفهم أن

ليس عليها أن تجف؛ إنّها مغارة علي بابا، وفي أحيائها يسكن الأربعون حرامي، مدينة يُفترض أن تكون جميلة، بل رائعة، كما هي البطاقات البريدية التي تُباع في البلدان التي زرناها، ببحيرتها التي يمكن رؤيتها من مسافة بعيدة، وبراكينها، لكنّ ماناغوا تدير ظهرها لكلّ ذلك، لا تراه، ولا ترى البحيرات التي في قلبها، بل تتقيأ قنواتٍ من وحل. طرقها تبدو لكِ واسعة، لكنّها ليست واسعة، لأنّ الحفر التي تملأها تُجبرك على الانحراف نحو انحدارات الإسفلت الضيقة. إنّها مدينة مجنونة...

- تكلّميني عن ماناغوا، وأنا أكاد لا أعرف شيئاً عنها. أحياناً، أشعر بالرغبة في الرحيل عن هذا المكان، لكنّي لا أعرف إلى أين. يقول فاوستو إنّ باريس رائعة.

- بالتأكيد -قالت خيرترودس-، لكنّ هذا بلدي.

- طيّب، أنتِ تعلمين أنّ هذا بلدك، أمّا أنا فلا أعلم. فأنا لا بلد لي.

من قال ذلك؟ من سمعتْ يقول ذلك؟ تفتحُ ذاكرة صوفيّا قفلاً صغيراً فيظهر على مسرح ذهنها مشهدٌ من مهرجان: دولابٌ ضخمٌ فيه راكبون يلفّون في دائرة أبديّة، وأصواتٌ تنبعث من أراغن صغيرة تندب حظّها في الشوارع، وخيولٌ مبتسمة، تلفّ وتدور، مراراً وتكراراً، لكنّها ثابتة في مكانها مستقرة، وأبراجٌ من حلوى القطن الوردية، وهدفٌ يسدّد إليه الشبّان، ومرأة بجسد ثعبان، مرسومة على عتبة حانوتٍ ورديّة اللون قديمة. وترى نفسها وهي تراقب، من قامتها الصغيرة، الشاب المهندم، ذا النظارات، وهو يسأل المرأة صاحبة التنورة المورّدة: من أين أنتم؟ لسنا من أيّ مكان، تجيب اليدُ التي تجرّها وتأخذها إلى قريبٍ من الطاولة التي مُدّ عليها شرشفٌ ملونٌ، حيث جلست الغجريات يكشفن عن الطالع.

تقول صوفيّا لصديقتها إنّ ذكرياتِها صارت تعود إليها، منذ أن ماتت إيولاليا. لكنّ المشكلة، قالت لها، هي أنّ تلك الذكريات تأتيها كالأحلام، أراها بوضوح، ولكن تعوزني الكلمات لروايتها. فكيف لي، مثلاً، أن أتكلّم عن وقتٍ يشبه العلكة، لزج القوام، يمطّه الواحدُ مطّاً، أو يلحقه مثل الكلب؟ وكيف لي أن أتكلّم عن منازل سقفها في أرضيتها، ونوافذها في حشايا

أسرّتها، عن طشوت - وسائد، عن طاولات تطوى كالشراشف... أذكر لك أشياء لكنّي لا أقول لكِ شيئاً، إذ ما من شيء يشبه ما أقول، وربّما يشبهه قليلاً... لكنّني أعلم أنّها ذكريات، وأعلم أنّني أستعيد عيون طفولتي.

- إنّه أمرٌ يبعث على اليأس -واصلت صوفيّا-. أحياناً، أغمض عينيّ، ساعاتٍ، لأرى إن كنتُ أستطيع رؤية الوجوه. فإن رأيتُ، مثلاً، وجه اليد التي سمعتها تقول إنّ الغجرَ لا بلد يضمّهم... أعلم أنّه وجه أمّي، خيرترودِس، لكنّي لا أستطيع رؤية وجهها، مهما حاولتُ.

وفي هذه اللحظة، وصل رينيه. فتح البابَ. حين رأى خيرترودِس، خلع قبعة المزارع ونظر إلى حذائه المتسخ. حيّاها، فشعرت بالحرارة تصعد إلى وجنتيها، على مرأى من صوفيّا، أقرب صديقاتها إلى قلبها. بدا عليها التوتّر، وهي تعتذر عن البقاء معهما لتناول العشاء، فعليها أن تنصرف. خرجت على عجل بعد أن ودّعت صديقتها، وتساءلت، وهي تجتاز بوابة المزرعة، عمّا يبقي مشاعر حبّها المستحيل لرينيه، التي تأججت وباتت تثقل عليها، منذ أن اختار صوفيّا زوجة له.

-12-

قبل أيام، اتصل بها فاوستو ليرفع لها تقريراً بشأن انطباعه الأولي عن إستيبان. «لا شيء غير عادي فيه -قال لها-. ليس هو بالقبيح ولا بالوسيم؛ لا بالطويل ولا بالقصير؛ لا بالبدين ولا بالنحيف؛ لا بالأبيض ولا بالأسمر. شخص طبيعي واعتيادي. ها، وهو بشوش الوجه». وألحّت عليه ليزوّدها بتفاصيل أكثر، لكنّه ظلّ يدور في فلك العموميّات. وأخيراً قال لها: «لماذا تريدين أن تعرفي كيف هو شكله؟ خيرٌ لكِ أن تظلّي تحلمين».

واستمرّت العلاقة بين إستيبان وصوفيّا. وازدادت مكالماتهما، يوماً بعد يوم، لهفة وحميميّة. يتحدثان عن اللقاء المرتقب متى يكون. وكيف يكون. وتصف صوفيّا له جسمها، وتحكي له عن الأحلامِ التي تعتادها في الليل؛ بينما يصفُ هو لها كيف أنّه يستيقظ، في الصباح، مبلولاً، حتّى إنّه ما عاد يصبرُ على الفراق. فكّرت أن تتواعد معه للقاء في الطريق بين المزرعة والبيت، وأن تدلّه على تفرّع في الطريق، حيث يمكنه رؤيتها وهي تمرّ على ظهر حصانها، لكنّها عدلت عن الفكرة، فثمّة ما يُثير ويشوّق في العلاقة المبنيّة على رؤية الآخر بالخيال: فضاءٌ يسبح فيه خيالها ويحلّق بلا قيود، فتصف له مناظرَ لا وجودَ لها، وترسم لنفسها صوراً من نسج خيالها، وهكذا تستطيع أن تتخلّص من عيوب مظهرها البسيطة من شعر مجعّد وكتفين عريضتين وساقين نحيفتين... وماذا عنه هو؟ أتراه يفعل كما تفعل؟ تتساءل، لكنّها لا تعير للمسألة اهتماماً كبيراً، فذلك جزءٌ من اللعبة، ومن التواطؤ الضمني بين الاثنين لخداع النفس وتغذية الأحلام.

وهكذا تمضي صوفيّا يومَها، غارقة في بحر تخيلاتها: ذكريات طفولةٍ

تظهر في رؤى مفاجئة، وخطط لتسميم رينيه وإغواء فرناندو، وأخرى لرسم مستقبل الآخرين ومستقبلها مع إستيبان. ويختلط الواقع بأصوات عالمها الخيالي. وهي في غرفتها، يتملّكها إحساسٌ دائم بأن جرس الهاتف يرن، وتتصوّر رينيه وهو ينازع، بعد أن دسّت له السمّ، وترى نفسها حرة في مشهد غير مكتمل رسمته بقصاصاتٍ من ذكريات طفولتها...

– تبدو كأنّها لا تعيش في الواقع، دونيا كارمن –قالت پترونا للعرّافة–. تبدو مسكونة بالأرواح. حين تقيل في غرفتها، يتعالى صراخها.

في تلك الليلة، انتظرت دونيا كارمن أن تُطفأ الأنوارُ في البيوت، وأن تُغلق الأبوابُ على ساكنيها النيام، لتخرج بشال الساحرة وصندلها المطاط. الليلُ معتمٌ، لكنّ العرّافة العجوز تعرف الشوارع كما تعرف راحة يدها، وهي قادرة، إن أرادت، على أن تسلكها مغمضة العينين. الطقس بارد ورطب. تنظر دونيا كارمن، حين مرورها بالحانة، فترى شبح مونچو يحمل عصا البليارد ويلعب بكُراتٍ غير منظورة. ولطالما خرج مونچو في الليالي الرطبة، وأنّى له أن يخلف موعده، فكّرت، رغم أوجاع الروماتزم التي ما زالت تنغّص عليه، وهو ميّت، بعد أن نغّصت عليه وهو حيّ.

ترسم دونيا كارمن علامة الصليب وتواصل مسيرها. يخلّفُ الدربُ المؤدي إلى كوخ المعلّم صاموئيل، أشهر سحرة (ديريّا)، البلدة وراءه، ويستمر عِبر طريقٍ تنمو فيه زهور مسك الليل السامة البيضاء الجميلة. لدى مرورها، تفزع طيورُ البوكوياس وتحلّق مثل شرائط ليلية عملاقة تقطع فضاءَ اليراعات الأخضر. ها هو صاموئيل ينتظرها، وها هو القنديل الزيتي مضاء في كوخه. تشدّ قبضتَها على العصا التي تحملها لطرد الكلاب الضالّة، وتحتّ الخطى. صحيح أنّ دونيا كارمن تتحكّم بالأشباح وبما يخبّئ الظلام من خفايا وأسرار، لكنّ هناك جانباً من الليل توقّره وتهابه، لشبهه الكبير بالموت وبالعمى، بينما لا وجود للحياة، لأنّها تعيش في مستنقعات موحلة فوّارة.

يراها صاموئيل وهي تقترب، فيخرج بالقنديل ليضيء لها القطعة المتبقية من الطريق.

– مساء الخير، أختاه – يحيّيها صاموئيل، وهو يمدّ يده ليعينها على تسلّق المنحدر الصاعد من مجرى النهر إلى الكوخ. رجلٌ مستيثو[1] صارم الوجه، حتّى إنّ ملامحه لتبدو محفورة على طين مفخور، يرتدي سروالاً كاكياً، مربوطاً بقطعة من الحبل، لكنّه لا يرتدي قميصاً. على صدره مساحة من جلدٍ مترهّل عند أسفل الثديين وفي طيّة الخاصرة. قدماه حافيتان وأظافره تبدو بيضاً، مقارنة باللون الترابي لقدميه المسطحتين الخشنتين. يتحرك ببطء، وتلفّه رائحة سيجارة الدخان الأسود الحادّ التي حشرها في فمه.

– مساء الخير، أخي – تردّ عليه دونيا كارمن، لاهثة.

– ادخلي –يقول صاموئيل–. أين أنتِ؟ وما الذي جاء بكِ؟

– أعطني قليلاً من القهوة، ودعْني أجرّ نفسي. تجيب دونا كارمن، بعد أن جلست على المقعد الخشبي البسيط.

ينير ضياءُ الموقد الخشبي، الذي وضع صاموئيل القهوة عليه لتسخن، جوفَ الكوخ. من السقف، تتدلى حزمُ الثوم والأعشاب. على أحد طرفي المكان، مرتبة من الخيش مع وسادة متآكلة كريهة الرائحة. وعلى الرفوف، بجوار الموقد، علبٌ من الألمنيوم، وأكوام من الموز، فضلا عن حبّتين أو ثلاث حبّات من الطماطم. وعلى الأرض، ثلاثة أكياس من الذرة والرز والفاصوليا.

على الجدار المشيّد من جذع النخيل، عُلّقت، فوق المرتبة، روزنامة تحمل صورة **عذراء الآلام** وقد اخترقتْ قلبها السيوف، وسعفات أحَد الشعانين، وقطعٌ من الزنجبيل تمثّل أشكالاً بشريّة لفّت بقطع من القماش.

– جئتُ لأطلب نصيحتك – قالت دونيا كارمن، وهي ترتشف قهوتها، بينما راح صاموئيل ينظر إليها، وهو يستنشق دخان سيجاره اللاذع.

– عن الغجريّة؟

– نعم.

– يا لها من مسكينة! في البلدة أشخاصٌ لن يترددوا في العودة إلى

1– Mestizo هجين من أب أوروبي وأم هنديّة أو العكس.

أيام المحرقة وحصان التعذيب الذي كان الإسبان يستعملونه. هم مستعدون لحرقها، دون أن يرفّ لهم جفن، بينما يصلّون وينشدون الترانيم للعذراء -قال صاموئيل متذمراً-. بل لقد جاؤوا يطلبون منّي أن أمرضها ليأخذها الشيطان ويخلّصهم منها. ولكن اعلمي أنّنا لا نستطيع فعلَ الكثير، فقد جاءت إلى هنا بقدر كُتب لها.

- روحُ إيولاليا حمّلتني مسؤوليّة -قالت دونيا كارمن-. إيولاليا تريد التحدثَ معها. لقد ذكّرتْها بحوادث منسيّة. يبدو كأنّ شبحَها فتح لصوفيّا ذاكرتها. ولا بدّ من سببٍ لهذا.

- وهل تطلبين منّي أن استحضر روح إيولاليا؟

ظلّت دونيا كارمن صامتة. فمنذ أن بدأت مشوارها مع صاموئيل، لم تستحضر روحاً لميّت حديث أو لناس تعرفهم، بل كانوا جميعهم ممّن ماتوا قبل وقت طويل. لم تجسر حتّى على الحديث مع مونچو، الذي رأته عدة مرات يلعب البليارد، فكيف ستستمع إلى صوت إيولاليا، عبر هواء مثقل قادم من زمن آخر، سألت نفسها. وكيف ستشعر وهي تسمع صوتَ ميتة أحبتها؟

- ألا ترى أنّنا قد نُؤذي إيولاليا؟ أليس خطِراً أن تحزنَ بعد ذلك؟

- إن صحّ ما تقولينه عن أنّها تعيد إلى الغجرية شيئاً من ذكرياتها، فهذا يعني أنّها تطوف لسبب ما. لا أعتقد أننا سنؤذيها. بل ربّما سترتاح بعد أن تفصح عمّا يؤلمها.

- وفي مقدور مَن أن يكون الوسيط؟

- ومن غير الغجريّة؟!

-13-

تستمع صوفيّا، وهي مطأطئة الرأس وخائفة، إلى دونيا كارمن. كانت على وشك أن تقول لا، حين بدأت دونيا كارمن تشرح لها خطة تهريبها من المنزل. لكنّ الكلام أثار اهتمامها. أصغت إليها بعينين مفتوحتين، وهي تصف نقيعاً من زهور الفلوريبون، يجعل رينيه وفرناندو ينامان نوماً لا يفيقان منه حتّى الفجر. تقضي الخطة بأن تأخذ مفاتيح البوابة من قميص رينيه النائم وتخرج. خلف السور، سيكون صاموئيل بانتظارها، ليصحبها إلى كوخه. لن يعلم أحدٌ بشيء، قالت لها، إلّا پترونا، التي ستساعدها في العمليّة.

وجدت صوفيّا في سهولة الحصول على وصفة شاي الفلوريبون ما أقنعها بالفكرة. فما كان يهمّها هي التركيبة التي ستجعل رينيه يغطّ في نوم عميق.

وقد تغيّر تلك التركيبة مجرى حياتها.

أيام قليلة وتهبط إيولاليا إلى عالم الأحياء. تطرد صوفيّا الصور عن ذهنها، وتلحّ في الاتصال بإستيبان، حتّى لقد اضطرت سكرتيرته إلى إخراجه من جلسة المحكمة بذريعة ملفّقة. يستغرب إستيبان الأمر، لكنّه يعود إلى القاعة بعينين تشعّان حبّاً، ويستميتُ في الدفاع عن قضايا لم يكن هو نفسه مؤمناً بها.

تطوف إيولاليا محلّقة حول صوفيّا، فتزوغ هذه منها، تركض عبرَ ممرّات المنزل، وتختبئ في الحديقة، وتقتلع شجيرات الطماطم، وتجتثّ رؤوس الخسّ. وتتصرّف پترونا بعصبيّة، فتكسر كؤوساً وأقداحاً. بعد الظهر، تصل دونيا كارمن هادئة، تجلس مع صوفيّا وتشرح لها ما عليها فعله لكي تكون

وسيطاً لروح تتألم. وترى صوفيّا نفسها جالسة إلى جانب صاموئيل مغمضة العينين، «تفرّغ ذهنها»، لكي تتمكّن روحُ إيولاليا من الدخول فيها والتحدث من خلال فمها. كان فيها من التوتر ما منعها، طوال أسبوع التحضيرات، من الأكل إلّا قليلاً. قبل يوم واحد من ليلة التنفيذ، وجدها رينيه، بعد العشاء، تتقيأ في الحمّام، فساعدها بأن أمسك رأسَها، وكان لطيفاً ودوداً معها، بعد أن ظنّ أنّها أعراضُ الحمل. وأخيراً.

ابتسمتْ صوفيّا له، فكأنّها تشكره. وسمحتْ له بأن يجفف وجهها بالمنشفة، بينما كانت تفكّر في أوراق الفلوريبون التي أخفتها في ملابسها الداخلية.

في الرابعة من عصر الأربعاء، بدأت التحضيرات. اجتمعت پترونا ودونيا كارمن وصوفيّا في المطبخ، وهو مكانٌ فسيح، فيه القديمُ والحديث. لقد أصرّ رينيه على أن يبني فيه موقدَ حطبٍ، تحسّباً لأوقاتٍ ينقطع فيها الغاز، بسبب حرب قد تنشب هنا، أو كارثة قد تقع هناك.

في العادة، تستخدم پترونا طبّاخ الغاز لعمل الكعك، تحت إشراف صوفيّا، التي تستعين أحياناً بكتاب طبخ إسباني، أهداه لها فاوستو؛ وقد تتذكّر الخادمة الحوادث الناتجة عن استعمال الغاز، فتؤثِر استعمال الحطب. في المطبخ أيضاً طاولة من الفورميكا تتوسطه، وطابوريّات ثلاثيّة القوائم، من تلك التي تعرف بـ «قوائم الدجاج»، وكرسيان من الخيزران، وهما من مقتنيات إيولاليا الموروثة. أوانٍ وطناجر من مختلف الأحجام، تتدلّى من مسامير رُتبتْ على طول الحائط. عرجون من الموز الناضج، يتدلّى في إحدى الزاويا، بالقرب من الثلاجة، التي تبرز في المطبخ فتضفي عليه مسحة أرستقراطية بيضاء.

وفي المطبخ نافذتان: واحدة تطلّ على واجهة المنزل، بينما تطلّ الأخرى على الحديقة، حيث تزرع صوفيّا الخضار. تغلق پترونا النافذة المطلّة على الواجهة وتضرب بيدها على مئزرها، دون أن تعرف سبباً لذلك.

– لا تغلقي النافذة –قالت لها دونيا كارمن–. كي لا يظنّ أحدٌ أنّنا نرتّب أمراً.

تعاود الفتاة فتح النافذة.

تجلس صوفيّا على كرسي الخيزران، تراقب دونيا كارمن وهي تسحق وريقات الفلورييون، على قطعة من الخشب. ترفع بصرها وتهدئ پترونا. «لا تقلقي. نحن هنا وحدنا، فقد أرسلتُ فرناندو ليأتي لي بالبرتقال من العزبة»، فتطمئن پترونا وتنصرف إلى عمل كعكة الزنجبيل وتوفي جوز الهند وكراميل الليمون. سيقدّمن الحلوى لرينيه، بعد العشاء، مع شاي النعناع.

منذ أيّام وصوفيّا تتمرّن على حمل الشراب إليه، قبل ساعة النوم، بزعم أنّ ذلك النقيع يريح كليتيه وينشطهما. يقتنع رينيه بكلامها، فمن المناسب دعمَ منتجات زوجته المنزليّة.

وضعت دونيا كارمن الماء ليغلي في قدر كساه السخام.

– ورقتان تكفي –قالت، وهي ترشّ المسحوق في الماء–، نقيع الفلورييون ينوّم، لكنّه قد يكون قاتلاً إذا كانت الجرعة كبيرة.

تساعد صوفيّا پترونا في صنع كريّات الليمون وغمسها بالسكر. كانت النساء الثلاث صامتات، بينما يُسمع صوتُ فوران الماء، وغليان العسل، وحكّ الكراميل على كُريّات الحلوى. في المطبخ، بدت دونيا كارمن وصوفيّا وپترونا ساحراتٍ قديماتٍ، لكنّهنّ لسنَ مخيفات، ولا يحملن مكانس؛ ساحرات بيضاوات، ربّات منشغلات بمهنة طالما زاولتها المرأة: صنع الأحلام للرجال.

تنظر پترونا، من وقت لآخر، إلى صوفيّا. هي لا تعرف ما يخيفها منها. صحيح أنّها تحبّها، لكنّها تخاف منها. لم تصدّق، يوماً، كلامَ نساء البلدة، من مثل باتروثينيو وأخريات، يترددن عليها لتقرأ لهنّ طالعهنّ، حين يزعمن أنّ الغجرية ابنة الشيطان، أو أنّ الشيطان سيخطفها، ذات يوم، ليواقعها ويتركها حاملاً **بالمسيح الدجال**. بل تراها امرأة طيبة، تهديها ملابسَ وأحذية تتيه بها، في قدّاس الأحد، على الكثيرات. ثمّ إنّها تربية إيولاليا، والجميع عرفوا طيبة إيولاليا، وإن كانت كثيرة الاعتزال والبكاء على أولادها. أمّا دونيا كارمن فتحظى باحترامها. ولو أنّ دونيا كارمن تصدّق كلام هؤلاء النسوة عن علاقة صوفيّا بالشيطان، لما وقفت إلى جانب الفتاة. هي أيضاً لا تصدّق ذلك.

لا شكّ أنّهم يطعنون في سمعتها لأنّها يتيمة، ولأنّها تجاوزت حدودهم وأعرافهم يوم زفافها.

ترفع پترونا نظرها إلى صوفيّا، فترى أصابعها الطويلة، التي لها شكلُ علكة الليمون، تتدحرج وتمرّغ بالسكر، فكأنّها تلمس شيئاً آخر، في حركة ساهمة شاردة ساهية.

تفرك پترونا ذراعيها للتخفيف من القشعريرة التي شعرت بها.

تأمل دونيا كارمن أن يكتمل القمرُ، وأن يفعل الشرابُ فعلَه، وأن تظهر روح إيولاليا. لقد استحمَّتْ هذا الصباح بماء القرفة لطرد الأرواح الشريرة ونظرات الحسد التي تسبب الذبذبات السالبة. لكنّها تشعر باضطرابٍ في معدتها، وهو نفس الشعور الذي يتملّكها قبيل كشف أوراق التاروت وقراءة طالع الأولاد، إذ تخشى أن تفاجئها تلك الأوراق بنُذُرٍ لا تعرف لها تفسيراً.

لكنّها لا تخشى من إيولاليا شيئاً، تقول لنفسها. من الأموات من يكون استحضارُ أرواحِهم سبباً في اضطراباتٍ جوّية، من عِظم بلواهم، أمّا إشارات إيولاليا فليس فيها ما يدلّ على ضميرٍ مُعذّب ولا ما يشير إلى ذنوب معلّقة. أمّا طريقة ظهورها لصوفيّا فهي من الطرق التي يحافظ الحبّ بها على قوّته بعد الموت، لأنّ الوقتَ لم يسعفها لكي تبوح للفتاة بأسرار كانت ستجعل حياتها أسهل وأهون.

في قاموس صوفيّا، لا وجود لكلمة الخوف، فهي لم تخلق لتخاف. مع ذلك، فلطالما شعرت بالإهانة، ولطالما قرأت في عيون الناس الصامتة إشارتهم إلى غموضٍ أصلها ونسبها؛ ولذلك صارت، ومنذ أن بدأت الذكريات تطلّ برأسها، تشعر بالتمرّد، وترى أنّ فكرتها عن الزمان والمكان مختلفة، ومختلفة أيضاً معرفتها بالموت وأصل الحياة. كان الغجر يحملون أسراراً دفينة، ولطالما كانوا قادرين على حبس المستقبل والماضي في كراتٍ بلوريّة مضيئة. أمّا الموت، فلم يكن، في عُرفهم، إلّا بُعداً آخر، ومنحنى آخر، للكرة، يتحرك بسرعة مختلفة. ولا شكّ أنّ إيولاليا موجودة هناك، محجوزة مع أسرارها. ولا بدّ أنّ دمها الغجري سيعثر عليها. فلا داعي للخوف.

لو أنّ إيولاليا أرسلت إلى صوفيّا بإشاراتٍ أو اتجاهات أو خطوط طول

أو عرض، تحدّ من سعة هذا العالم المترامي المجهول. ولو أنّها استطاعت، فحسب، أن تعانقها، وأن تشعر، للحظة، وقد عادت طفلة، بضفائر وشرائط، تجلس على الكرسي الهزاز، عصراً، في الممرّ؛ طفلة صغيرة يتسع لها صدرُ إيولاليا، فتغفو عليه. لقد أحبّت صوفيّا تلك المرأة، وأحبّت دون رامون. ولذلك فهي ما تزال تنتظر أن يموتَ دون رامون، لأنّ موتَه سيحرّرها من هذا الحبّ، وإلى الأبد.

الشاي جاهز. تحرّك دونيا كارمن الماء الصافي الذي ينبعث منه عطرٌ لطيفٌ من الأحلام المحرّمة. تنظر النساء الثلاث إلى الماء، فيشاهدن انعكاسَ أعينهن فيه، فكأنّهن يطللنَ على بداية بُعدٍ مجهول، حيث تعيش نسخٌ منهن، مطابقات للأصل، وتنظر إليهن.

صففنَ قطعَ الحلوى في الصينيّة. وفرشت پترونا الشرشف المطرز، الذي كان رينيه أهداه إلى صوفيّا بعد عودته من رحلة إلى بنما. اقتربتْ دونيا كارمن من مرآة الممرّ، فوق المغسلة المصقولة. نظرتْ إلى وجهها، رشّته بالماء، بلّلت يديها، وسوّت الشعرات التي نطّت من كعكة رأسها وأعادت وضع ماسكات الشعر.

– حسنا، يا ابنتي –قالت مخاطبة صوفيّا–. أظنّك تعرفين ما عليك القيام به. سأنتظرك، عند الحادية عشرة، مع صاموئيل، وراء السور.

وانصرفت مودّعة.

وضعت صوفيّا شاي النعناع على النار لكي تبلغ رائحته أنفَ رينيه حال دخوله. حرّكت الماء بالملعقة الخشبية. طوال ساعات العصر، رافقها إحساسٌ بأنّها عائمة، وبأنّها تنظر إلى الأشياء وإلى الضوء الساقط على الحديقة، في خيوط زرق وأرجوانيّة، فكأنّها باتت بعيدة، أو كأنّها باتت روحاً. ما كان من دالّة تدلّ على الزمن الحاضر غير وجود پترونا، التي كانت، وهي تنظّف أدوات المطبخ في المغسلة، تثير ضجيجاً، مردّه شعورها بالتوتّر.

حين سمعتا صوت جيب رينيه وصوت فرناندو وهو يفتح متراس البوابة، نظرت الاثنتان بعضهما إلى بعض ورفعتا أصابعهما إلى شفتيهما فكأنّهما تلعبان.

خرجت صوفيا من المطبخ، وهي تجفف يديها بمئزرها، وقد رسمت على شفتيها ابتسامة الزوجة التي تستقبل زوجها، فتساءل رينيه، مرة أخرى، إن كانت زوجته حاملاً. منذ أيام وهي تبدو مختلفة: تمشي فلا تصدر صوتاً، وتبدو مستغرقة، كما يحدث للنساء حين يحملن كائناً في أحشائهن فيبدو كأنّهنّ يتحدثن معه عن أسرار. عانقها، ووضع ذراعه، بودّ، على كتفيها، وقادها إلى الداخل، حيث الظلّ الذي تضوع فيه رائحة النعناع. ما عاد رينيه يستسيغ أسلوبَها الجديد في تقديم شراب الأعشاب والبسكويت والحلويات له بعد العشاء. يا عالم، يقول لنفسه، من أيّة رواية استوحت هذا الفكرة التي لا تناسبه. المهم، سيحاول أن يوصل الرسالة إليها بلباقة، فربّما كانت حاملاً فعلاً، ومن غير المناسب أن تسمع كلاماً يزعلها. سيشرب الشاي، وسيثني على أتيكيتها في تناول العشاء على شرشف مطرّز، وفي أطباق مصفوفة، فكأنّه يحضر دعوة عشاء رسميّة. من تراه اقترح عليها ذلك الترتيب الغريب، وهو الذي اعتاد أن يأكل التورتيّا والموز المطبوخ وزبادي ورقة الموز والمخلل المحفوظ في المرطبان، بلا قميص ولا رسميّات؟ وهكذا تعشى، قبل أيام، حين طلبت منه صوفيا السماح لها بـ«خدمته»، لـ«يمثّلا» دور الزبون والغارسونة في أحد المطاعم. صحيح أنّه وافق على فكرتها وجاراها، لأنّ الفكرة بدت له ظريفة، لكنّه سئم شراب الأعشاب وسئم المراسم. سألها، في نهاية العشاء، إن كانت لا تمانع في أن يخلع قميصه ليشرب الشاي الذي قدمته له في فنجان الخزف المزهر.

وكما أخبرتها دونيا كارمن، لم يلبث النعاس أن داعب عيني رينيه. شعر بخدرٍ يدبّ في أوصاله. ساعدته صوفيا على النوم. جرّدته من ملابسه كما تفعل حين يكون مخموراً. سمعها تتحرك وهي تخلع ملابسه وحذاءه؛ رآها فوقه، وبدا وجهها له شفافاً، بل لقد بات في استطاعته أن يرى، من وراء بشرتها، صورة امرأة تخلع ملابس رجلٍ تكرر المرايا صورته بلا عدّ ولا حصر.

وبينما كان رينيه يحلم بزوجين يتضاجعان وأولادٍ يبكون، تحت الناموسيات، كانت صوفيّا تعقد الشال الأزرق الذي يغطي رأسها حول رقبتها وتخرج من البوابة، بينما تكفّلت پترونا، بعد أن فعلت بفرناندو ما فعلته صوفيّا برينيه، بإغلاق تلك البوابة بالمفاتيح المسروقة.

السماء مكفهرة. والسحبُ ترسم صوراً لحيوانات تبدو مسوخاً تحمي مسار القمر الدائري، ممّا يضفي على الليل مظهراً طيفياً. تسير صوفيّا مسرعةً مع سور المنزل، لكي تصل إلى حيث ينتظرها صاموئيل ودونيا كارمن، على حصانيهما. يساعدها صاموئيل على الصعود خلفه. تتشبّث هي بخصره، ثمّ ينطلق الجميعُ على عجلٍ، قاطعين الطريق إلى كوخ الساحر، عبر دروب فرعيّة ومسالك ضيّقة.

شعر صاموئيل بصدرٍ دافئ يلامس ظهره، وساقين تحتكان بأسفل وركيه. ما من شيء ناعمٍ فيها، يقول لنفسه. بل إنّه لا يراها خائفة. خُيّل إليه أنّه رآها تتطلع إلى ليل الرّيف، تلك الأرض التي لا تراها من سجنها. تنظر إلى ظلال الشجيرات، وإلى التواء جذوع المطاطات، وإلى فروعها التي تدلت منها حِزمٌ من الجذور، إلى رفرفات اليراعات المتقطعة الفضية. راحت عيناها، ومسامات جلدها، ترتشف الظلام الكثيف، تتنفسه، وتستمتع به. أحكمت طوق ذراعيها حول خصر صاموئيل، حين انطلقت الخيل، لحظة بلغوا الدرب الأبعد الذي يصبّ في الطريق نحو كوخ الرجل، في إيقاع يرجّ وركيها فيتأرجحان امتثالاً له. يسمع صاموئيل وقع أنفاسها المحتدمة، ويشعر بنشاط المرأة ينحشر في قميصه وبنطاله.

حين وصلوا، وتوقفت الخيل، ساعدها صاموئيل على النزول، فالتقت أنفاسُه بأنفاسها، فإذا بأنفاس شياطين الغجريّة ليس لها رائحة الكبريت النتنة، بل رائحة زهور الخُزام والنيلوفرات التي تطفو على مياه البرك المظلمة، حيث يودِع القمرُ، كلّ ليلة، أسراره.

تتلفّتُ دونيا كارمن من حولها لتتأكد من أنّ لا أحدَ يحوم قريباً من الكوخ. ثمّ دخل الجميع في المسكن الصغير ذي الحُجرة الواحدة.

بعد أن امتلأت رئتا صوفيّا بشذا الليل الساحر وعطره، شعرت بالغثيان وهي تدخل الحجرة التي ستشهد جلسة استحضار روح إيولاليا: شموعٌ من الشحم المصفرّ، مُرتبة في حلقة، تُطلق أبخرة زنخة تختلط مع روائح عرقٍ حامض، وجدرانٍ من جذوع النخيل تشبعت بالدخان، وغبارٍ متراكم في أكياس الحبوب المركونة في إحدى الزوايا. وضع الرجل سريرَه أمام

دائرة الشموع الغليظة والقصيرة، ليكون مقعداً لثلاثتهم. في مواجهة السرير، وعلى الجانب الآخر من الحلقة، وضع طابوريّة ليجلس عليها شبح إيولاليا ويستريح، بعد عناء الرحلة الطويلة التي يعدّونه، بأدعيتهم وتعويذاتهم، للشروع فيها.

على موقد الحطب، شموعٌ أخرى وأوانٍ فخارية، تشتعل فيها الأعشابُ فيتصاعد منها دخان أسود ونفّاذ.

– إنّها الثانية عشرة إلّا ربعاً –قال صموئيل–. سنلزم الصمت، ونفكر في إيولاليا، وعند الثانية عشرة، نبدأ.

جلسا على جانبي صوفيّا: صاموئيل على يسارها، ودونيا كارمن على يمينها. وأمسك كلّ منهم بيد الآخر. رأتهما يغمضان عينيهما، فأغمضتْ هي عينيها. لكنّها فتحتهما، لتجول ببصرها في بيت الساحر، في فوضى فقره، تنظر إلى المذبح وعليه صورة **العذراء** تخترقها السيوف. نظرت بمؤخرة عينها إلى صاموئيل، الجالس على يسارها، بلا قميص، والعرقُ يلمع على سطح جلده النحاسي الذي بدا، على ضوء الشموع، معدنياً. باتت يده، وهي في يدها، مجرّدة من سلاحها. عاجزة. لم تعد به قدرة على استحضار الأرواح. ليس صاموئيل بالرجل العجوز، فكّرت. ربّما يبلغ خمسين عاماً، عاشها، بلا شكّ، بالطول والعرض، مستمتعاً بمباهجها ونسائها. تتذكر صوفيّا أنّ خيرترودِس حكت لها، منذ مدّة، عن صديقة سألته عن الحُب وتباريحه، فردّ عليها: «لا يداوي مرضَ الرجل غير رجل». ويذهب بصوفيّا خيالها. فترى أنّ طول الحبس أفسدها: تعتادها تخيّلات فاحشة مع فرناندو، أوّلاً، وها هي الآن تتخيّل أخرى مع صاموئيل. وعلى الحصان، شعرت بما يشعر به الواحد حين يغلق على نفسه في الحمام، ساعات وساعات، ليجد متنفسه عمّا يقرأه في الكتب، وعمّا تأمره به نفسه الأمّارة بالسوء. لقد وجدت في قرب الساحر منها ما كفاها لبلوغ حدّ الإثارة بين ساقيها، تماماً كما كان يحدث لها وهي تداعب جسدها، ساعة تكلّم إستيبان هاتفياً. «كلّ الغجريات عاهرات». هذا ما قاله لها رينيه يوم العرس. وربّما كان محقّاً في ما قال، لأنّ جدّتهم الأولى، كما قرأ فاوستو، امرأة عاشت قبل حواء، وضاجعت آدم، من دون أن تدنسها الخطيئة الأصلية. لم تكن تفهم الخطيئة كما كانت خيرترودِس أو پترونا،

أو حتى إيولاليا، تفهمها. فهي مختلفة. أغمضت عينيها، محاولة استذكار إيولاليا، وتذكّر طفولتها البعيدة، يومَ نزلتْ من التلّة، ورأتها لأول مرة. إنّها لا تذكر من ذلك كلّه إلّا القليل. فذاكرتُها سلسلة من الصور الثابتة، لا حركة تُرى، ولا حكاية تروى: صورة إيولاليا وهي على ماكنة الخياطة تخيط لها الفساتين؛ وصورتها وهي تشرف على بناء المنزل الذي أمرها دون رامون ببنائه لتسكن فيه، قريباً من صوفيّا؛ وصورتها هذه، وهي تلعب بين الأنقاض والحجارة والقضبان، وتسرق حبّات المانغو؛ وصورتها مع إيولاليا، وهما تزوران دونيا كارمن والسيدات اللائي يصنعن حلوى الكراميل في أوانٍ فخارية كبيرة، في (ديريومو)؛ وصورة إيولاليا وهي تضحك بعد أن رتّبت لها فستان البكالوريا؛ ونظرة الذعر التي بدت على وجه العجوز لحظة دخلت صوفيّا إلى الكنيسة، يومَ زفافها، وحين اقتربت منها لتمسح، بمنديل بللته بلعابها، ما علق بوجه العروس من التراب؛ والحزن الذي بدا على وجه إيولاليا حين عودة صوفيّا من شهر العسل، ثم نصائحها لها لتحمّل عزلتها في بيتها، ووصفات الطبخ، وكيّ طيّات بنطلون رينيه، وياقات قمصانه...

- حان الوقت. هيّا - قال صاموئيل، ونهض.

ونهضت دونيا كارمن أيضاً، واقترب الاثنان من الحلقة، حيث وُضعت الطابوريّة التي ستجلس عليها إيولاليا. جثيا عندها، كلّ منهما في طرف. أخذ صاموئيل آنية فخارية فيها أعشابٌ ينبعث منها دخانٌ نفّاذ، وراح يطوف بها وينشر دخانها في طوافٍ حولَ الطابوريّة، بينما راح هو ودونيا كارمن يُصدران صوتاً خالياً من الكلمات، فكأنّه أنين ينطلق من صدر خاوٍ.

أغمضت صوفيّا عينيها، كما أمرتها دونيا كارمن، لتُفرغ رأسَها من كلّ ما يشغله. وطلبت منها أن تركّز على الصوت الخارج من الاثنين، حتّى تشعرَ برئتيها وقد امتلأتا به وبدأت، هي أيضاً، تئن وتنوح، توقاً إلى أن تعود طفلة تركض خلفَ الطائرات الورقيّة المذيّلة، في مطلّ (كاتارينا)، وتطارد الإغوانا والسحالي لتقطع ذنبها وتستمع برؤيته يتحرك، حتّى بعد فصلِه عن جسمها...

- إيـــو، إيـــو، إيـــو... - راح ذلك الصوت البعيد، المؤلف

من حرفين متحركين، والـذي يترنّم به الرجل والمرأة الجاثيان عند الطابوريّة، يدخل في صوفيّا ويتحوّل إلى ريح... «لاااااليـــا، لاااااليـــا، لاااااليـــــا»، بدا لها أنّها تقول، وبدا لها أنّها تنادي «إيولاليا» بكلّ كيانها؛ تنهمر الدموع على خدّيها وتشعر بالبرد: إيولاااااليا، إيولاااااليا، إيولاااااليا، وتهبّ الريحُ على الشموع، وحين تفتح عينيها، لم ترَ من الشموع المشتعلة غير تلك التي على الأرض، ورأت إيولاليا جالسة، بهدوء، على الطابوريّة، تدخّن سيجارة تبغها الأسود التي اعتادت تدخينها ساعات العصر.

– لا تقتربي منها –قال صاموئيل، الذي توقّع أن تدفعها مشاعرُها إلى الاقتراب من إيولاليا لتعانقها–، ولا تجتازي حلقة الشموع.

نهض الساحر ودونيا كارمن، على مهل، وتحرّكا، مقرفصين، حول الحلقة، حتى عادا وجلسا بجوار صوفيّا على السرير وأمسكا بيديها.

– اتصلنا بكِ من خلال صوفيّا – قالت دونيا كارمن.

– اتصلتْ بي صوفيّا –قالت إيولاليا–. طلبت منّي أن أحضنها. شعرتُ بذلك حين أحسستُ بجذور الأرض كلّها تدفعني إلى الخارج.

– كيف حالك، ماما إيولاليا؟ – سألتْ صوفيّا.

– أشعرُ بالملل، يا ابنتي. الموتُ ضَجَر طويل. فلا نهار، ولا ليل. والوقت هنا لا يتحرك.

– لكنّكِ رحلتِ بلا وداع...

– ولهذا لم أرحل نهائياً بعدُ.

– هل تعذّبتِ؟

– أبداً. كلّ شيء حدث بسرعة. هو من قبيل أن تغرقي في مستنقع أسود موحل، وتعودي للقاء المعارف وهم يتكلّمون بكلّ ما لم يقولوه في حياتهم. الموتى مليئون بكلمات بلا صوت.

– ولماذا فتحتِ ذاكرتي؟

– حيث أنا، أرى الزمنَ كالدوامة. كالحلزون. في الأسفل منك، يمكنك، كلّ يوم، أن تري حتى لحظة الموت. للموتى الماضي، أمّا المستقبل فلم

نعد نراه، لأننا توقفنا عن الحركة. ومن دون حركة لا وجود للزمن. سافرتُ في اللولب إلى ماضيكِ. صرتُ أعرفه، وقد كان من الضروري أن تشعري بالحاجة إلى معرفته.

– فمن أين أتيتُ، من أين، ومن أنا؟ – سألتها صوفيّا. ما أكثر أسئلتها وما أكثر خوفها من أن تختفي إيولاليا، مرة أخرى.

– قومُكِ يتحرّكون حسب القرون. هم لا ينتمون إلى أيّ مكان. أنتِ ولدتِ في مكان مجدب، خالٍ من البراكين، وفي موسم حرّ، ولكن لا وجود لوطنك، فالغجر ليس لهم وطن؛ وُلدتِ، كما يولد أيّ مخلوق، من رجلٍ اسمه سابينو، وامرأة اسمها ديمتريا، لكنّي لا أعرف لقبهما، لأنّي لم أشأ أن أنزل إلى ولادتهما، خوفاً من أن أتوه وألّا أجد طريقاً للعودة. هذه هي أنتِ، يا ابنتي، ما تلمسينه كلّ صباح حين تستيقظين، وما تحلمين به في صحوكِ ومنامكِ، وما لم تكونيه بعد...

– لكنّ هذه ليست إجابات، ماما إيولاليا... كلامكِ لا يوضّح شيئاً. – تشوب مسحة من اليأس صوتَ صوفيّا.

– هناك أزمنة تصعد لولبيّاً، وهناك أزمنة تلفّ في دائرة. هذا ما استطعتُ أن أراه في رحلتي إلى ماضيك. زمنكِ دائرة. ما جرى قبلكِ، ستعيشينه من جديد، وهذا شيء خطِر. تحسّبي من الحبّ ومن نوباته، وتحسّبي من يديك. لا أعرف كيف تُكسر دوائرُ الزمن. أنا امرأة مسنّة، وليس في مقدور الموتى أن يتعلموا شيئاً، لكنّي أعلم أنّ هناك دوائر تُكسر. رأيتُها من زوايا اللولب حيث أموت، هناك دوائرُ يُفلح الأحياءُ في كسرها. ليتكِ تستطيعين كسر دائرتك. عليك أن تبحثي عن الرموز، صوفيّا؛ لأنّكِ إن وجدتِ ماضيك، فستجدين مستقبلك...

– لا تنصرفي، ماما إيولاليا...! صرخت صوفيّا.

واختفتْ إيولاليا. لم يعد يُرى من أثرها غير عقب سيجارتها وهو يقطع الهواءَ باتجاه الفضاء، حيث ستظلّ، مرّة أخرى، تنظر إلى اللوالب والدوائر الثابتة.

ظلّت صوفيّا للحظة في مكانها. نهضت، اجتازت دائرة الشموع، تلمست

الطابوريّة، نظرت إلى دونيا كارمن وصاموئيل، حرّكت يديها في الهواء وبدت عيناها عيني مجنونة، وصلت إلى الباب ثمّ عادت.

لم تتحرّك العرّافةُ ولم يتحرّك الساحر، بل راحا يرقبان الفتاة وهي تصحو من غيبوبتها العميقة، وقد تخشّب بدنُها وتوتر. وتأمّلاها وهي تنتقل من حالة الدهشة والذهول إلى حالة الغضب والسخط، فقد تركت إيولاليا أسئلتها معلّقة. دخلت صوفيّا في نوبة هستيريا، فراحت ترفس وتركل وتلكم. ركلت الشموع، وركلت الطابوريّة التي جلست عليها إيولاليا، وصرخت وأقسمت ولعنت، وأمسكت بخناق الليل.

- أهذا كلّ شيء؟ أهذا ما أحضرتماني من أجله؟ أجئتما بي لكي أخرج كما دخلت؟ لكي تكلّمني إيولاليا عن الماضي وتضربَ لي الأمثال؟ لكي تموتَ من جديد وتموت معها أسرارُها وأسراري؟ ألأجل دقائق لم تبلغ ربع ساعة غامرنا؟ إيولاااااليـــــا! - صرخت.

تقرّب صاموئيل منها بحذر، خشية أن تضربه. أمسكَ بها بيد، وسدّد لها، باليد الأخرى، صفعة قويّة.

- كفاكِ -قال لها-. كفاكِ! يا لكِ من شيطانة!

- صاموئيل! -صاحت به دونيا كارمن-، اتركها! ليس هذا من حقك! اتركها!

- ألا ترين أنّها فقدت صوابها؟ -صرخ صاموئيل-. ألا ترين أنّها ستخرب بيتي؟

انتزعتْ دونيا كارمن الفتاة من يدي صاموئيل، وضمّتها إلى صدرها، لكنّ صوفيّا ابتعدت عنها، وراحت تنظر إلى الاثنين، وهي تتحسس خدّها.

- عودا بي إلى بيتي، حالاً -قالت- فليس لديّ ما أفعله هنا!

فعلا. إيولاليا لم تقل، في تلكَ الليلة، إلّا القليل. كانت تعلم أنّ صوفيّا ستتحرّر، في اليوم التالي. وبكتْ وهي حيث هي.

-14-

وقف رينيه في الحمّام، وقد كفأ وجهَه فوق الحوض، وراح يسكب الماءَ البارد على رأسه ليزيح كوابيس الليلة البارحة وبقايا النعاس. يسمع وقعَ حوافر الخيول وصرخات بترونا تختلط بصوت خوسيه، ناظر العزبة.

عقد المنشفة حول خصره وهمّ بالخروج من الغرفة لاستطلاع الأمر، حين فتحت صوفيّا الباب عليه ودخلت محتدّة، فكأنّ شاتماً شتمها.

- هلّا أمرتهم بسرج الحصان، أم إنّك تحرمني من رؤية أبي الميت؟

نظر رينيه إليها بذهول. لقد فوجئ بالخبر وبالطلب. خفّ، بساقيه المشعرتين وقدميه الحافيتين، إلى الممرّ، تحت نظرات بترونا الدامعة. أمر فرناندو بسرج الحصان.

في تلك الأثناء، غيّرت صوفيّا ملابسَها، فارتدت بنطالاً أسود وقميصاً أسود، وربطت شعرها عند قفاها. وتقاطعت، وهي خارجة، مع رينيه، الذي كان عائداً إلى الغرفة.

- اهدئي -قال لها-. اذهبي أنتِ، وسأتكفّل أنا بأمر الجنازة. سنلتقي هناك.

لم تردّ، بل نظرت إليه من الطرف الآخر، وحثّت الخطو إلى البوابة، حيث وقف فرناندو، ينتظرها.

لم تبكِ صوفيّا، وهي في الطريق إلى العزبة. كان الصباحُ رائقاً ورطباً. تلمعُ أوراق النباتات التي غسلتها أمطارُ أيلول، الليلة البارحة. حثّت الحصانَ بالمهمازين، وأطلقت العنان لتفكيرها. إنّها تأسف لأنّ الموتَ لم ينتظرها، هذه المرّة أيضاً. فها هو دون رامون يموتُ دون أن تراه. رحل

الرجلُ العجوز دون وداع، كما رحلت إيولاليا. فما للفقد يحيط بحياتها؟ لا بُدّ أنّ إيولاليا استدعته، من مقعدها في دوامة الزمن، لكي تتحرّر من قيود الالتزام والواجب وعرفان الجميل.

إنّها غاضبة من إيولاليا ومن دون رامون، لأنّهما كرّرا، من حيث لا يعلمان، فعلة والديها: رحلا ليلاً، وحيدين، كأنّهما ليسا مسؤولين عن أسرة. ربّما لم يدركا النقلة التي طرأت على حياتهما، فظلّا حبيسي النوم، غير قادرَيْن على الخروج من نسيجه الضبابيّ المصفر، ولا من الصور القديمة البُنّيّة، ولا من الزمن الثابت.

بعد نصف ساعة، كانت صوفيّا تترجّل عن ظهر الحصان، وتقف أمامَ مدخل بيت العزبة، بجدرانه الزرق وسطحه الأحمر. كانت زوجات الناظر والعمّال مشغولاتٍ بترتيبات الجنازة. أجسام سود تتحرّك كالنمل، تتقاطع في طريقها نحو غرفة دون رامون، بعضها تهمس لها بعبارات المواساة، بينما تسفح أخرى أمامها الدموعَ. لكنّها لم تتوقف، حتّى حين رأت إنغراثيا، التي تولّت تصريف الأمور، ووقفت بجوار السرير، ترتّب جهاز الميّت، الذي كان يرقد على سريره، بهدوء، مرتدياً بيجامته الزرقاء.

حاولت إنغراثيا أن تُعانقها وتسألَها عن رأيها بالبدلة والقميص الأبيض الذي أرادت أن يكون كفناً للمرحوم، لكنّ صوفيّا ما عادت، وهي في حضرة الموت، مهتمّة بتفاصيلَ تهمّ الأحياء.

وضعت النسوة ذراعي دون رامون متقاطعتين فوق صدره، وعقدن منديلاً على فكّه. تذكرت صوفيّا ضحكته حين سألته، ذات مرة، إن كان الموت يسبب ألماً في الأسنان.

بدا وجه الرجل العجوز أصفرَ مخيفاً. وبدا هزيلاً... جلداً على عظم، بينما ارتسمت على فمه تكشيرة ألم. شعرت صوفيّا برغبة في البكاء، إذ بدا لها أنّ الرجل عانى... لا بدّ أن نوبة قلبية باغتته، بينما كان وحيداً، كما حدث لإيولاليا.

جلست صوفيّا على السرير، ومرّرت يدَها على رأس العجوز.

كانت تعرف تمرّده على الموت، وتعرف حيله لخداع الموت وإخافته،

بحركات من فمه. وها هو ذا فمه يعرض آخر حركاته، حركة قد تبدو بلا معنى، لكنّه رسمها على فمه ليعبّر عن تمرّده ومعارضته للموت، حتّى آخر نفس. لم يكن دون رامون يؤيّد أن تكون الحياة قصيرة، سريعة. «ما لهذه الطبيعة، حكيمة تجاه الأشياء، غير حكيمة تجاه الأشخاص!»، كان يقول. تُعمّر الأشجار مئات السنين، وكلّما شاخت، باتت أقوى وأضخم، وظهر على جذوعها تعاقبُ المواسم وقوة الجذور. بينما يتحتّم على البشر أن يمرّوا بمرحلة تعليم طويلة قبل أن يبلغوا النضج والحكمة، وما إن يبلغوا ذلك، حتّى يبدأوا رحلتهم نحو الانحدار والموت. فأيّ عدلٍ هذا!

وتطلّ إنغراثيا من فوق رأس صوفيّا لتنبّه إلى وجوب تغيير ملابس الميّت. يُخرج صوتُ إنغراثيا صوفيّا من شرودها الحلو المرّ.

– أنا لن ألمسه –قالت–. تكفّلي أنتِ والأخريات بالأمر، فأنتنّ أعرف منّي وأخبر.

– لكنّه أبوك، يا ابنتي...

– كان أبي. وها قد مات، وما عاد يحسّ بشيء.

صُعقتْ إنغراثيا لكلمات صوفيّا، ورأت الفتاة أقربَ إلى ابنة شيطان منها إلى ابنة رحمن. خرجت صوفيّا إلى الباحة، فلم تجد، بعد ما رأت من هرج ومرج، أفضل من أن تعتلي صهوة حصانها، وتنطلق به، مثيرة من خلفها غبارَ الطريق وغضبَ فرناندو وأياديَ ترسم علامة الصليب.

طرقت المسالكَ والـدروب، وقطعت مشاتل الموز، وخاضت في الأغوار، حيث تبدأ مزارع البن، التي ترتقي سفحَ (موماچو). وتزدادُ التلّة حضوراً كلّما ابتعدت صوفيّا عن البيوت الكبيرة وكنائس الطوب الأحمر والناس، الذين كانوا ينظرون إليها، وهم يضربون أخماساً بأسداسٍ. كان على صوفيّا أن تخرج إلى الطريق العام لكي تصل إلى الدرب الذي يؤدّي إلى قمة البركان.

وما إن خرجت صوفيا إلى الطريق العام، حتّى فوجئت بسيّارة فاوستو، الذي ضغط على المكابح وأطلق الزمّور، في آن معاً، ليجبرها على التوقّف.

حكت تيرينثيا، التي يقع بيتها عند ملتقى الطريق السريع بالطريق المؤدي

إلى التلّة، أنّ فاوستو نزل من سيارته وكلّم صوفيّا مطوّلاً، بينما ظلّت هي على الحصان، وأنّه عاد، بعد ذلك، إلى سيارته وانطلق، تتبعه الغجريّة.

رسم موكبُ الجنازة بقعة داكنة تسيح على الإسفلت في قيظ الرابعة عصراً. أمّا عربة النعش، التي كانت، ذات يوم، تحفة متعهّد الجنائز، **لا كاتوليكا** [الكاثوليكيّة]، فقد بهت لونُها الأزرق، من كثرة ما أصابها من ترميم وتصليح. يتثاءب السائق ويمسح عرقه، بينما راحت صوفيّا تراقبه لترى إن كانت تستطيع أن تتعلّم منه هدوءه، الذي يتطلبه عمله في مشاويره اليوميّة، التي تعقب مسؤوليته عن التحضير للجنائز. ويسير رينيه، إلى جانب صوفيّا، مرهقاً، ينتظر، بلا شك، العودة إلى البيت، ليعنّفها على أن خرجت، من جديد، على الحصان. لقد أوشك أن يشدّها من شعرها ويُنزلها من على ظهره، حين رآها مع فاوستو أمام المزرعة، لكنّه أمسك نفسه احتراماً للفقيد المسجّى أمامه. اللعنة على صوفيّا! المهم، كان عليه أن يراعي حرمة دون رامون، الذي تبنّى ابنة الحرام تلك، ولم يوفّر جهداً في سبيل تربيتها... أمّا هو، فقد امتلأ مرارة بعد أن ظنّ أنّها استقامت وصلحت. نظرت صوفيّا إلى رينيه بطرف عينها، وفكّرت أنّها لن تلبث أن تتركه وترحل عنه، إلى غير رجعة. حتّى الموت لم يؤثّر فيها. وبدا لها أنّ رحيل دون رامون، بعد وقتٍ قصير من حوارها مع إيولاليا، لا يعدو عن أن يكون مرحلة انتقاليّة ضروريّة، تمهيداً للانطلاق والانعتاق من دائرة الوقت التي عليها، كما قالت لها إيولاليا، أن تخرج منها. هذا هو تفسيرها: إشارة لكسر الوقت المتساوي في حياتها مع رينيه، قبل أن يصبح ذلك الوقتُ راكداً في حلقة مفرغة، مثل مياه بركة آسنة.

ما بات أحدٌ، غير بترونا وفاوستو، يتقرّب من «ابنة الحرام» تلك، كما يسميها روّادُ حانة باتروثينيو. لا تكفّ دونيا كارمن وإنغراثيا عن البكاء وصبّ الدموع، لأنّهما تشعران، حيال صمت المقرّبين، بأنهما مضطرتان إلى الثغاء كالحملان، لئلا تفسّر روحُ دون رامون ذلك الصمت على أنّه جحود. وهكذا انضمّت لولا ونيديا وبيرونيكا إلى المرأتين الباكيتين؛ وبكت تيرينثيا وناحت، بينما لم يُظهر خوليو وفيرمين وفلورنثيو وفرناندو والعمدة وساكنو (الإنكانتو) ومن عرف المرحوم، غير حزنٍ معتدل ووجوه عابسة.

سار الأبُ پيّو، بعباءته الأرجوانيّة، على رأس الموكب، يقود القطيع الذي دعاه، في الجنّاز، إلى أن يحذو حذوَ دون رامون في أمانته ونزاهته وإحساسه بالعدالة. كان الراهبُ يحمل الصليبَ وقارورة الماءِ المقدس الذي سيرشه على الأرض، حيث سيرقد رفات ابن الأبرشيّة المثالي، حتّى نهاية الزمان. وما من شكّ في أنّ صوفيّا ستحذو حذو رامون، وستجود على الكنيسة بالصدقات الجزيلة، فيستطيعون، بجزءٍ بسيط ممّا ورثته الفتاة، إكمال بناء سقف المدرسة وغرفة حفظ المقدسات. يعتقد الأب پيّو أن تلك الفتاة لن تعرف أبداً اتجاه قلبها. لكنّه يرفض مجاراة النسوة، من مثل پاتروثينيو -التي كانت تسير متثاقلة مع زوجها- اللاتي يصفن البنتَ بأنّها ابنة الشيطان، وبأنّها شرٌ للبلدة، وينسبون للسحر كلّ ما يقع في البلدة. إنّ اعترافات صوفيّا هي اعترافات أيّ شخص في سنّها، رغم أنّها لم تقرب كرسي الاعتراف، منذ أكثر من سنة. عليّ أن أخصّص جانباً من وقتي لزيارتها، قال الراهب لنفسه، بينما توشك الجنازة على الوصول إلى المقبرة الملوّنة، الكائنة في فسحة من الأرض، مجاورة للطريق العام.

لماذا يصبغون الصلبانَ والقبور بالأزرق السماوي والوردي والأخضر المزرق؟، تسأل صوفيّا نفسها.

-15-

في تلك الليلة، وبعد عودتها من المقبرة، دخلت صوفيّا غرفتها بينما ظلّ رينيه في الصالون مع خيرترودِس وفاوستو. كان فاوستو هو الوحيد الذي لاحظ ما تعانيه الصديقة، وطالما انتبه إلى النظرة المقهورة التي تتطلع بها إلى رينيه، والقوة التي توحي بها للتعبير عن حبّها، حتّى لتحيطه بجوّ زاخرٍ، مفعم بالحلاوة، حتّى إنّ الذبابَ ليطير حوله، ثملاً بسراب عسله. ولكن، لم يلاحظ رينيه ولا صوفيّا ذلك قط. «أنتَ تتوهّم»، قالت له صوفيّا حين لمّح لها بذلك.

ينظر فاوستو، مشفقاً، إلى خيرترودِس، وهي تجلس، صامتة مضطربة، على كرسي الخيزران، بفستانها الأسود البسيط، وجسمها، الذي يخلو تقريباً من التعرّجات والمنحنيات. ينزل شعرُها حتّى أسفل أذنيها ثمّ ينحرف ليقترب من عينيها. كانت انحناءة خيرترودِس، في تلك اللحظة، نحو الأمام، تحجب وجهها، مع ذلك، فقد لاحظ فاوستو، أنّ عينيها لم تفتهما حركة واحدة من حركات رينيه. «لولا صوفيّا، لسارت أمورُهما على نحو أفضل»، فكّر فاوستو، ثمّ نهض وخرج، قاصداً إخلاء الساحة لهما.

- سأتجوّل في المزرعة ثمّ أنصرف - قال، وهو ينهض.

لم تُفلح خيرترودِس في منع فاوستو من الانصراف، ولم يعترض رينيه على انصرافه، بل مال بمقعده إلى الخلف، يدخّن، وقد قاطع ساقيه، وثبّت نظره، شارداً، في الانعكاسات التي بدت على صفحة جزمتيه، البرّاقة منذ الصباح، ليرى حيرة الزوج المذهول وحداد الصهر المحزون منعكسين على طلاء الحذاء. ولطالما وجد رينيه راحته في تلميع جزمته!

راحت خيرترودِس أيضاً تنظر إلى جزمتي رينيه. إنّها قلقة، فليس من طبعها أن تتمنى الشرّ للآخرين، ولا أن تحلم بأن تختفي صوفيّا مخلية لها الطريق لنيل الرجل الذي لم تحبّه هي يوماً. إنّها لا تفهم كيف تحمّل أحدهما الآخر هكذا، طوال سنوات؛ فكلّ منهما يخوض صراعَ إرادات لا تقبل بالهزيمة، ولكن يبدو أنّهما، في غمرة هذا الصراع، يجدان ما يدفعهما إلى البقاء متحدَيْن.

يطلق رينيه نفثة من دخان سيجارته، فتتحرّك خيرترودِس في مقعدها. وحين أوشكت على النهوض والبحث عن فاوستو لكي يصحبها إلى بيتها، نطق رينيه.

– كانت الجنازة جيدة، أليس كذلك، خيرترودِس؟. ولا شكّ أن دون رامون يرقد مرتاحاً.

هزّت رأسها، موافقة. تحدثت عن أكاليل الورد، وعن عِظة الأب پيو، وعن عدد المعزّين. تحدّثت عن أيّ شيء، في ثرثرة عصبيّة منفلتة لم تفلح في إيقافها إلّا بعد أن مرّ وقتٌ طويل.

ينظر رينيه إليها، بين مستغرب ومستظرف.

– تبدين كأنّ لسانك أفلت منك –قال لها–. لم أركِ هكذا من قبل.

واستمرا في الكلام حتى عاد فاوستو من جولته، ليستأذن بالانصراف. سأل خيرترودِس إن كانت تريد أن يوصلها. فنهضت، وهي تحرصُ على ألّا تبتسم، فليس من الأصول توديع أقارب الميت منفرجَ الأسارير.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-16-

مرّت تسعة أيام على وفاة دون رامون. وأراد رينيه أن يقام الاحتفال التقليدي بهذه المناسبة في مزرعتهما، فهو لا يريد أن يظهر بمظهر الصهر الجاحد أو الولد العاق. لكنّ صوفيّا رفضت الفكرة، ورفضت المشاركة في التحضيرات. حاولت إنغراثيا ودونيا كارمن وپترونا إقناعها، بلا فائدة، فما كان من خيرترودِس، إلّا أن تتدخّل وتتولّى تدبير الأمور.

وغزا منزلَ رينيه وصوفيّا، عقب قدّاس الخامسة عصراً، أناسٌ يرتدون السواد، بعضهم حزينون حقاً، وآخرون يجاملون. وراح هؤلاء وأولئك، يعبّون ويلوكون ممّا صُفّ على الطاولات، بينما انشغل فرناندو بشيّ العجل والخنازير التي ذبحت لإطعام الحضور. في (ديريّا)، يُقام احتفال الأيام الكاثوليكيّة التسعة في مظهر من مظاهر التقرب من الديانات المحليّة القديمة، التي تأمر بإقامة احتفال كبير في وداع الميّت، حال الانتهاء من الصلاة التساعية.

جلستْ صوفيّا في غرفتها، وقد ارتدت ثياب الحِداد، وحدها، تكلّم الميّتَ وتتمرّد على التقاليد وترفض مأدبة التكريم تلك. لم تشأ أن تخرج من غرفتها، على الرغم من أنّ خيرترودِس ألحّت عليها وتحايلت، لإقناعها بأنّ تقليدَ الأيام التسعة طقسٌ قديم ووسيلة صحيّة لتذكير أقارب الميت بأنّ الألم يجب أن يُفسح للحياة لكي تتواصل وتستمرّ.

- إنّها التقاليد، صوفيّا، فلماذا تعترضين على كلّ شيء؟

- تقاليد بالية. أكلٌ وشرب بالمجّان على حساب الموتى. لا أريد أن أرى أحداً.

– لكنّ هؤلاء أناسٌ أحبوا رامون. أنتِ تعرفين كم كانوا يحبّونه.

– لا أريد أن أرى أحداً.

كفّت خيرترودِس عن محاولتها، وتركت صوفيّا على أريكتها، تنظر، عبر النافذة، إلى السواد الذي راح يكسو أشجارَ الليمون بظلام ليلةٍ غاب عنها القمر.

وبينما راح المحتفون يأكلون ويشربون، راحت هي، وحيدة، تسترجع ذكرياتِها بحرص مُرابٍ يحسب ما له من قروض. وانتهزت وحدتها، فبكت ما وسعها البكاء، واستبدّ بها نحيبٌ بدا كأنّه يخرج من أحشائها. هي تدرك أنّها لا تبكي الفقيدَ فحسب، بل تبكي الخوفَ، الخوف من الحرية التي باتت في متناولها، لكنّها تخشى ظلمة مسالكها وغياب آفاقها. في شطحات خيالها التي سبقت وفاة دون رامون، قرّرت أنّها سترحل، حال وفاة والدها بالتبنّي، ولن يعرف أحدٌ، لا رينيه ولا غير رينيه، شيئاً عنها. تصوّرت أنّها تتصل بإستيبان، حبيبها المجهول، ليأخذها إلى ماناغوا، أو إلى واحدٍ من البلدان البعيدة. ولطالما رأت نفسَها في إسبانيا، تبحث عن الغجر المتميزين، الذين يُفترض أنّهم قومُها، أمّا الآن، فإنّ تخيلاتها توشك أن تصبح حقائق، وقد آن لها هي أن تتحرّك، ولكن، في أيّ اتجاه؟ وكيف؟

وفجأة استبعدت إستيبان من ذهنها: فهي لا تريد أن تتحرّر من رجلٍ لتتورط مع آخر. صحيح أنّ إستيبان كان لهواً لذيذاً ساعدها في وحدتها، لكنّها لن تُخدع ثانية، فتتصوّر أنّها ستجد السعادة معه. من الخير لها أن تقطع معه وتنساه، لتبدأ حياة جديدة. أمّا فكرة الرحيل إلى إسبانيا ففيها من الرومانسيّة والفنطازيا الشيء الكثير. فكيف لها أن تستقلّ الطائرة وهي التي يصعب عليها ركوب *الجيب* أو الصعود على ظهر الحصان! ثمّ إنّ تذكرة السفر، كما تقول خيرترودِس، تكلّف كثيراً، وليس من المناسب أن تبدّد ميراثاً تستطيع به، إن هي أحسنت إدارته، أن تعيش عيشة رغيدة في البلدة. فلقد ترسخت جذورها في (ديريّا)، وفي (ديريّا) ستبقى، وإن كانت أصولها تعود إلى أقوامٍ متنقلة.

صحيح أنّ صوفيّا ورثت ثروة طائلة، لكنّها في معظمها مستثمرة في الأطيان والعقارات، وهي ليست مستعدة للتخلّي عنها أو التفريط بها.

نهضت صوفيّا من فراشها وراحت تطوف في غرفتها. إنها ليست خائفة ولا مضطربة، بل هي مرهقة، فقط. إنّه «تعبُ الحِداد»، تقول لنفسها، وهي تبرّر الألم الناتج عن وحدةٍ كان وجود الرجل العجوز يخفف منه. تتذكّر أنّ عليها أن تحيي مرورَ تسعة أيّام على وفاة دون رامون، وأن تستيقظ في غدها لترى أنّ الحياة لا تتوقف بسبب أحد، ولا تنتظر أحداً، إنّما تسير سيرها المعتاد.

ولن تلبث أن تغلي الزهور وتسقي زوجها من ذلك الشراب، ولكن لتهرب نهائياً، هذه المرة.

راحت خيرترودِس تذرع البيت طولاً وعرضاً، تحادث هؤلاء، وتلبّي طلبات أولئك. أمرتْ بأن تُمدّ الطاولات في الباحة، على الجانب الآخر من السور، تحت أشجار المطّط، بجذورها المشعرة، لتصفّ عليها أطباقُ اللحم وقطعُ الشحم وشرائح الظهر والأضلاع، مصحوبة بمرطبانات المخلل الزجاجيّة العريضة بأغطيتها الخشبية.

تعلو أصواتُ الرجال، مع اشتداد حُميّا الشراب، وتزول من الأجواء نبرةُ الحزن، بينما تلتزم النساء المحتشمات الهدوء، فتراهنّ جالسات إلى جانب أزواجهنّ، وقد أغلقن سيقانهنّ ووضعن أيديهنّ على حجرهنّ، وإن واصلنَ توزيع الابتسامات على الحضور والتفاعل معهم باعتدال.

يشعر رينيه بالرضا، وينتقل من مائدة إلى أخرى ليطمئنّ على أن لدى الطاعمين ما يشبعهم من سلطات ورز وتورتيّا، وما يرويهم من رون وكولا وليمون. ومن حينٍ لآخر، يسترق النظر إلى خيرترودِس، ويبتسم راضياً، ويلوم نفسه على أنّه لم يتنبّه إلى تلك المرأة الصغيرة، التي تبدو عليها سيماءُ الزوجة المدبّرة والمرأة الولود والأمّ الصالحة، خلافاً لصوفيّا، التي لم تكلّف نفسها حتّى جهدَ الخروج للسلام على الناس، الذين جاءوا ليعزّوها بوفاة والدها.

وراحت دونيا كارمن، أيضاً، تتابع خيرترودِس، وقد بدا كلّ شيء لها واضحاً. إنّ في مقدورها أن تصف للفتاة شراباً يجعل رينيه يجثو عند قدميها قبل مرور ثمانية أيام، وهكذا تتحرّر صوفيّا من زوجها، وتخرجُ نظيفة من

تلك المعمعة، بل ستكسب تعاطف الناس، الذين سينظرون إليها، وقد هجرها زوجها وتخلّى عنها، على أنّها ضحية.

– خيرترودِس! –نادتها دونيا كارمن أخيراً–. فخفّت الفتاة.

– نعم، دونيا كارمن، هل من خدمة أقدمها لك؟

– بل أنا من يستطيع أن يخدمك –قالت العجوز، وهي تنظر في عينيها–. تعالي عصر غد إلى بيتي لأعطيكِ ما ستنالين به مُناك.

احمرّ وجهُ خيرترودِس، لأنّها، منذ أن كانت طفلة، تسمع عن فراسة دونيا كارمن وعن وصفاتها السحريّة، ولم تدرِ ما تقول.

– سأنتظركِ في الساعة الخامسة.

وابتعدتْ دونيا كارمن، دون أن تنتظر الردّ.

في الحادية عشرة ليلاً، خلا المنزل من المدعوين. أوصل رينيه خيرترودِس إلى بيتها وعاد عند الواحدة تقريباً. أحسّت صوفيّا بوصوله. سمعته ينزع ملابسه، بهدوء، في الحمام، ويفرّش أسنانه ويستلقي إلى جنبها، تفوح منه رائحة الشراب. انتظرت أن يلومها أو يعنفها، أن يوقظها من نوم تتظاهر به، أن ينقضّ عليها، لكنّه اكتفى بأن استلقى ووضع يديه تحت رأسه، وراح ينظر إلى مرآة السقف، ويتذكر كيف احمرّ وجهُ خيرترودِس، وكيف حرصت على أن تلملم تنورتها، وهي تترجل من *الجيب*، لتحول دون أن يظهر شيء من ملابسها الداخليّة، وهو ما لا تحرص عليه صوفيّا.

في اليوم التالي، وصلت دونيا كارمن إلى المزرعة باكراً، بحجّة المساعدة في تنظيف البيت.

طرقت على باب غرفة الخياطة، ودخلت، قبل أن تطلب منها صوفيّا الدخول.

– سامحيني، يا ابنتي، ولكن، عليّ أن أتكلّم معكِ.

كلّمتها دونيا كارمن عن شكوكها، وعن الخطة التي وضعتها لتحريرها من رينيه.

– افعلي ما شئتِ. فأنا سأتركه، على أيّة حال. لقد أخبرني فاوستو بالأمر، لكنّي لم أصدقه. مسكينة خيرترودِس!

– ولكن، أتريدين أن أساعدكِ أم لا؟ أستطيع أن أرتّب بينهما هذه العلاقة. لديّ مرهمٌ لو مسحت به خيرترودِس أيّ موضع في جسم رينيه أو ملابسه فلن يستطيع كائن من كان أن يبطل مفعوله.

– أعطيها إيّاه –قالت صوفيّا، ضاحكة–. كم أتمنّى أن أرى رينيه يترنّح من تناول حساء السروال[1]... ما أحتاجه، دونيا كارمن، هو أن أحضّر له شاياً آخر من الفلوريبون كي أستطيع الهرب. لقد فكّرتُ وقرّرت. اسألي صاموئيل إن كان يقدر أن يؤمّن لي مكاناً أختبئ فيه لبضعة أيام.

– على الرغم من أنّ صاموئيل غاضب عليك، فسأخبره. أرى أنّ عليك الانتظار. فحين يبدأ رينيه بالجري وراء خيرترودِس، فسيكفّ عن الحرص على حبسك، وستكونين، عندها، قادرة على الخروج. ثمّ إنّكِ، إن تركتِه، بعد أن يشيع أمر العلاقة التي بينهما، فسيرى الجميعُ أنّكِ ظلمتِ، وسيتفهمون موقفك، ولن تصادفي مشكلة مع أحد.

– أنا لا يهمّني رأيُ الناس فيّ، بل إنّي لأفضّل أن أبدو شريرة في نظرهم على أن أبدو ضحيّة. متى تستطيعين أن تأتي لي بزهور الفلوريبون؟

– ولكن، عليك أن تحتاطي، فجرعة زائدة قد تقضي عليه. وماذا ستفعلين بعد أن تختبئي؟

– هذا موضوعٌ يخصّني. – ونهضت لتختم، هكذا، الحديث.

خرجت دونيا كارمن وهي تفكّر في فظاظة صوفيّا وعدوانيّتها. وتذكّرت نفسها، وهي صغيرة، وكيف أنّها أثارت فضائح عاطفيّة مع شاب أسود من **الساحل الأطلسي**، أحبّته، لكنّه تركها وذهب إلى ميامي للعمل في ورشة لغسل السيارات. كان يحثّها، وهو يضاجعها، على أن تصرخ: «اصرخي – يقول لها– بأعلى صوتك، ودعي الناس يسمعونك!». وابتسمت إذ تذكرت حين انتظرهما أولاد الجيران، ذات صباح، وصفّقوا لهما، بعد ليلة مشهودة، اكتوت فيها مع الأسود بنار اللذة. وكان ذلك الشاب الأسود هو من دعاها إلى أن تسمّي حانتها بالـ «غانچاثو» [الخطّاف]، لتتحدّى، بذلك، مُبغضيها وحاسديها.

---

1 – . ماء السروال أو حساء السروال. من الوصفات السحريّة لجلب الحبيب.

فالمشكلة هي في الشباب، تقول لنفسها، أما وقد باتت عجوزاً، فقد صار الجميعُ يحترمونها، ولكن، ليس في مقدور أحدٍ أن يسلبها تلك المتعة. فلأجل ذلك يعيش الشباب، وصوفيّا المسكينة لا تستحق أن تعيش حبيسة تعيسة. إنّها امرأة مثلها، وتستحقّ المساعدة، وإن تمنّت، أحياناً، لو استطاعت أن تكشف عن مؤخرتها لتنهال عليها ضرباً، حتّى تكفّ عن رعونتها.

-17-

- لا تتصلْ بي ثانية، أرجوك.

على الطرف الآخر من الهاتف، ردّ عليها إستيبان بسيل من الأسئلة والاحتجاجات. فكيف لها أن تقطع معه ولمّا يبدآ؟ بل إنّهما لم يتقابلا وجهاً لوجه. فليلتقيا مرة واحدة على الأقل! وليخرجا، مرّة واحدة، على الأقل! إنّه يحبّها... يعبدها... يحلم بها كلّ يوم، يتخيلها شقراء، سمراء، حمراء، بدينة، نحيفة... «اسمحي لي، على الأقل، أن أراكِ، ولو مرّة واحدة».

- لا جدوى من ذلك -ردّت صوفيّا-. أنا لا أعرفكَ، ولا شيءَ يضمن لي أنّكَ مختلف عن بقيّة الرجال. لقد مللتُكَ، ولا أشعر بالرغبة في مواصلة الحديث معك، وإن عدتَ واتصلتَ، فسيردّ عليكَ زوجي.

- ولكن، ما الذي حدث؟ ولماذا تكلّمينني بهذه الطريقة؟

- أنا هكذا، وها قد عرفتني... وداعاً، إستيبان. لا تعاود الاتصال بي.

أسفت صوفيّا لما جرى لإستيبان، لكنّها شعرت بالراحة، لثقتها بأنّها فعلت الشيء الصحيح. ظلّت قرب الهاتف، برهة، وشعرت بأنّها قادرة على اتخاذ قراراتٍ مصيريّة. لم يتبق إلّا القليل. فخططها تتبلور. لقد التقت عدّة مرات بالمحامي دون پروديثيو، وراجعت وثائق ما سيؤول إليها من أملاك، وتفاصيل ما سترثه.

نهضتْ وتوجّهتْ إلى المطبخ. وأفزع دخولها المفاجئ پترونا، التي كانت تنام على طابوريّة المطبخ، كالبهلوان.

- أعدّي القهوة، پترونا، فالمحامي قادم.

احتلت صوفيّا مكانها على الطابوريّة وسحبت، من تحت بلوزتها، علبة السجائر. لقد اعتادت، في الآونة الأخيرة، أن تدخّن سيجارة واحدة أو سيجارتين، دائماً في المطبخ. إنّها تحبّ المطبخ: ففي المطبخ بقيّةٌ من ملاذٍ قديم، دافئ، يريحها.

عند الساعة الثالثة بالضبط، وصل المحامي العجوز، يرتدي قميصاً أبيضَ نظيفاً، ويحمل السندات والأوراق والسجلات. طلب من صوفيّا، كدأبه في الأيام السابقة، ألّا تبلغ رينيه بزياراته، وشدّد على ضرورة أن تكون تلك الزيارات في أوقات غياب زوجها عن البيت.

كان المحامي، في جو غرفة الطعام الخانق، يتصبّب عرقاً، بينما راحت هي تراجع الأوراق وتعاين وضعيّة أملاكها القانونيّة، وتطّلِع على كشف المدينين والضرائب التي دُفعت وسجلات تصفية المحاصيل، وتطرح السؤال تلو السؤال على المحامي وتدوّن إجاباته في دفترٍ صغير.

كلّمته صوفيّا، وهي تصبّ له القهوة، بالنبرة الآمرة ذاتها التي لم يستسغها منذ بداية علاقته المهنيّة بها.

- سجّلْ كلّ شيء باسمي ولقبي قبل الزواج. أرجو أن تروّج، بعد شهر من الآن، طلبي للطلاق من زوجي. أريدكَ أن تنشر تبليغاً في صفحة الإعلانات المبوّبة في الجريدة، بخصوص استدعائه إلى المحكمة، فإن لم يحضر، وهذا هو ما أتوقعه، فعليك أن تسمّي محامياً ينوب عنه، يعني «وصياً لأغراض الدعوى»، كما يقال، على ما أظنّ.

- ولكن، يا عزيزتي صوفيّا...

- حضرتك محاميّ، فإذا رفضتَ، ففي مقدوري أن أجد محامياً آخر. فالراغبون في أتعاب دعاوى الإرث هذه كثيرون. وأنا بصفتي موكلتك، أطلب منك أن تتكتّم على طلبي وتباشر إجراءاتك بعد شهر، وليس قبل ذلك.

بلع دون برودينثيو كبرياء المحامي المرموق ورأى أنّ صديقه، دون رامون، أخطأ إذ احتضن تلك الأفعى الصغيرة، وأخطأ أكثر إذ ترك لها جنى عمره. ليس هناك أسوأ من أن تعهد لامرأة بمسؤولية.

- وماذا سنفعل بالعزبة؟

- سيواصل دون خوسيه الإشراف عليها. إنّه يحظى بثقتي. ثمّ إنّي اتصلتُ بفاوستو ليأتي ويساعدني.

- وهل أنتِ متأكدة من أنّكِ تريدين بيع المزارع الأخرى؟

- اعرض المزرعتين الأقل إنتاجا للبيع، وسأستثمر مبلغ البيع في المزرعتين الأخريين.

- أمرُكِ، يا ابنتي، أمرُكِ. مع ذلك، اسمحي لي أن أنبّهكِ، بصفتي محاميك، إلى أنّك ستواجهين الكثير من المشاكل في حالة طلاقك من زوجك. فكيف ستديرين كلّ هذه الأطيان بمفردك؟ زوجك رجلٌ صاحب خبرة، وهو مزارعٌ ممتاز.

- سأنظر في هذه المسألة، دون بروديتيو. فربّما رغب رينيه في أن يعمل مديراً عندي -قالت ساخرة-. أنتظرك غداً على نفس الساعة لأوقّع بقيّة الأوراق.

مدّ المحامي يدَه ليصافح صوفيا، وهو يبتلع كبرياءه الجريحة التي تتضاءل أمام ما سيتقاضاه من أتعاب، وخرج وهو يمسح عرقه بمنديله الأبيض الناصع.

في تلك الساعة، كانت دونيا كارمن تنتظر وصولَ خيرترودِس.

لقد استطاعت دونيا كارمن، بعد سنواتٍ طويلة من العمل الدؤوب في حانتها، أن تبني لها منزلاً بسيطاً، جدرانه من الكونكريت وأرضيّته من الطوب الأحمر. يؤدي بابه الرئيس إلى فضاء مستطيل تشغله الصالة وغرفة الطعام. على الجانب الأيسر ممرٌ صغير يؤدي إلى غرفة ربّة البيت وإلى الباحة الخلفيّة، حيث المطبخ ومغسلة الملابس.

زُيّن المنزلُ بأثاثٍ من طراز متنوع: كراس بلاستيكية، وأخرى هزازة خشبية، وطاولات ملوّنة. صورةٌ لـ **عذراء الحبل بلا دنس** عُلّقت على الحائط، وأصص نباتات وُزّعت هنا وهناك. أمّا الباحة فهي صيدلية أعشاب حقيقيّة: فمن بابونج إلى صبّار إلى سذّاب إلى دمسيسة بيروفيّة إلى زهور الفلوريبون إلى أوراق الهواء التي تنمو على الجدران أو في صوانٍ خشبية وضعت على الأرض أو فوق كتل الحجر الذي يؤتى به من المقالع.

في غرفتها، وعلى رفّ تغلق عليه بالمفتاح، وضعت دونيا كارمن قارورات عليها بطاقات قيّدت فيها استخدام كلّ عقار ومفعول كلّ وصفة. أمّا القارورة التي راحت تتفحصها وتفتح غطاءها لتشمّها، ففيها دهن أرجواني، ما زالت رائحته قويّة، ومعنى هذا، قالت، أنّه يفي بالغرض.

صحيح أنّ لديها وصفاتٍ أخرى لجلب الحبّ، لكنّ هذه وصفة خاصّة، لأنّها توجّه المشاعرَ من شخص إلى شخصٍ آخر، وهو ما لا تفعله، في العادة، لأنّها ساحرة مسؤولة وتحترم مهنتها. أمّا الدهن الذي تصفه للزوجات اللاتي يشكين صدّ أزواجهنّ ونفورهم، أو للخطاب الحائرين المتردّدين، فهو ورديّ اللون، وذو مفعول مديد.

أنزلت القارورة من الرفّ وأخذت قليلاً من محتواها. وضعته في قارورة أخرى أصغر، أعدّتها لهذا الغرض، وغلته طوال الليل بماء مخلوط بشحم مُبرّد.

نظرت دونيا كارمن إلى نفسها في المرآة، ورتبت، بغنجٍ، مشبكَ شعرها، ثمّ خرجت إلى باب المنزل، وجلست على الكرسي الهزاز بانتظار خيرترودِس، وهي متيقنة من أنّ الفتاة لن تتأخر كثيراً.

في الخامسة والربع لمحتها تدخل العطفة. كانت تسير مطأطئة الرأس. فمنذ أن عرضت عليها دونيا كارمن أن تعطيَها شيئاً يساعدها على نوال ما تريد، وقعت خيرترودِس في بحرٍ من الأفكار المتلاطمة التي زاد من شدّتها ضميرٌ لا يفتأ يسلك طريق الفضيلة.

لم تستصوب خيرترودِس قطّ فكرة حرف القدر عن مساره، على الرغم من أنّها نشأت في (ديريّا)، وتعايشت مع السحر ووصفاته. ثمّ إنّها، وهي الكاثوليكيّة المؤمنة، نشأت على احترام مؤسسة الزواج. مع ذلك، فقد بدا عامل الفضيلة لها، في هذه الحالة، غير واضح. صحيح أنّ رينيه وصوفيّا تزوّجا زواجاً كنسياً، لكنّ هذا النوع من الزيجات صار، في هذه الأوقات، قابلاً للفسخ، كما قرأت في عددٍ من أعداد مجلة *أولا* نسيته مضيفة **إيبيريا** على طاولتها، وإلّا، فكيف استطاع متزوجون من العائلة المالكة أو من طبقة *الجيت* الثريّة، الحصول على ترخيص من البابا بفسخ زيجاتٍ متحققة، بل

زيجات دامت سنواتٍ ونتج عنها أبناءٌ وبنات؟ ثمّ إنّها لن تضرّ أحداً، ولن تتحمّل خطيئة أحد، فصوفيّا ستنفصل عن رينيه، آجلاً أم عاجلاً، أمّا هو فرجلٌ بائسٌ وتعيس... فلا يمكن لطريق الفضيلة، إذاً، ألّا يأخذ هذه الظروف المخففة في الحسبان. حتّى الأب پيو سيوافقها الرأي، إذا ما طبق التعاليم المسيحيّة على نحو ما يقتضيه المنطق. وتقرّبت من دونيا كارمن، لتسألها إن كانت ترى رأيها.

– مرحباً بك، يا ابنتي – حيتها دونيا كارمن، وهي تنهض من كرسيها وتدعوها إلى الدخول.

– مساء الخير – ردّت خيرترودِس، وهي متوترة، تخشى أن تضطرّ إلى الدخول في تفسيرات وشروح، لكنّ دونيا كارمن بادرت وفتحت الموضوع، فكأنّها قرأتْ أفكارها.

– أردتُ أن أعطيكِ هذا –قالت، وتناولت القارورة من على الطاولة–. تأخذين هذه القارورة، وتضعين الدهن الموجود في داخلها على جسم ذلك الشخص أو على غرضٍ من أغراضه. يمكنكِ أيضاً أن تدهني به حذاءه. لا يهمّ المكان، المهمُ هو أن تضعيه على شيء يستخدمه.

نظرت خيرترودِس إلى القارورة، وحدّقت مطوّلاً في محتواها، دون أن تتفوّه بشيء.

– ما بكِ، هل أنتِ بخير؟

– وماذا تفعل هذه، دونيا كارمن؟

– لن ينقضي خمسة عشر يوماً حتى يشعر ذلك الرجل بأنه لن يستطيع العيشَ من دونك. جهّزي نفسك، فسيقع في حبّك. هذا دواء ليس له ترياق – قالت المرأة وقد رسمت على وجهها ابتسامة خبيثة.

– وكيف عرفتِ أنّي أتمنّى أن يُغرم بي شخصٌ مّا؟

– أنا ساحرة. والساحرة تعرف كلّ شيء، من نظرة واحدة. لن أسمّي لك أحداً كي لا أزيد في حرجك، لكنّي أرى أنكِ تفعلين الشيء الصحيح. وسيكون ذلك في مصلحة الجميع.

– أنا خائفة – قالت خيرترودِس، همساً تقريباً. لا أدري إن كنتُ سأستطيع.

– خائفة من ماذا؟ من لا يغامر، فهو بالموت أجدر. وما أعطيكِ إيّاه مضمون، وصفة مُجرّبة، مستوردة من عالم الغيب. صدقيني، ولا تخبري أحداً بأنّي أنا من أعطاكِ إيّاها، لأنّي لم أصفها في حياتي، إلّا مرتين، فأنا لا أوجّه الحبّ وجهة إلّا إذا كنتُ متيقنة من أنّها الوجهة الصحيحة.

– وهل تعتقدين أنّني هكذا لا أغري القدر؟

– بل القدر هو من يغريكِ، وحين يعطينا القدر إشارات، فمن الخير أن نصغي إليه – قالت دونيا كارمن، وهي تقترب من خيرترودِس وتربتُ على ظهرها.

ألقت خيرترودِس نظرة أخيرة مرتابة على القارورة، ووضعتها في حقيبتها. ودّعت دونيا كارمن على عجل، وظلّتْ هذه ترقب، وهي عند الباب، الفتاة، وهي تبتعد مسرعة.

-18-

متّى سيتوقف المطر؟ تسأل صوفيا نفسها، وهي تقف عند نافذة غرفتها. لقد أثّرتْ رطوبةُ أربعة أيّام من المطر على مزاجها، فبدا كلّ شيء أبطأ حركة، وضاعف الوحلُ من جيوش البعوض وجحافل الهاموشيّات القوارص.

قبل قليل ودّعتْ فاوستو، الذي ساءه أن يغمره الوحلُ، وساءه أن يتسخ حذاؤه الأبيض، وساءه أن تضحك هي من مظلته الكبيرة. من مشاكل أمثال فاوستو عنايتهم الفائقة بهندامهم وأحذيتهم، وهو ما لا يهتمّ له سواهم من الرجال. «لحسن الحظ -قالت في نفسها- أنّ فاوستو لم يستهجن خططي، كما فعل المحامي، الذي بدا لي، وهو يولول ويتوسّل بي كي أصرف النظر عن موضوع الطلاق، عجوزاً من عجائز الكنيسة». ابتعدتْ صوفيّا عن النافذة، وليس في رأسها فكرة عمّا تريد أن تفعل. ستصعد في غدها إلى (موموباچو)، بعد أن دبّر لها صاموئيل، المستاء من فظاظتها وعجرفتها، ملاذاً آمناً في بيت امرأة عجوز، ساحرة بلا شك.

خبأت أوراق الفلوريپون بين المناديل، في دُرج ملابسها الداخلية. غداً ستغليها، وكلّها رغبة في أن تسقي الرجل جرعة زائدة، لكنّ الواجب يقتضي أن تتركه سليماً معافى لخيرترودِس الطيّوبة الحبّوبة. وابتسمت صوفيّا وهي تتخيّل صاحبتَها مفزوعة، وقد طُرحتْ على السرير طرحاً، ثمّ راحت تنظر إلى سقف المرايا.

خرجت من غرفة الخياطة، وسارت في الممرّ المغمور بعتمة الجوّ الماطر، بينما غمرت الميازيب، التي كانت تسدل ستائر الماء، داخله بالأنسام، وهي تصدر أصواتاً كأصوات شلالاتٍ خفيفة تضيع فيها أصوات البيت.

أخرجت صوفيّا، من خزانة ملابسها، سراويلَ الدريل وقمصاناً طويلة الأكمام؛ طوتها بعناية، ووضعتها في حقيبة القماش التي أهدتها إنغراثيا إليها قبل عام. من درج آخر، يغلق بالمفتاح، أخرجت ملابسها التي كانت ترتديها يومَ عثروا عليها، ضائعة في البلدة، وكانت إيولاليا سلّمتها لها، ذات يوم. وتساءلت مرّة أخرى: لماذا تركتها أمّها؟ ومن أين جاءت هي؟ ربّما لن تعثر على أجوبة لأسئلتها، وما عاد يهمها أن تعثر على تلك الأجوبة أم لا. منذ الليلة التي رأت فيها إيولاليا، تلاشت آمالها في الكشف عن الغموض الذي يلفّ نسبها. فإذا كانت الميتة عجزت عن إخبارها عن ماضيها، فكيف لها أن تعرف شيئاً، وهي التي لا تعيش غير حاضرها، رغم تنامي مهاراتها في التنبؤ بمستقبل الآخرين. ما يهمّها الآن هو أنّها تغيّرت. ما يهمّها هو أنّها تحرّرت من قيودها، وصارت قادرة على أن تطلق العنان لنداءات دمها التي ما زالت تخوض صراعاً خفيّاً معها، والتي سنحت لها فرصة الانتهاء منها عن طريق التحكّم بقراراتها. أمّا المشكلة، في رأيها، فهي أنّها لا تمتلك، بهذا الخصوص، إلّا أفكاراً عامة غامضة. فليس عليها، إذاً، إلّا أن تعود إلى (ديريّا) وتتعايش مع جميع أشباحها...

وكيف لها أن تسيطر عليها العواطف حين لم يبقَ أمامها إلّا أقلّ من القليل؟

عاد رينيه الى البيت عصراً، وجلس في الممرّ يقرأ الجريدة. منذ أيّام وهو صامت. لم يبقَ أمامه غير القليل من الوقت للتفكير في أمر خيرترودِس. إنّه لا يعرف كيف اقتحمت هذه الفتاة عليه حياته حتّى بات مهووساً بها. ما عاد يرغب في النوم مع صوفيّا، بل إنّه ينام مع صوفيّا لكنّه يتخيّل نفسه مع خيرترودِس، ويحلم بنساء حوامل.

تقترب صوفيّا منه بتودّد، وتسأله إن كان راغباً في فنجانٍ من البابونج والقهوة وبعض المعجنات، ليدفّئ بها عظامَه التي أتعبتها رطوبة الجو.

– لا بأس بالقليل –قال لها وقد أزعجه أن تقطع عليه تفكيره–. أهذا كلّ ما يخطر ببالك أن تقدميه لي؟ شاي وقهوة؟ فكأنّي عجوز بائسة!

ذهبت صوفيّا إلى المطبخ، دون أن تعلّق بشيء، فهي لا ترغب في

الدخول في جدال معه. ثمّ عادت بكأس كبيرة من الرون، ومعها صحن من شرائح الليمون والملح.

- تفضّل هذا، إذاً -قالت له وقرّبت منه طاولة صغيرة- أستغربُ أن أسمع منك ذلك، لأنّكَ تحبّ البابونج.

- وماذا سأحبّ فيه! إنّما أتناوله لأرضيكِ، ولكي لا تقولي عنّي أنّي غير متحضر، لكنّي سئمتُ إرضاءكِ. أنتِ مثل قطة الأنقورا التركيّة، إن حشروها صرخت، وإن أخرجوها بكت.

ولم تردّ صوفيّا على كلامه، هذه المرّة أيضاً، بل ذهبت إلى المطبخ، وفي طريقها ابتسمت ابتسامة ساخرة، وهي تعِدُه، في داخلها، بأنّها ستريه أيّ نوع من قطط الأنقورا هي. «لن تحدث مشكلة غداً»، فكّرت، وربّما لن تجد حاجة إلى شاي الفلورييون. فيوم غدٍ هو الجمعة، ومن الوارد جدا أن يعود رينيه من حانة پاتروثينيو سكران ثملاً.

من خشب كرسي الاعتراف، تفوح رائحة الرطوبة. تسدل خيرترودِس الستائر الأرجوانية وتجثو أمام الراهب. وبعد لحظات، يُسمع صوتُ الأب پيو من خلف المشبّك، المغطى أيضاً بقطعة قماشٍ أرجوانية. تتعرّق يدا الفتاة. لا ترفع رأسها ولو للنظر إلى الكاهن العجوز، الذي تعبَ، وقد أوشك العصر على الانقضاء، من سماع الخطايا.

- مريم العذراء النقيّة.

- التي حبلتْ بلا خطيئة.

- متى اعترفتِ آخر مرّة، يا ابنتي؟

- قبل شهر، أبانا.

- أنا أسمعكِ. تكلّمي.

- وقعتُ في حبّ رجلٍ متزوج، أبانا پيو، لكنّي أشعر أنّي لن أستطيع تركه حتى لو طلبتَ منّي حضرتك ذلك.

يرتّب الأب پيو جلسته ويسعل. عجباً! خيرترودِس، قال في نفسه، من كان يتصوّر أنّ خيرترودس، الورعة التقيّة، تخرج عليه بهذه المفاجأة!

– لكنكِ تعلمين أن في ذلك خروجاً على الوصية التاسعة، وهو خطيئة كبيرة.

– ليس في هذه الحالة، أبانا، لأنّ زوجته لا تحبّه. وهو ليس سعيداً معها.

– هذا لا يهم، يا ابنتي. يحدث كثيراً أنّ واحداً من الزوجين لا يشعر بالمودة تجاه الآخر، وربّما شعر الاثنان بذلك النفور، لكنّ ما جمعه الربّ لا يفرّقه إنسان. ثمّ إنّ بينهما أولاداً.

– ليس بينهما أولاد، ولن ينجبا، لأنّها لا تريد أن تخلّف منه.

– لكنّها لا تستطيع أن تمنع مشيئة الربّ.

– كان ذلك قبل الحبوب، أبانا، أمّا الآن، فالأمر مختلف.

ندمت خيرترودِس على أنّها صرّحت بكلّ ذلك، لكنّها تجد صعوبة في التحكّم بتلهفها والسيطرة على أعصابها، بل إنّ ذلك التوتر يقف، منذ أيّام، وراء ما بها من أرق وآلام في المعدة. إنّها لا تعرف سبب مجيئها للاعتراف، وهي العازمة على المضيّ قدماً في ما عزمت عليه، بعد أن طلت حذاء رينيه بالدهن الذي زوّدتها به دونيا كارمن، وعلمت أنّ الوصفة بدأت مفعولها، لأنّ رينيه صار يتردّد على منزلها، بل دعاها لتناول الغداء في مكتبه في ماناغوا.

طلبت العذر من الأب پيو، وتوقفت فجأة عن التأمّلات، وراحت تقصّ على الراهب مأساتها كاملة، مع ذلك، لم تحدّثه عن موضوع السحر لأنّها تعلم أنّه لن يغفر لها ذلك.

وبّخها الأبُ، ونصحها، وطلب منها أن تُخرج تلك الفكرة من رأسها، لأنّها لن تؤدي بها إلى نتيجة مُرضية، ولا سيّما أنّ الجميع يعرفون كم أحبّ رينيه صوفيّا، وكم تحمّل طيشها، وكم تجاوز عن أخطائها.

– عليكِ أن تتراجعي، يا ابنتي، وإلّا فلن أستطيع أن أمنحكِ الحِل والغفران.

– أبي، وماذا لو طلب من روما فسخ الزواج؟

– هذا يستغرق سنوات، وهو ليس ممكناً دائماً. فلا بدّ من أسباب موجبة.

– لا بدّ أنّ لديه أسبابه، أبانا. أعرفُ أنّ صوفيّا لم تنجب له لأنّها لم ترد ذلك.

«منافقة»، قالت لنفسها. مع ذلك، لم تستطع أن تسكت عن أنّها هي نفسها من تكفّل بشراء حبوب منع الحمل لها من الصيدليات، طوال هذه السنوات.

رفض الراهب منحها الغفران، فنهضت خيرترودِس باكية، وخرجت من كرسي الاعتراف. حنى الراهبُ العجوز رأسَه وصلّب، وراح يصلي، مبتهلاً إلى العذراء ألا يظنّ بصوفيّا الظنون، ويذهب به تفكيره، هو الآخر، إلى أنّ الشيطانَ استحوذ عليها وحلّ في روحها.

في حانة پاتروثينيو، كان رينيه يعبّ الشراب.

ينظر فرناندو، وقد جلس في ركن بعيد، إلى سيّده ويشفق على حاله. إنّه يلاحظ التغيير الذي طرأ عليه، في الأيام الأخيرة. فمنذ سنوات، وهو لذلك الرجل كظلّه الذي لا يفارقه، في شغله وفي سُكره وفي تردده، بين حين وآخر، على المواخير، حيث تتنازعه العاهرات، لما سمعن عن فحولته وعرفنَ عن كِبَر عضوه. وها هو يراه واقعاً في حبّ امرأة أخرى، ويألم، بعد أن لاحت بارقة أمل في أنّه تحرّر نهائياً من سحر الغجريّة.

يعلم الجميع، قال لنفسه، بطيبة خيرترودِس، ولا شكّ أنّ سيده كان محظوظاً إذ وجد فيها من يبادله الحبّ

في تلك الليلة، حين عاد السيّد ومرافقه إلى المنزل، نام رينيه السكران، بينما تظاهر فرناندو بالنوم. وحين رأى الغجريّة، فجراً، تتسلّل كالأفعى، لم يعترض طريقها. رآها تفتح الباب بالمفاتيح التي انتزعتها من جيب زوجها وتغادر المنزل، وهي تحمل حقيبة من الخيش. وحين سمع وقع حوافر الحصان المتسارعة، نهض ببطء ليلتقط المفاتيح، التي ألقتها المرأة على الثيّل. وعاد لينام.

-19-

على وقع حوافر الحصان راح قلبُ صوفيّا يضبط إيقاع نبضاته. لكنّها خفّفت من سرعة حصانها حين ابتعدت، بضعة كيلومترات، عن مزرعة رينيه، كي لا توقظ أحداً ولا تسترعي انتباه أحد. ها هي ترى أنّ كلّ شيء تمّ بسهولة ويسر، بل لقد استغربت أنّها باتت قريبة من الطريق المؤدي إلى (مومباچو). بين الحين والحين، يطلّ هلالٌ، له صفرة السقيم، من بين السحب الداكنة التي تحجب السماء. يا لها من ليلة داجية، حيث يضفي رذاذ المطر الخفيف، الساقط على المنازل والأشجار، مظهراً مستوحى من عالم الأشباح. تحرص صوفيّا على ألّا تضيّع الطريق، رغم أنّها لطالما جابته، وهي طفلة، مع والدها رامون، الذي كان يحرص على اصطحابها إلى هناك كي تسمع صراخ القرود العوّاءة. تحسّست جيبها الذي حملت فيه المصباح الذي أخذته من زوجها والمسدس. كانت قد تردّدت في أخذ المسدس، لكنّها تشعر بالأمان وهي تتحسسه محشوراً في سروالها، يلامس جلدَ خاصرتها. الظلام كثيفٌ ومخيف. من حين لآخر، تسلّط الضوءَ على الحصان مخافة أن يكون انقلب مخلوقاً من المخلوقات العجيبة. وتعتادها فجأة مخاوف الطفولة، فتتضرّع إلى قديسي السماء كي يحوشوا عنها الفارس ذا الرأس المقطوع، أو عربة ناغوا، أو الشيطان الأصفر أو أبقار (مومباچو) المسحورة، التي تتمثّل، وهي تقاد إلى المسلخ، في صورة أشخاص ملعونين يصرخون.

يبدأ الحصان بصعود التلّة، فلا تكبح صوفيّا اندفاعه السريع. في ساعات العصر، يبدو (مومباچو)، ذلك البركان العملاق الخامد، بقمته المبتورة، ضائعاً بين الضباب، وتبدو سفوحُه الخضر، من كثافة ما يكسوها من نباتات، كوكباً جديراً بأن يُستكشف. أمّا مسالكه الضيقة فتصعد نحو مزارع البن

والكاكاو. على الطريق الرئيس، تصطفّ منازلُ المزارعين، التي تناثرت أدواتُ الحراثة في باحاتها، فبدت لها مُهددة، وبدت لها الأشجارُ متشابكة، تلتفّ، بلا نهاية، في الضباب، فتترك جذوعها في حيرة وارتباك. وسرعان ما تحوّل الرذاذ إلى وابلٍ، لكنّ الحصانَ واصل العدو، مبتعداً عن الطريق الرئيس، شاقاً دربه عبر واحدٍ من المسالك الكثيرة، بينما كانت صوفيّا تُمسكُ اللجام بيد وتلفّ، بالأخرى، الدثار الذي أخرجته من جرابها. تفزع طيورُ الليل، وقد فاجأها المطرُ الغزير، وتنطلق باحثة، بصمت، عن ملاذ عاصم. بينما تشدّ صوفيّا عنانَ حصانها لتجبره على الاحتماء بشجرة عملاقة تصدّع جذعُها من وسطه فبدا كالمغارة.

حين يسقط المطر في البركان، يشتدّ عصفُ الرياح وقصفُ الأوراق والأغصان. وحين تبدأ الطبيعة رقصة السراخس المذهلة، تصاب صوفيّا بذعرٍ يشلّ حركتها. لطالما أحبّت العواصف، لكنّها لا تذكر أنّها صادفت عاصفة وهي في أرض خلاء، أو في مكانٍ يقال إنّ فيه عظايا مطمورة من عصور سحيقة، وحيواناتٍ مسحورة تستردّ آدميتها ليلاً، وكهوفاً تسكنها ساحراتٌ يعتنين بأسراب من الطيور الزرق، وقطعان القرود... تلك القرود الشهيرة التي يعلو صوتُ صراخها على صوت أيّ حيوان يعيش على وجه البسيطة. في تلك اللحظة، توسّلتْ صوفيّا إلى روح إيولاليا كي تحوش عنها تلك القرود، فلا تفزعها بصراخها، وتنزع ما بقي في قلبها من الشجاعة التي تحتاجها لفرش دثارها على الأرض، بعد أن قرّرت أن تنتظر مرور العاصفة وبزوغ الفجر، قبل أن تنطلق للبحث عن كوخ شينتال، صديقة صاموئيل، تلك المرأة العجوز الغريبة، التي لا تهبط إلى البلدة إلّا من حين لآخر، والتي يتذكر الجميعُ أنّهم عرفوها في طفولتهم البعيدة، فكأنّ الزمن لم يفعل فعله فيها ولا في وجهها المجعّد، مُنذ أن وُلدت.

تضيء العاصفة الظلام فتكشف عن المتسلقات التي تدلت من الأشجار، وعن مجاميع الشجيرات والفسائل التي بدت مثل أيدٍ مستنجدة تخرجُ من جذوعها. من حينٍ لآخر، يُسمع صوتٌ يصمّ الآذان: صوتُ أشجارٍ أطاح بها البرق. تمسح صوفيّا بيديها على قائمتي الحصان، الذي راح يصهل محاولاً التخلّص من الحبال التي تربطه. ماذا يفعل الغجر عند العواصف؟ تتساءل،

لكنّها لا تجدُ جواباً، وحين تتخيل القافلة يعصف بها البرقُ والمطر، تغمرها رغبة في البكاء وشعورٌ مخيفٌ بالوحدة والإعراض والضعف. هل ستشرق الشمسُ وتستطيع الخروجَ من مكمنها والعثور على كوخ شينتال، أم إنّ المطر سيستمرّ فتموت من الجوع والبرد؟ لا تريد سماع صوت الريح ولا النظر في الظلام، لكنّ الأصوات الغريبة تخيفها وتصوّر لها نموراً وثعابين. وأخيراً، قرّرت أن تغمض عينيها ولا تفتحهما حتى الفجر، حين يكون في إمكانها أن تفتحهما دون أن تخشى شيئاً تراه.

لا تعرف كم مضى من الوقت حين خيّم الصمتُ على كلّ شيء. لقد تشتتت العاصفة في رعودٍ وابتعدت. وتواصل هطولُ المطر، لكنّه بات رذاذاً خفيفاً، فتنفّست صوفيّا الصعداء، ثمّ تدثّرت بعباءتها، وراحت تغطّ في نوم عميق.

في تلك الليلة، استفاقت إنغرائيا من نومها وهيَ تصرخ. كان العرقُ يبلل قميصها والملاءة التي تدثرت بها. حلمت بأنّ إيولاليا ودون رامون، وقد رُكّب وجهُهما على جسم قردٍ عوّاء، يعويان في (موموباچو)، بينما راحت هي تتوسّل إليهما ألّا يعويا وأن يرضيا بالموت مستقراً ومقاماً.

يستيقظ رينيه وهو لا يكاد يعرف مكان رأسه. وكدأبه كلّ سبت، دخل إلى الحمّام، رشّ الماء على وجهه، وتمضمض، ونادى على پترونا لتحضر له عصير الليمون بالملح. لم يتنبّه رينيه، الذي عاد واستلقى على السرير ووضع الوسادة على وجهه، ليحجب الضوء، الذي يسبب له الصداع، إلى أنّه نام وحده إلّا بعد أن انقضت بضع ساعات.

وقف فرناندو مطأطئ الرأس، بينما راح رينيه يلقي لعناتِه يميناً ويساراً، ويلوم نفسه على أن قصّر في مراقبة زوجته. وأنّى له أن يصدّق أنّ أحداً غافله وفتح الأبواب وأخذ حصاناً، وهو الذي اعتاد أن ينام بعين واحدة؟ ولأجل ماذا يدفع للجميع، صرخ رينيه، إن كانوا عاجزين عن مراقبة خادمة ميتة وامرأة لعينة.

- أسرج الخيل -قال لفرناندو- سنبحث عنها.

حين مرّ بالمطبخ، نظر إلى پترونا وأمرها ألّا تبلغ أحداً بشيء. كانت

المرأة ترتجف مخافة أن يضربها، كما فعل في مرّات سابقة. أومأت برأسها موافقة، وحالما انصرف الرجلان، رسمت علامة الصليب واتجهت إلى الغرفة لتلمّ حوائجها. إنّها لن تنتظر أن يعود ليصبّ عليها جام غضبه إن لم يعثر على زوجته الهاربة. لن تبقى، ولو أعطوها مال الدنيا.

ولم تنقضِ ثلاثُ ساعات، حين سمع القاصي والداني بالخبرِ في (ديريومو) و(ديريّا) و(كاترينا).

في ذلك الوقت، كانت صوفيّا تستلقي في كوخ شينتال، على شبكة نوم، لتعوّض أرق الليلة الماضية، بينما عاد حصانُها إلى حظيرته في المزرعة ليرعى العشب بسلام، أمام البوابة المغلقة.

-20-

مرت الأيامُ بطيئة على صوفيّا، لكنّها شعرت بالراحة قريباً من شينتال، بل لقد شعرت أنّها لا تريد مغادرة كوخ شينتال المركون، الذي له ألوانُ الحرباء، فالشجيرات الصغيرة تموهه، وكؤوس الأشجار القديمة تمنحه ظلالاً دائمة. أمّا جدرانه فمن ألواح خشبيّة، وأمّا سقفه فمن قرميدٍ قديم. على الحجارة التي تقوم مقام المطبخ، نمتْ عريشة من زهور الجهنّميّة، التي تتشابك عند السقف، وتخرج من الفتحات التي تقوم مقام النوافذ. وما أكثر ما اهتزّت تلك الزهور الأرجوانية، حين العواصف، وسقطت، لتختلط مع الرز ويخنة الخضار، فتكون لها بمنزلة التوابل والمطيبات. يقسمُ المطبخُ المكان إلى حجرتين بأرضية ترابية صلبة. في المطبخ، تُمضي المرأتان معظم ساعات نهارهما، فشينتال متخصصة في تحضير وصفات لعلاج أيّ شيء، من لدغة الحيّة حتّى آلام الدورة الشهريّة. وُضعت طناجرُ الفخار ومراجل الألمنيوم على أحواضٍ صُفّت فيها أيضاً قاروراتٌ زجاجية كثيرة، فيها سوائلُ باللون الأخضر والعنبر والأحمر الناري، فضلاً عن أعشابٍ وموادّ أخرى لا اسم لها ولا وصف. في الحجرة حيث تنام صوفيّا، أكياسٌ من الحبوب وتماثيلُ من الطين، لنساء عظيمات البطن عظيمات الأثداء، تصبغها شينتال وتزينها لتبيعها في السوق تعويذاتٍ للعقم. أمّا في حجرة العجوز، فقد كُدست كراكيبُ عتيقة ومذبحٌ لإلهة طويلة الساقين، عارية البدن، تحمل جعبة من السهام على كتفها. يمتدّ المنزل نحو الباحة، حيث الفرنُ الذي تصنع فيه التماثيلُ والخبز، وحيث الحديقة البسيطة حيث تُزرع الطماطم والخسّ والقرع والفجل والكزبرة والبقدونس والخيار والفواكه والبصل. تحت شجرة السامانيا، يقع مغسل الملابس، وفي الخلف، المرحاض.

- أنا لا أخرج من هنا أكثرَ من مرّة في الشهر -قالت العجوز-، المدينة لا تناسب الأرواح.

يتملّك صوفيّا، أحياناً، إحساسٌ بأنّها تقيم في مكان ينتمي إلى أزمنة غابرة، حيث تُحدّد الساعاتُ بسماواتٍ ونجوم. وهي لا تتعب من تأمّل العجوز الغامضة التي يلفّها لغزُها حتّى ليحيطها بهالاتٍ ضوئيّة وأقواس قزح خافتة. تتأمّلها وتكلّمها. بل لقد بدا لها أنّها رأتها، غير مرّة، في المطبخ، وقد باتت شفافة، وبدا لها، غير مرّة، أنّها رأت ألسنة من نار الموقد تنبعث من بين طيّات ملابسها.

منذ وقتٍ طويل وصوفيّا لا تنعم بما تنعم به قربَ هذه المرأة من سلام وطمأنينة. تنهض في الصباح قبل أن يخطّ ضوء الفجر حدودَ غابات أشجار (السايبو) و(آذان الفيل) و(السامانيا) و(البورسيرا) و(غار البركان). توقد الحطب لغلي الماء وإعداد القهوة. تستحمُّ في الباحة بمياه يأتي بها صبيٌّ أشقر وغريب وأبكم، يوميّاً من غدران زرق تتجمّع في (مومباچو)؛ ثمّ تستحم صوفيّا بالماء البلوري الدافئ المريح نفسه.

- وكيف يكون هذا الماءُ دافئاً والجوّ عند فوهة البركان شديد البرودة؟

- سألت صوفيّا.

- يسخن الماءُ في جوف البركان حتى درجة الغليان -أجابتها العجوز-. يأخذه الطفلُ وهو يغلي، حتّى إذا وصل به إلى هنا، صار دافئاً. وكما ترين، فما من مدينة تحظى بهذه الرفاهية... -ابتسمت بخبث- ماءٌ ساخن في المنازل! أترين كيف يعتني البركانُ بمخلوقاته؟

تتكلّم شينتال عن ربّات، لا عن أرباب. وترى في الأرض أعظمَ الآلهة، وترى فيها أمّ جميع الثمار، ووالدة كلّ الحياة. هي لا تؤمن بآلهةٍ بخيلة بائسة، تلزمها معابدُ مظلمة تُعبد فيها، ورجالٌ عازبون يقومون على خدمة بيوتها.

- **الإلهة** موجودة في بطون النساء وفي ذكور الرجال، فهناك تبدأ الحياة، وهناك يتولد كلّ شيء. ظلام أرواح الطبيعة الغريبة وحده هو الذي استطاع أن يخترع إلهاً فحلاً من والدة عذراء، ترى في المتعة التي تُنتج الحياة خطيئة.

إنّها ساحرة أبّاً عن جدّ، قالت لها. وعلى الساحرات مسؤوليّة المحافظة

على حكمة نساءٍ قدّسنَ الأرضَ وأدركن سرّ الحصاد وعرفن ما تضمّه النباتات وأحشاء بعض الحيوانات من قوى سحريّة، قبل أن يُلاحقن ويُطاردنَ ويُجبرن على أن يكنّ ذلولاتٍ منقادات. تؤكد شينتال أنّها تستطيع أن ترى، في القمر، حركة فصولِ السنة، ومقدمات المطر أو القحط، وما ينبئ بالدورة الشهريّة والولادات.

لا تدري صوفيّا إن كان يمكنها تصديقُ حكايات شينتال من أنّها رأتْ آدم وحواء، وأنجبت أكثر من ثلاثين ولداً، موزّعين في أنحاء العالم. ولا تدري إن كان يمكنها تصديقها إذ حكت لها أنّها التقت المرأة التي من نسلها يتحدّر الغجر.

قِدمُ شينتال كان بادياً على جسمها المجعّد بالكامل، ولكن، أنّى لآدميّ أن يعيش طويلاً، كما تزعم، تساءلت صوفيّا، المرتابة بكلام مرأة تقصّ عليها أخباراً عن حقبٍ سبقت الزمانَ بزمان. الحقيقة هي أنّها لم تسمع بتلك الأشياء، مع ذلك، فقد بدت لها حكايات شينتال أمتع من *حكايات ألف ليلة وليلة*.

وقد تدخل المرأة في حالة من التجلّي أثناء الكلام، فتبدو كأنّها ترى، من بعيد، صوراً حيّة من ذاكرتها المعلّقة في هواء الظلال، تحت شجرة السامانيا.

ويمرّ الوقتُ على صوفيّا فلا تشعر به. لقد انكبّت على اكتساب العلم وصنعة العجائز من شينتال. تساعدها، أثناءَ النهار، في تحضير الشرابات والوصفات والطبخات السحريّة واللصقات العجيبة، وتتعلم طرق المزارعين المحليين للحصول على تربة أخصب وإنتاج أجود، حتّى إذا جنّ الليل، جلست عند نار المطبخ وراحت تحلّ ضفيرة الساحرة، وتمرّر المشط، مرّاتٍ ومرّات، من خلال الشعر الأشهب الطويل، بينما تسمع منها قصصَها وتتعلّم منها قراءةَ الطالع في شاي أوراق الليمون، والمستقبل في ماء الأحواض الساكنة عند الفجر، وتواريخَ الطقوس الموغلة في القدم، ولغةَ الريح التي تنبئ، عبر أوراق الشجر، بالعواصف أو الزلازل، فضلاً عن طريقة قطع الحبل السرّي للطفل أو الطفلة، ليتحررا ويستقلا، فلا يكرران أخطاء الوالدين أو يبوءان بلعناتهما...

ما عادت صوفيّا تلك المرأة النشيطة المندفعة التي هربت، ذات ليلة عاصفة، من بيتها، على ظهر حصان. فكأنّ دمَها هدأ وبرد بتأثير العجوز الأمومي.

- أنا أعدّكِ للحياة -قالت لها شينتال- لأنّكِ لن تجدي الأمور أمامك سهلة.

لم تستطع صوفيّا أن تقاوم رغبتها في أن تسأل شينتال عن أصلها، لكنّ العجوز لم تزوّدها بشيء ذي بال، كما كانت الحال مع إيولاليا. حتى الساحرات العالمات الخبيرات لا يستطعن، في ما يبدو، الكشف عن ماضيها. تكرّر شينتال عليها أن تحذر زمنَ أمّها الدائري، لكنّ الفتاة لا تفهم عن أيّة دوائر تتكلّم. وتنبأت العجوز لها بحبّ كبير، فضحكت صوفيّا في داخلها. «هذا ما يقلنه لجميع النساء -فكّرت-، أمّا أنا فمختلفة، ولن تنطلي عليّ قصصهنّ عن العصفورات الحوامل».

وتنام صوفيا، بلا هواجسَ ولا كوابيس، في شبكة معلقة بين أعمدة الكوخ. تنصتُ إلى صوت الريح في غابة البركان، وهي تتحرك وتصفر بين رطوبة الطحالب التي تنمو فوق الأشجار وتغطيها بدانتيل أخضر، وتسمع الزيزان ترفع عقيرتها بالغناء، والقرود تعوي في موطن (موماچو) الكثيف.

أمّا من أصابها هربُ صوفيّا في الصميم فهي إنغراثيا. لقد لاحقها الشعور بالعار في شوارع (ديريّا)، وما عاد الذهاب إلى الكنسية عليها يسيراً، بعد أن صار سكّان البلدة يرمقونها بنظراتٍ تمتزج فيها السخرية بالإدانة. لقد ظلّت إنغراثيا على حبّها لصوفيّا، على الرغم من الشكّوك التي باتت تؤرقها، والجفوة التي وقعت بينها وبين الفتاة، يوم الإعداد لدفن دون رامون، وظلّت تلعن، في سرّها، كلّ من ساند رينيه ولم يفطن إلى أنّه هو من أذنب وتسبب في هرب الزوجة المسكينة. «ببال مَن يخطر حبسُ فتاة صغيرة وانتظار أن تهدأ نفسُها ويلين طبعُها مع الوقت؟ أيحسب أنّ نساءَ اليوم كنساء الأمس، ساذجات خانعات؟ نساء اليوم يعملنَ ويكسبن من كدّهنّ، ويخترن أزواجهنّ ويتركنهم ساعة يقتضي الظرفُ تركهم...». لا تفتأ إنغراثيا تحاور نفسها وهي تعمل في البيت أو وهي تتبضّع في السوق، وإن لم تستطع أن تتجنّب،

مهما حاولت، تلميحات الباعة وتعليقاتهم، وهم منشغلون ببيع الطماطم والخضروات، إلى أنّ العِرق دسّاس، وإلى أنّ الأمر وصل بالغجريّة أنّها نشرت دعوى الطلاق في الجريدة... ما رأيُك، سيّدة إنغراثيا؟ وحاسبي أن يفقأ الغرابُ عينيك.

لم يصدّق رينيه عينيه حين فتح الجريدة وقرأ التبليغ بالطلاق: «يُبلّغ السيّد رينيه غالينو دوارته رسمياً بالحضور إلى محكمة (ماسايا) المدنيّة، بعد خمسة أيام من النشر الثالث لهذا التبليغ، للإدلاء بأقواله بشأن دعوى **الطلاق** من **طرف واحد** المقدمة من السيّدة صوفيّا سولانو، تحت طائلة تسمية وكيل له في حالة امتناعه عن الحضور. المحكمة المدنية في (ماسايا)... »

حكت ثويلا، الخادمة التي حلّت محلّ پترونا، أنّ السيّد ضربَ بقبضته على الطاولة وراح يكرّر صارخاً: «يا عاهرة يا ابنة العاهرة»، «تباً للقحبة التي أنجبتك»، بعد أن نهض من الطاولة وألقى بالكرسي على الأرض ثمّ راح يضرب به الصحون التي على الطاولة، والحوض والمرآة والمنشفة التي علّقت عند مدخل غرفة الطعام، والستائر التي تفصل هذه عن الصالون... «حطّم كلّ شيء. أنا لم أفعل شيئاً غير التصليب والصلاة والدعاء ألّا يصل به غضبه إلى أن يحطّم كلّ شيء، لكنّي أظنّ أنّ هذا هو ما أراده: تحطيم كلّ شيء، لأنه ذهب، بعد ذلك، إلى غرفة الخياطة وحطّم كلّ ما فيها من أثاث».

لم يخطر ببال رينيه، على مدى سنوات عمره الأربع والثلاثين، أنّ في استطاعته أن يقتل مخلوقاً، بل لم يُقدم، يوماً، على ضرب صوفيّا، على الرغم من كلّ ما فعلته. أمّا الآن فإنّه لن يتردّد في قتلها لو أنّه ظفر بها! وكيف لا وقد تجرأتْ تلك الوقحة، ابنة القحبة، على فضحه أمام نيكاراغوا جمعاء، وتقديمه في صورة المغفّل على صفحات تلك الجريدة التي يقرأها الجميع في طول البلاد وعرضها! كان عزم، إن هي عادت، على أن يصفح عنها ويسوّي الأمر معها ويُسكنها في بيتٍ لوحدها، إن هي أرادت الانفصال، بعد أن بات الانفصال، مع دخول خيرترودِس في حياته، يناسبه: هي يمكنها العيشُ وحدها، إن كانت هذه هي إرادتها، بينما يذهب هو للعيش مع خيرترودِس، في مكان آخر، بلا مشاكل ولا فضائح. لكنّ موضوع الطلاق أمرٌ مختلف. فصوفيّا زوجته إلى الأبد، وإن عاش مع أخرى، وليس لأحدٍ أن يسلبه حقّه

فيها. لا شكّ أنّ الساقطة وجدت حبيباً، وإلّا، كيف لامرأة محترمة أن تطلب الطلاق؟ ومَن مِن النساء تطلب الطلاق غير العاهرة الساقطة المتورطة في علاقة خفيّة. ولكن، من عساه يكون ابن العاهرة ذاك الذي لم يتنبّه لشيء ولا يهمّه شيء؟ إنّها لن تراه، ولا في الأحلام، وقد ذهب إلى المحكمة ليكون أضحوكة القواويد هناك! ولترَ كيف ستحصل على الطلاق من دونه! منذ الثورة تلك والنساءُ يعتقدنَ أنّهن عملة ذهبية، وأنّهن حرّات مستقلات. يا لها من دعارة باسم القانون!

لا يدري رينيه كيف يعالج يديه، فأصابعه، التي تمزق جلدها، تؤلمه. هل كان ضروريا أن يقع له ما وقع، وهو مرتبط باجتماع عمل مهم في (ماسايا)؟ تصوّر وجوهَ معارفه، وتخيّل نظراتهم المتسائلة. سيقول إنّه أرسلها إلى كوستاريكا، في رحلة للتسوق كي تنسى وفاة والدها.

دخل إلى الغرفة ليغسل يديه ويبلل وجهه بالماء البارد. ما كان عليه أن يتزوج. لو أنّه غادر، في ذلك اليوم، الكنيسة لما وقع له كلّ هذا...

رنّ الهاتف فخفّ للردّ عليه. إنّها خيرترودِس، بصوتها الناعم.

- هل رأيتَ الجريدة، رينيه؟

- نعم رأيتُها.

قال بنبرة اللامبالي. وكيف له أن يُظهر للمرأة، التي أوقعها للتوّ في شباكه، عمقَ الجرح الذي أصاب كبرياءه؟ لكنّه سيدرك أنّ الحبّ هو ما أنار له قلبه وأنطق لسانه، فما أن سمع صوت خيرترودِس حتّى هداه تفكيره إلى تفسير هروب صوفيّا وبيان سبب ما سيلي من أحداث.

- غضبتْ لأنها تعرف أنّي أحبّكِ -قال لها، ووافاها برواية جديدة للأحداث: لقد غادرتْ صوفيّا ليلة اعترف لها، في لحظة صدق، بحبّه لخيرترودِس. أمّا ردّة فعلها فكانت ممّا لا يمكن تصوره، فقد كسّرت أطباقاً وحطّمت ديكورات، وتوعّدته بأنّه سيدفع الثمن غاليا، وبأنّها ستجعله أضحوكة في البلدة-. وهذا هو ما سعت إليه عن طريق طلب الطلاق - أضاف.

في تلك الليلة، دفع رينيه، في حانة پاتروثينيو، مشروبات الجميع. سكرَ

وأعلن، بأعلى صوته، «حقيقة» ما حدث، أعلن أنّه سيصبح الآن سعيداً فعلاً لأنّه سيتزوج خيرترودِس، زواجاً مدنياً، أولاً ثمّ في الكنيسة، حين تتم إجراءات فسخ الزواج في روما.

– يا له من مخادع –قالت دونيا كارمن لإنغراثيا–. وكأنّنا لم نرَ كم حزن، بعد أن تركته صوفيّا، وكم حطّم وكسّر، حين قرأ التبليغ في الجريدة...

– لكنّ الناسَ لن يلبثوا أن ينسوا ما حدث –قالت إنغراثيا–. وسيصدقون كلامه، ولن يلبثوا أن يقدّموا فروض الاحترام للبعوضة الميتة خيرترودِس.

تجلس إنغراثيا على الكرسي الهزّاز، تحت عريشة الوستارية الزرقاء في منزل دونيا كارمن، حيث الجو باردٌ على الرغم من حرّ منتصف النهار.

لقد خططت دونيا كارمن أن تذهب، في غدِها، مع صاموئيل، ليعودا بصوفيّا إلى عزبة (الإنكانتو). وعلى الرغم من أنّها حاولت أن تطمئن إنغراثيا، فقد كانت قلقة مثلها بسبب إصرار الفتاة على النزول من التلّة وعدم البقاء هناك، كما تقتضي الحكمة، لوقت أطول.

– كأنّها تريد أن تتحدى الجميع – قالت دونيا كارمن، التي راحت تدقّ بأصابعها على الطاولة، لأنّها تدرك معنى الشعور بهذه الحاجة، وتدرك صعوبة أن يكبح الواحدُ نفسه حين يكون شاباً، ولم يدرك بعدُ أن الجهلَ والظلم أقدم من الكفر.

– ما يتوجّب على صوفيّا –قالت– هو ألا تثير المشاكل، وأن تستقرّ في مزرعتها وتستمتع بالميراث الذي باركه دون رامون، من قبره. وليس من المستبعد ولا المستغرب أن تعثر قريباً على زوجٍ يسعدها. فقد باتت صاحبة مالٍ وعِقار. فلتنعم بحياتها ولتنسَ أمر الحاسدين، بعد أن جمعت جيمات النجاح الثلاث، كما كان يقال في زمننا: الجيب والجمال والجسد.

تضحك إنغراثيا، لكنّها ما زالت، في داخلها، تشعر بالحزن وتتطيّر.

أمّا من لم يستطع كتم فرحته فهي خيرترودِس. وهكذا حظي من حجزوا صباح ذلك اليوم للسفر إلى أوروبا والولايات المتحدة، عبر المكسيك وبنما، بلطف موظفة لا تكفّ عن الابتسام، وهي تجهّز التذاكر وتثبّت الحجوزات، وتتنقّل بخفّة ونشاط من هذا الجانب من المكتب إلى ذاك.

حين قرأتْ خيرترودِس التبليغ في الجريدة، أحسّت بالخوف. وتصوّرت ردّة فعل رينيه، لأنّها، مع ثقتها بأنّه ما عاد يحبّ صوفيّا، تعرف كم هو أنوفٌ، وتعرف مدى وقع تلك الضربة عليه. ظلّت متردّدة بين أن تتصل به أم لا، وفكّرت في ما يجب أن تقوله ليفهم أنّ ما حدث يصبّ في مصلحة الجميع. لم تتصوّر خيرترودِس أنّ أنفة رينيه الجريحة ستجد التفسير والتبرير لكلّ ما حدث بتلك السهولة والسرعة. لا بدّ أنّ شيئاً آخر حدث. فقد واجهت، حتّى أيام قليلة، صعوبة كبيرة في إخراجه من انغلاقه على نفسه ومن دورة كلامه عن صوفيّا وحديثه عن جحودها وغبائها، ناسياً أنّه يسيء بذلك إلى حبيبته الجديدة. لكنّ خيرترودِس كتمت غضبها وسايرته في مخاوفه، انطلاقاً من صداقتها القديمة بصوفيّا. «أشعر أنّي أصبحتُ مزيّفة وباردة»، قالت لنفسها. وبدأ يعتادها، في كلّ يوم، شعورٌ بالحقد والكراهية، وهو شعور جديد، لم تجرّبه من قبل. لقد صارت تتمنّى لو اختفت صوفيّا، وإلى الأبد، بل لقد تمنت لها الموت. ولكن، ما الداعي إلى كلّ تلك المشاعر؟، فكّرت. قد يتطلّب الأمر بعض الوقت، لكنّ الأمور ستتصلّح، وأمنياتها ستتحقّق، وهل في وسعها أن تطلب من السماء أكثر من ذلك؟

-21-

في كوخ شينتال، جلست دونيا كارمن وصاموئيل وصوفيّا يشربون القهوة.

يُسمع من بعيد عواءُ القرود متقطعاً، وعلى فروع الشجيرات وقفت خمسة طيور زرق تنظر إليهم. راحت دونيا كارمن وصاموئيل يعلّقان على موجة الإشاعات التي تسري في البلدة. بل إنّ هناك من قال إنّ صوفيّا تختبئ في الجحيم، نعم، في الجحيم، وإنّها هي من رتّب لوقوع أقرب صديقاتها في حبّ زوجها، لتتخلّص، هكذا، من الاثنين معاً. نظر صاموئيل إلى صوفيّا بطرف عينه. كلّما نظر إليها، تذكّر أحاسيسه تجاهها حين حملها على ظهر الحصان، ليلة استحضروا روح إيولاليا. ولم يجرؤ، احتراماً للصديقات، على التلميح للفتاة بشيء، لكنّه يرى أنّ من المناسب لها أن تتبحّر في سحر الجسد، لتعرف، هكذا، إن كان التمرّد فيها جينيّاً أم هو نتيجة الإحباط الذي أصابها من زواجها من المجنون رينيه. تحاول صوفيّا، بعيداً عن أفكار صاموئيل وذكرياته، إقناع الثلاثة بأن يرافقوها في رحلة عودتها إلى مزرعة طفولتها، لكنّ الثلاثة يصرّون على أنّ رؤية الناس لها، عائدة بصحبة عتاة السحرة في المنطقة، ليس في مصلحتها.

– ما عدنا، ونحن في هذه السنّ، قادرين على السفر في قافلة الملوك المجوس ([1]) هذه – ختم صاموئيل كلام الثلاثة.

– لكنّكم أصدقائي، وهم يحترمونكم – قالت صوفيّا.

---

1 –. أو الملوك السحرة Reyes Magos. وهم الذين توجهوا إلى بيت لحم، مستدلين بنجمة الشرق، لكي يشهدوا ميلاد السيد المسيح.

– يحترموننا حين يناسبهم، حين نحلّ مشاكلهم... وحينها لا يهمّهم أن نكون سحرة، لكنّهم قد يعيّروننا بذلك، وبالسهولة ذاتها. يمكنني مرافقتك، إن شئتِ – تطوّع صاموئيل.

– من الأفضل أن ترافقها كارمن –تدخلت شينتال، وأكّدت أنّ لا داعي للقلق. فقد رأت صوفيّا في بركة الماء الساخن ترتدي ثياب ملكة، وتتحكّم برقابٍ وقلاع–. برجك هو الذهب –قالت لها–. وبالذهب تستطيعين لجم كلّ الأفواه.

حين وجدت صوفيّا أنّ إصرارها لم يُجدِ نفعاً، ذهبت إلى غرفتها وحملت حقيبة الخيش التي خرجتْ بها من منزلها قبل شهر.

في باحة الدار، تحت شجرة السامانيا، عانقت شينتال الفتاة. بللتْ يدها ومسحت بها على وجهها. ثمّ طلبت منها أن تغمض عينيها وتتخيل نجمة ثمّ ترسم دائرة في الهواء. عليها، بعد ذلك، أن تفتح عينيها وتعبر الدائرة.

– النجمة ستحميكِ – قالت لها، ثمّ ضربت بيدها على الشجرة. فزعت الطيور الزرق وراحت تحلّق في دائرة، فوق الخيل، بينما كانت صوفيّا ودونيا كارمن تهمّان بركوبها. انطلقت المرأتان ولم تلبثا أن اختفتا نزولاً في الطريق.

راقب صاموئيل انطلاقهما، وهو يطيل النظر إلى تقوّس وركي صوفيّا اللذين استقرّا على صهوة الحصان.

تركت صوفيّا لحصانها حريّة أن يضبط إيقاع سيره عبر المسالك الممتدة على أرض البركان التي بللها المطر حتّى باتت زلقة خطرة. إنّها لتشعر بالحزن لمغادرة تلك البقعة المشجرة، التي تقف، بخصوبتها وخضرتها وجمالها، على طرف النقيض من جفاف روحها وعُقم داخلها. تسأل نفسها عمّا ينتظرها وعمّن؟ وتردّ على نفسها بأنّ العديدين من عمّال (الإنكانتو) يعرفونها، منذ أن كانت طفلة، وسيخدمونها، احتراماً لعلاقة تدوم العمرَ كلّه، ووفاءً لدون رامون وذكراه. أمّا الذين لا تستطيع أن تحكمهم بالمودّة فستحكمهم بالمادة، كما قالت شينتال، ومَن ذا الذي يرفض، في أوقات الفقر والحاجة هذه، الأجر الذي قرّرتْ دفعه لكلّ عامل منهم؟ بل إنّ عدد الذين سيغامرون بالتحول إلى ضفادع وثعابين سيفوق المطلوب، بعد أن يسمعوا بالأجر المدفوع، متجاهلين

شعوذتها المزعومة وتوافقاتها الموهومة مع الشيطان، بعد أن شيطنوها منذ أن كانت طفلة. تبتسم صوفيّا وتتحمّس في داخلها وتزداد تصميماً على تجاوز أيّة عقبة تضعها أمامها (ديريّا) المنافقة، التي تتعاطى بالسحر وترفضه. ستعيش سعيدة في العزبة، فهي تمنّي نفسها وتسلّيها متخيّلة منزلها الكبير القديم وقد طلته ورتّبته بأثاث من الخيزران ستأمر بجلبه من (ماساتيپه) وغرناطة. ثمّ تواصل السفر مع خيالها، فتتصوّر الشاحنة وقد وصلت إلى المزرعة، تحمل الكراسي والطاولات، ثمّ تدرك، في ومضة تشبه تلك التي تشعّ في دماء الحكماء لحظة الاكتشاف العظيم، أنها لن تحتاج إلى من يختار الأثاث نيابة عنها، بل ستذهب بنفسها للبحث عنه ورؤيته ولمسه والمساومة على سعره. ستذهب إلى ماناغوا وإلى أيّ مكان تشاء، فما عادت هناك من أسوار، ولا رينيه، ولا فرناندو، الذي يغلق دونها الأبواب.

تجرّ نفساً عميقاً. إنّها غير قادرة على تمالك نفسها من الراحة والفرح.

– عجباً، يا ابنتي، ماذا جرى لك؟ – التفتت دونيا كارمن فرأت صوفيّا كما لم ترها منذ وقتٍ طويل: باسمة مشرقة، وهي تمرّ بين ظلال الأشجار. وتذكرت تلك الفتاة التي رأتها ترقص، كالمجنونة، في باحة تجفيف القهوة، يوم نجاحها في البكالوريا.

– لن يحبسني أحدٌ بعد الآن! لن يتحكّم أحدٌ بعد الآن بقراري –قالت صوفيّا–. سأكون حرّة.

لم تتوصّل إلى تلك النتيجة إلّا حين فكّرت في الكراسي التي ترغب في شرائها. ستخرج وحدها وتختارها بنفسها. ولن تضطر، بعد الآن، إلى انتظار عودة پترونا بمساطر القماش لتختار ما يعجبها منه. هي من سيصلح المنزل، وهي من سيتكفّل بالطلبات.

– حذارِ، بنيّتي. حتّى الحريّة تستدعي منّا أن نُحسن التحكّم بها – نبّهتها دونيا كارمن.

ها قد بلغتا الطريق. وها هما تمرّان من أمام البيوت الوردية والخضر والصفر. يلاحظ الناسُ الفرحة على وجه الغجريّة، وهي تنزل من التلّة، بصحبة دونيا كارمن الساحرة.

وما هي إلّا أيام حتّى اتضحت معالمُ الانقلاب الذي أحدثته صوفيّا في العزبة، بعد أن ظلتْ كما هي منذ وفاة دون رامون.

راحت نساءُ العمال، بعد تردّد، ينظفن أرضيّات المنزل الكبير، ويُزلن خيوط العنكبوت التي علقت بسقوفه، بعد أن وعدتهنّ بأجورٍ تضاف إلى أجور أزواجهنّ. وبدأ النجارون يغيّرون السقوف والعوارض الخشبية التي أكلتها الرطوبة، بينما راح الصبّاغون يجدّدون دِهان الجدران ويطلونها بالأزرق السماوي.

قصدت صوفيّا (ماسايا)، في أول رحلة للتسوق، وعادت منها بأقمشة للستائر والأغطية والمفارش ومشبّكات الدانتيل. وعلى الرغم من نصائح دونيا كارمن، التي ما انفكّت تحذّرها من حمّى الشراء، وإن ساعدتها وتسلّت بصحبتها، وعلى الرغم من نصائح إنغراثيا بشأن تكديس الأثاث والأسرّة وكراسي الخيزران، فقد انساقت وراء رغباتها في أداء دور مصممة الديكور الهاوية، وراحت ترمي من المنزل بكلّ كرسي مكركب وطاولة مقلقلة. «إنّها *أنتيكاتٌ، تحف!!*»، قال فاوستو معترضاً، لكنّ صوفيا مضت قدماً في عمليّة التجديد الكامل. وشاع في البلدة أنّ صوفيّا ترمي بالأثاث، فخفّت إلى البيت أكثرُ من واحدة من اللاتي أقسمن، ذات يوم، ألّا يكلمنها، يطلبن منها أن تهديهنّ ما لم يعد نافعاً في نظرها، فهنّ كفيلات بإصلاحه واستخدامه لسنوات أخرى.

ووقع جدالٌ وعراك في العديد من الحانات: كان أبطالها عمّال (الإنكانتو)، الذين بدوا مستعدين للردّ على كلّ من يذكر سيدتهم بسوء. وأيّ واحد من العاملين في المزارع المجاورة يكسب ما يكسبون؟!

– أنتِ شيطانة –قال لها فاوستو–. لقد اشتريتِ الجميع.

– هذه أسهل طريقة وأضمنها لكسب الآخرين –أجابت–. ومن ذا الذي يرفض العمل عند الشيطان، إذا كان الشيطانُ يدفع جيداً؟

حتّى فاوستو، الذي تعب من مسعاه لتعديل مسارات الثقافة الوطنية، تخلّى عن نضاله في صناعة الأفلام، وقبل بعنوان «مدير المزرعة» المشرّف، متعهداً لصوفيّا بأنّه سيؤدي دورَ الرجل الصارم، وبأن يغلظ صوته، لكي يحترمه الفلاحون، الذين لا يقيمون لحقوق المثليين وزناً.

– بلوجينز وقميص –نبّهته صوفيّا–. واترك قمصان التمساح ليوم الأحد.

وقبض دون برودينثيو أتعابه، بعد أن انتهى من إجراءات الإرث، وباشر بإجراءات الطلاق. سلّمته الشيك مرفقاً برسالة شكرته فيها على إخلاصه وأبلغته باستغنائها عن خدماته.

– لن أواصل الدفع له عن نظراته المعترضة التي ينظر بها إليّ – قالت.

عرض عليها فاوستو، الذي لم يكن، هو أيضاً، يهضم المحامي العجوز، أن يبحث لها عن محامٍ آخر.

«وما أكثرهم!»، قال.

كان من بين ما وضعت صوفيّا في بالها سيّارة جيب جديدة وسائق.

– دانوبيو يسوق على البركة. أمّا عمّال هذا البيت، فمجموعة من المستّين.

راح سكّان المناطق المحيطة يعلقون على ما يحدث في عزبة (الإنكانتو). وكانت (باتروثينيو)، حاملة لواء ألسنة السوء، لا تكفّ عن توجيه الجميع إلى أن يحذروا وألّا يُخدعوا. وكيف يفوتها أنّ كلّ ما جلبته الغجريّة من أثاث ودفعته من أجور هو ثمرة حلفها مع الشيطان. ولن تلبث أن تخرج علينا ببطن عالية وبوصفة المسيح الدجّال.

لكنّ الناس في (ديريّا) لا يعتاشون على السحر فقط؛ وهكذا انتصر منطقُ صوفيّا، وظهر من بين صفوف المُشهّرين من التزم الصمت وراجع نفسه، فكيف لمالكة (الإنكانتو) أن تضرّهم إن كانت تشتري منهم قسماً من محصول الحبوب أو تستأجر منهم الثيران لحرث الحقول. حتى قصّة الحبّ بين رينيه وخيرترودِس لم تعد تستهويهم، بعد أن غطّت عليها قصص المكاسب الاقتصادية التي سيجلبها سخاءُ صوفيا وثروتُها الجديدة لكلّ من يعمل عندها.

ولا شكّ أنّ خيرترودِس تمنّت لو أنّها ظلّت صديقة لصوفيّا حتّى تتمكن من زيارتها وتعاين الأعاجيب التي يقال إنّ (الإنكانتو) باتت تضمّها.

– في الصالون ثلاثة أطقم من الأثاث –قالت بيرونيكا– وفي غرفة

نومها ناموسية من الدانتيل، وقد جاء على بالها أن تضع دوشاً في الحمّام، وترصفه بالخزف، مع مرحضة للتبول، جاءوا بها من ماناغوا، يقول فاوستو، إنّهم يسمونها بالفرنسيّة « *بيديه* ». كما أنّها اشترت طناجرها من دون پاسكوال، ولو رأيتِ كيف هي الحديقة الداخلية. يبدو كأنّها نقلت الـ (مومباچو) إلى بيتها! لقد صنعت هذه المرأة مملكة استقرت فيها ونصَّبت نفسها ملكة عليها. كلّ هذا وهي لم تنفق بعدُ ولا نصف ثروة دون رامون. يقول دون پروديثيو إنّ من المستحيل علينا أن نتخيّل مقدار الثروة التي جمعها ذلك الرجل في حياته. هو لم يذكر، من باب الأمانة المهنية، كم هي ثروته، لكنّه قال إنّها طائلة...

– هل تلاحظين –علقت خيرترودِس، في لفتة حق،– هل تلاحظين أن الموضوع لا يتصل بالشيطان؟

ولا تبدو بيرونيكا مقتنعة بهذا الكلام، لأنّها ترى أنّ من ينفق بهذه الطريقة إنّما يرتكب خطيئة!

أمّا مع رينيه، فلا تستطيع خيرترودِس أن تورد لصوفيّا ذكراً. فعلتها مرّة واحدة، لكنّه، ما إن بدأت بالحديث عنها، حتّى انفجر في وجهها صارخاً، فهو لا يريد أن يُذكر اسم تلك المرأة أمامه...

-22-

ما من مهربٍ لرينيه من أن يُذكر اسمُها أمامه. فقد أمرتْ محكمة (ماسايا) بتعليق التبليغ باستدعائه حتى على جدران كنيسة البلدة؛ وأرسل إليه القاضي من يأمره بالمثول شخصياً، أو بإرسال من ينوب عنه. أصرّ هو على عدم الذهاب إلى المحكمة، وأرسل فرناندو نيابة عنه.

– ابن العاهرة هذا ورائي ورائي –شكا فرناندو لزوجته–. طوال سنوات وهو يكلّفني برعايتها، وها هو الآن يكلّفني بطلاقه منها.

في المنزل الكبير، رتّبت صوفيّا غرفتها، حين كانت فتاة عزباء، وجعلت منها مكتبها ومقرّاً لنشاطها. في وسط الغرفة، وُضعت منضدةٌ دون رامون، قطعة أثاث قديمة، من خشب الماهوجني، لها قوائم محفورة، وعددٌ كبيرٌ من الدروج. ووُضع قبالتها كرسيان هزّازان، وطاولة عليها شرشف مُطرّز. تحت النافذة، وُضعت ماكنة الخياطة. وفي إحدى الزوايا، طاولة مستديرة عليها شراشف تلامس الأرض، وزينة ومزهريات، أمّا في الزاوية الأخرى، فقد صُفّت خُزُن الأضابير المعدنية. عُلّقت على الحائط صورة قديمة لدون رامون، مؤطرة بإطار ذهبي. وهكذا، بدا المكتب، على العكس من بقيّة أنحاء المنزل «المجدد»، مزيجاً من قديم وحديث، من متعلّقاتٍ نسويّة وأخرى رجاليّة. يطلّ البابُ المفتوح على الباحة.

جلست صوفيّا على مكتبها، تراجعُ أوراق الطلاق التي تركها دون پاسكوال. ستُعقد جلسة المحاكمة خلال أيام، بينما فاوستو يوشك على العودة من ماناغوا، برفقة المحامي.

لا تبدو اللغة القانونية المستعملة طبيعيّة ولا منطقية، كلام ومصطلحات

وكليشيهات للتعبير عن فكرة بسيطة: عقد الزواج فقدَ معناه، لأنّ أحد الطرفين يريد فسخه. ولكن، ما كان لصوفيّا، قبل صدور **قانون الطلاق من جانب واحد**، أن تتكلم عن طلاق. كانت ستضطرّ إلى أن تثبت أنّ رينيه يضربها أو يخونها. وحين طُرح القانون في الجمعيّة الوطنيّة، قرأت في الصحف تعريفهم للزنا فوجدته سخيفاً ومثيراً للضحك، فالرجلُ لا يُرمى بالزنا إذا لم يستطع من يرميه به أن يمرّر بين جسمه وجسم المرأة التي مارس الزنا معها، خيطاً، وهو ما سمّاه العامّة بـ «اختبار الخيط»، ووصفه المحامي، صاحبُ الوجه المنمّش والشعر الأسود، الذي ظهر على شاشة التلفزيون لشرح القانون، بأنه «مهزلة قانونيّة». وكما يحدث دائماً، فقد كان القانون أقسى على النساء منه على الرجال، ولذلك سعت النساء إلى أن يُمرّر القانونُ الحالي، الذي ينص على أن الزواج عقدٌ طوعي، يمكن فسخه، عند رغبة أحد الطرفين، عن طريق إجراء قضائي لتحديد حضانة الأطفال، وتقسيم الأملاك، وسوى ذلك من المسائل. ولمّا لم يكن لديها ما تقتسمه مع رينيه، فستتم الإجراءات على نحو أسرع، كما قال دون پاسكوال.

يُطرق على الباب. يدخل فاوستو وخلفه رجلٌ ذو وجه طفولي. طويل ونحيف، له بياض شاحب وشارب أحمر، لا يكفّ عن لمسه. خشيت صوفيّا، للحظة، أن يكون فاوستو تعاقد مع محامٍ من جماعته، لكنّها استبعدت الفكرة لأنّها طلبت منه أن يأتيها بمحامٍ يطابق تصوّرها وأن يكون قادراً على كسب الدعاوى في المحاكم، حيث الغَلبة لمن هو أعلى صوتاً.

– خيرونيمو خبيرٌ في دعاوى الطلاق والحالات المستعصية – أضاف فاوستو، بعد الانتهاء من التقديم.

لكنّ خيرونيمو لم يكن خبيراً في دعاوى الطلاق، وإن كان وُكّل في القليل منها. إنه يفضل الدعاوى الأقل تعقيداً، حيث لا تغوص القوانينُ في تربة المشاعر الرمليّة. أمّا سمعتُه فقد اكتسبها من دعاوى تسجيل الشركات وسرعته في الإجراءات بفضل العلاقات التي أقامها وأدامها وفق آلية متميّزة قوامها المجاملات والدعوات. مع ذلك، فقد دفعه ولعه بعلم النفس إلى تولّي دعاوى الطلاق «الصعبة»، التي تسمح له بالاطلاع على مدّ المشاعر الإنسانيّة وجزرها. لقد اهتمّ خيرونيمو بحالة صوفيّا وتابع تفاصيلها، منذ أن

أحاطه فاوستو -الذي يعرفه من خلال ولعهما بالأفلام- علماً بها، ولم يتردّد في قبولها حين اقترح فاوستو ذلك عليه. لقد شعر خيرونيمو بالفضول بشأن موضوع «الغجرية»، وها هو ينظر إليها محاولاً اكتشاف علاماتٍ غامضة في وجه المرأة، التي راحت تنصتُ إليه باهتمام وهو يوضّح الإجراءات القضائية.

قال خيرونيمو إنّه لا يتوقع تعقيداتٍ كبيرة، إذ لا يوجد أطفالٌ ولا أموالٌ مشتركة. وفي مثل هذه الحالات، يصدر القاضي حكمه بعد التأكّد من أنّ لا سبيل إلى الصلح بين الطرفين وأنّ الطرفَ المُدعي ليس على استعداد للتراجع عن قراره. سأل صوفيّا إن كانت تريد المطالبة بشيء من منزلها القديم.

- لا شيء غير ثماني سنوات من عمري - قالت.

تدخّل فاوستو ليذكّرها بالشراشف المطرزة والمفارش البديعة التي اشتراها هو من بلجيكا من مال دون رامون، لكنّها رمقته بنظرة ابتسم لها المحامي، الذي يعرف مدى اهتمام فاوستو بتلك التفاصيل. أخبرهم خيرونيمو بأنّ فرناندو سيمثل رينيه في المحاكمة، فتخيلت صوفيّا آخر مواجهة لها مع ناظر المزرعة. ستسعد برؤيته جالساً على الكرسي، قريباً منها، ولكن دون لجام يمسك به. لقد كره أحدُهما الآخر، بمرور الوقت، ربّما لأنّ كليهما صار يشعر، بعد تلك العلاقة الغريبة، الشبيهة بعلاقة السجّان بسجينه، بانجذاب مريضٍ نحو الآخر.

راحت صوفيّا تراقب المحامي وهو يدوّن ملاحظاتِه في دفتره الصغير. ولاحظت أنّه شخصٌ منظم. حين فتح حقيبته، استطاعتْ أن ترى دفاتر وأقلامَ رصاص رتّبت بعناية، بل رأت منديلاً ناصع البياض مطوياً فوق الأوراق.

وانتهت الزيارة بموعد للالتقاء عند باب محكمة (ماسايا)، بعد يومين، موعد جلسة الصلح.

- سأودّعه عند الباب - قال فاوستو.

- ما أجملَ صديقتك - قال له خيرونيمو، وهو يلمس شاربه، بعد أن بات الاثنان خارج المنزل، في الطريق إلى السيارة.

ابتسم فاوستو واستغرب أنّه لم يدقق يوماً في هيئة صوفيّا، ولا في ملبسها، ولم يلاحظ أنّها لا تضع المساحيق على وجهها. وتذكّر كيف أنّه ما كان يكفّ، قبل زواجها، عن إعطائها نصائح عن التجميل، بل لقد ظنّ، في وقت من الأوقات، أنّه ربّما يُغرم بها. كان ذلك من وقتٍ بعيد...

– أعجبني ما قالته. –وحاول خيرونيمو أن يقلد نبرة صوفيّا وهي تتلفظ بتلك العبارة–: «لا شيء غير ثماني سنوات من عمري». ما أجمل ذلك. أراكم الخميس – أضاف وهو يركب السيارة.

– چاااااااو – ودّعه فاوستو.

في ساعة الغداء، تحدّث فاوستو وصوفيّا عن مشاريعَ لتنويع المحاصيل وزراعة الزهور وإعادة تأهيل حقل كاكاو مهجور في (موماچو)، وتصدير إنتاجه إلى كوستاريكا. على طاولة الطعام مفرشٌ من النايلون، نُقشت عليه زهورٌ بارزة، وكان فاوستو لا يستذوقه، بينما تدافع صوفيّا عنه لأنّه سهلُ التنظيف. وتأتي پترونا، محمّلة بالأطباق والتورتيّا وإبريق الشراب المرطّب، جيئة وذهاباً بين المطبخ والغرفة المجاورة للحديقة، حيث أقامت صوفيا غرفة الطعام.

– يقول خيرونيمو إنكِ جميلة – قال فاوستو، وهما يأكلان الرزّ بالحليب، بعد الغداء. وأضاف، كمن يكلّم نفسه، أنّها باتت بالنسبة إليه كأخته، وما عاد يهمه أن يراها ببناطيل الـ *بلو* جينز المتسخة، أو بقمصانها الرخيصة التي ترتديها في العادة.

منذ زمنٍ وصوفيّا لا تهتمّ بمظهرها. صحيح أنّها اهتمّت بنفسها حين كانت مع رينيه، وخصوصاً حين كانا يذهبان إلى قدّاس في الكنيسة أو يحضران اجتماعاً في البلدة، لكن ذلك الزواج أفقدها كلّ رغبة في التزيّن، وصارت تفضّل ألّا يرى رينيه فيها امرأة، ليقلّلَ هكذا من تقرّبه منها، ويقصر مواقعتها على الليل. بل ما عادت تتذكّر أنّها امرأة. ولولا نظراتُ أصحاب المزارع الأغنياء، الذين ما فتئوا يذكرونها بأنّها ليست أكثر من أنثى، وأنّ رأس مالها الأكبر هو جسدها، لنسيتْ موضوع الجنس تماماً. وهل نفعها جمالها إلّا لكي تتورّط في ذلك الزواج غير الموفّق؟

– علينا أن نذهب إلى ماناغوا، لكي تشتري بعض الملابس وبعض المكياج –اقترح عليها فاوستو–. وعليكِ أيضاً أن تفكري في كريمات للبشرة. تذكّري أنكِ ناهزتِ الثلاثين.

في حالة من التداعي، تتذكّر صوفيّا، حين تكون لوحدها، إستيبان. تذكرت أنّه يعمل في محكمة (ماسايا). هي لا تريد أن تعرف من هو، ولا تريد، بالطبع، أن يسمع باسمها ويحاول التحدّث إليها. ومع أنّ الاحتمال في أن يلتقيا ضئيل، فإنّ صوفيّا طالما آمنت ببراعة الحياة في ترتيب الصدف وتدبير المصادفات. لا شكّ أنّها ستخجل من النظر إلى وجهه، إذ تتذكّر التفاهات التي قالتها له على الهاتف. صحيح أنّها لم تفكّر به منذ أن قرّرت القطيعة معه، حتّى بات ذلك جزءاً من طفولة تلاشت، لكنّها لم تفقد الحنين الذي ما زال يظهر لها، من وقت لآخر، في صورة أحلام وكوابيس ترى فيها إستيبان في زيّ غجريّ ينتشلها من بين ألسنة نيران مستعرة.

لكنّ أحلامها الرومانسية، ونداءات جسدها، لم تحملها إلّا إلى أقصى حالات البرود. بل ما عادت ترغب حتّى في الذهاب إلى الحمام ومداعبة جسدها، كما كانت تفعل قبل وفاة دون رامون، وقبل أن تنشغل برسم خطة الهرب من منزلها. فقد وجدت شغلها الشاغل في تنظيم العمل في المزرعة، وصارت تجد في حساب العوائد والموارد، معنى حسياً ومنشطاً، كالذي تُحدثه طقوس السحر التي تعلمتها من شينتال. وكان من تطبيقها تعليمات شينتال أيضاً، أنّها صارت تشرب كوباً من الماء المبرّد ليلاً، عند السادسة من مساء كلّ يوم. تشربه في غرفتها، بجانب شمعة مضاءة، قبل أن تؤدي طقوس الليل، حين تستلقي على جلد بقرة ناعم، لمدة ثلاث عشرة دقيقة، محدقة في نجمة، قبل أن تخلدَ إلى النوم.

في كلّ ليلة، ترى تيريسا، زوجة الناظر خوسيه، وهي في مكمنها، بين شجيرات الزهور التي تفصل بيتها عن بيت المزرعة، السيّدة تخرج، وهي تجرّ جلد البقرة، نحو الباحة المواجهة لبيتها. تبسط الجلد، وذراعاها متقاطعتان، وهي تحدّق في السماء. لم تخبر تيريسا أحداً بشيء، ولا حتى زوجها، لأنّه كان يوبخها كلّما سمعها تلمّح إلى أنّ السيدة ساحرة، أمّا هي فقد كانت متأكدة من ذلك. تكلّم پترونا، فتحاول هذه إقناعها بألّا تشغل

نفسها بذلك، وبأنّها خدمت السيدة، سنوات عديدة، حين كانت زوجة دون رينيه، ولم تلحظ ما يثير الريبة والاستغراب، مع ذلك، تخشى تيريسا أن يهبط الشيطان عليها يوماً، كما تقول پاتروثينيو، ويتركها حبلى، وهكذا تحلّ اللعنة على (ديريّا)، ويتلطّخ اسمها إذ باتت مهدُ **المسيح الدجال**. ولهذا جعلت تيريسا من مراقبة الطقوس الليلية لصاحبة المنزل واجباً مفروضاً، وصارت لا تذهب إلى فراشها، حيثُ الزوجُ غارق في نومه وشخيره، حتى ترى صوفيّا تدخل المنزل، وحتّى لا تشهد ريحاً صَرصَراً ولا وميضاً ساطعاً يعلن عن وجود الشيطان.

وحدث أنْ رأت تيريسا، ذات ليلة، صاموئيل، يخرج من بين الأحراج. لاحظت خوفَ صوفيّا، في البداية، ثمّ شاهدت الاثنين يسيران بعيداً، وسط الأحراج، كأنّهما قطط تتلمس طريقها وسط الظلام.

لم يؤمن صاموئيل قطّ، لا بوصفاتٍ سحريّة للحبّ ولا لعلله. ما كان يؤمن إلّا بنفسه. ولم يكن ما يهمه من صوفيّا حبّها، بل جسدها. إنه على يقين من أنّ ذلك الجسد لن يتجاهل نداءات الرغبة، لذلك عزم على الذهاب إلى (الإنكانتو). وصل ليلاً، فالليل هو الوقتُ الذي يناسبه. ووجد صوفيّا مستلقية على جلد بقرة.

- باركتكِ هالاتُ النجوم - حيّاها.

فزعت صوفيّا، للحظات، لكنّها انحنت، حين رأت صاموئيل، وابتسمت.

- لقد أفزعتَني -قالت له-. أيّة معجزة أتت بك إلى هذه الأنحاء!

- أنا أعيش على المعجزات. كنتُ أسير في هذه النواحي، أبحثُ عن بعض الأعشاب التي تتفتح في الليل، وخطر ببالي أن أزورك.

- هل ترغب في الدخول؟

- بل أسألكِ إن كنتِ ترغبين في مصاحبتي. الرياضات التي تقومين بها جيدة، ولكن، يمكنني أن أعلّمك خيراً منها، يمكنني أن أعلمكِ أن تري الأشياءَ عن طريق حرق بعض الأعشاب.

نهضت صوفيّا ونفضت ملابسها. أحسّت في كلام صاموئيل بوعدٍ يجذبها وممنوعٍ يثيرها. في كلامه شيء يخيف، لكنّ ما يجذبها به أكبر.

سارا جنباً إلى جنب، وضوء القمر ينير لهما الدرب، ودخلا بين الأشجار المقابلة للمنزل، في طريقهما إلى حقول الزهور.

سار صاموئيل صامتاً، يسعى إلى أن يوصل، بجسده، مجسّات رغبته اللامرئيّة، كي تشعر بها صوفيّا وتنساق إلى إغوائه.

وراحت هذه تراقبه، وهو يسير مطأطئ الرأس، يضرب بعصاه على هذه الشجيرة وتلك، وقد فتح قميصه، فوق سروال كاكي فضفاض، رُبط حول خصره بحبل، وبدت ذراعاه المفتلوتان القويتان، وقد انعكس عليهما ضوءُ القمر النحاسي.

تذكرت صوفيا كيف أنّه ضربها، وكيف دعاها «شيطانة». لكنّها غفرت له ذلك، بعد أن تعزّزت علاقتها به وبشينتال ودونيا كارمن، وبعد أن حلّوا منها محلّ الأهل والأقارب. ثمّ إنّ كونهم سحرة، وصلتهم بالسحر، يجعلان منهم كائناتٍ خاصة في البلدة، ويسهّلان التماهي الذي عقد بينها وبينهم. لكنّ العلاقة الحميمة، القريبة من علاقة أم بابنتها، التي كانت تربطها بالمرأتين، لم تكن موجودة في حالة صاموئيل. وحين استحضرت التجربة المثيرة التي عاشتها مع صاموئيل، حين ركبت خلفه على ظهر حصانها، لم تجد فارقاً بينه وبين فرناندو، فكلاهما، مع حفظ الفارق، رجل.

– سمعتُ أنّك ستطلقين رينيه...؟

– نعم.

– ألم تخونيه قطّ؟

– بأفكاري فقط، عدة مرّات.

– هل ترين هذه الزهرة؟ إنّها خشخاشة برّية. إذا أحرقتِ تويجها انبعثت منه أبخرةٌ تنقلك إلى أزمنة لطيفة طيبة –يشير صاموئيل إلى مجموعة زهور برتقالية شاهدتها صوفيّا بأعداد كبيرة على طول مسالك المزرعة. ينحني الرجل ويقطف كمية منها ويحشرها في جِرابٍ يتدلّى على كتفه–. هذا هو الصبّار. تعرفينه، أليس كذلك؟ إنّه ينفع للشعر والبشرة وأشياء أخرى كثيرة.

– أريدُ أن أشعر بما يحدث حين تحرق تلك الأعشاب.

أشار لها صاموئيل أن تواصل السير على ذلك الدرب. بحث بعينيه عن مكان مناسب لإشعال النار وإغواء صوفيّا. ثمّ انحرف أخيراً إلى أحد المسالك، ووصل إلى شجرة (غواياكان)، كان كأسها السفلي يشكّل ملاذاً صغيراً.

– هنا –قال صاموئيل. كسر بعض الفروع، ثمّ صفّها على الأرض، وأشعل النار فيها. جلست صوفيّا بالقرب من النار. ورأى صاموئيل وجهها مضيئاً، من أثر اقتراب اللحظة ومن أثر الفضول، فأخرج من جرابه الأزهار التي كان قطفها–. تقرّبي مني – قال لها.

تقرّبت صوفيّا منه، فتحرّكت بينهما تيارات عميقة، وجدت في الليل والقمر والنار ما يغذّيها.

ألقى صاموئيل بالزهور على النار ودعاها إلى أن يستلقيا معاً ورأساهما قريبان من النار، في اتجاه هبوب الريح، لكي يصلهما الدخان محمّلاً بالأبخرة.

أطاعته صوفيا. وما إن استلقت على الأرض، حتّى شعرت بإثارة تفسح لإحساس بالراحة. وما كان أعظم إحساسها والأرض تحت ظهرها والقمر يطلّ من بين أوراق الشجرة التي ترسم في الظلّ أشكالاً سوداً. رقد صاموئيل إلى جانبها. فشعرت بنفَسه القوي، ويده العريضة الخشنة، تبحث عن يدها. تركت له يدها وأغمضت عينيها، بانتظار أن تجرّب الأحاسيس التي تنبأ بها.

وضع صاموئيل يده على ذراع صوفيّا، وراح يحرّكها صعوداً ونزولاً. شعرتْ هي بقشعريرة خفيفة انطلقت من صدرها، وراحت تبعث فيها الخدر. لقد مضى وقت طويل منذ أن تلقّت مداعبات من أحد. لم يداعبها أحدٌ من قبل بهذه النعومة. ما قاله صاموئيل صحيح، إنّها تشعر بالخفّة، وتحسّ بحرارة زهور تدخل في عروقها وتنزل نحو سُرّتها. أغلقت عينيها، تاركة ليدي صاموئيل أن تصعدا حتّى كتفيها ورقبتها وحدود جبهتها وأعماق شعرها المجعد. ما عادت تشعر بخشونة في ملامسته، فقد انقلبت يدا صاموئيل فراشاتٍ عمياء ترفرف فوق أنحاء جسدها. ومن دون أن تفتح عينيها، طاوعت الرجل وهو يثني ظهرها لينزع قميصها؛ وعندها، بدأت الفراشات

ترفرف فوق ثدييها العاريين. وحين نزع تنورتها، استعرت حرارة جسدها وباتت كحرارة النار التي أضرماها، وحين فتحت عينيها، بدا لها صاموئيل جميلاً ولونه نحاسياً، عارياً، وهو يجردها من آخر ما بقي من ملابس. حطّت الفراشات على سَوْءَتها، فباعدت ما بين ساقيها، وبدت متلهفة إلى ما يلج في أعمق أعماقها. مع ذلك، استمرّ صاموئيل يحرّك يده، ويعمل الأعاجيب، مضاعفاً حركاتها، حتّى بدا لصوفيا كأنّ جداجدَ ويراعاتٍ ترقص معه في عربدة الفحول تلك، بل كأنّ مخلوقات الليل جميعها تضاجعها. وأخيراً، أحسّت بذكر صاموئيل يلج فيها، قوياً، ساخناً، يبعث فيها الراحة، ولا يضايقها، كما كان يفعل عضو رينيه الضخم. ما عادت، لحظتها، تشعر إلّا بحركة سلسة من ذلك الجسم الذي راح يمنحها متعة لم تعرف لها نظيراً. ويجدّ الرجلُ في الغوص، ليفتح عينيها على عالمٍ ما كان لها أن تتصوّر وجوده، منفردة. تتأوه صوفيا وتتحرك لتساهم في ذلك البحث الأعمى عن النقطة السحرية التي ستفجّر سدود المياه التي تصعد باحثة عن مخرج. ما عاد لشعلة النار من وجود، وباتت الظلمة أشدّ وأكثف.

زاد لهاثهما، وزادت غمغماتهما، حتّى شعرت صوفيّا كأنّ بطنها زهرة تفتحت بتلاتُها أمام حبوب لقاحه، وبلغت مدقتها نشوة الجماع، بين صرخات اللذة التي راحت تصدر من كليهما.

– كنتُ أعلم أنّ ناراً تستعر في داخلكِ –قال صاموئيل، حين استلقيا على العشب، بلا حراك–. كان يلزمكِ أن تعلمي ذلك. ستشعرين غداً، ربّما، بالغثيان والنفور، لأنّي كنتُ أنا من ساعدك على اكتشاف ذلك، لكنّ ما يهمّ هو أنّكِ بتِ تعرفين به، وبتُ أنا أيضاً أعرف به.

– هل سحرتني بهذه الأعشاب؟ – قالت صوفيّا، وقد بدأت تدرك ما حدث.

– لم تكن الأعشاب –أجابها صاموئيل–. تلك الزهور ليست إلّا زهوراً. بل كنتِ أنتِ، وكنتُ أنا. ولن يتكرر ذلك ثانية، لأنّي أعلمُ أنكِ ستكرهينني وتتصورين أنّي ساحر. لقد عرفتكِ، أيّتها الغجريّة. وأردتُ أن أعطيكِ سرّ معرفتك. أنتِ مخلوقٌ ناريّ، وليس لديكِ ما تفعلينه بالماء أو بالبرد.

تنحني باحثة عن ملابسها. تحاول أن تغضب، لكنّها لا تقوى. كان جسدها كلّه رخواً ولیناً.

- فقد خطّطتَ، إذاً، لكلّ ذلك، ببرود؟ - سألتْه.

- ببرود -ابتسم صاموئيل-. أنا أيضاً مخلوقٌ ناري، وكنتُ أعلمُ أنّ في مقدورِكِ أن تبعثي فيّ الدفء، من جديد. من وقت طويل وأنا لا آتي هذه المآثر. فقد شختُ.

نهض صاموئيل ليفسح لضوء القمر أن يكشف لصوفيّا عن الرجل الذي ما زال قويّاً، وإن بدت علامات الشيخوخة واضحة على وجهه وكرشه وساقيه. ومع أنّها رأت الرجل، وهو يرتدي ملابسه، خيالياً ومُقرفاً، فقد شعرت بالراحة لما حدث. لم تُبدِ استياءً ولا قرفاً، كما توقع هو، بل راحت ترتدي ملابسها بهدوء.

في طريق العودة إلى المزرعة، سار الاثنان صامتين. مع نسيم الليل، وصفاء الفكر، بدأت صوفيّا تستغرب ما حدث. فكيف لذلك الرجل القروي الفظّ أن يكون على ذلك القدر من الرقّة واللطف وهو يجامعها؟ عاودها النفور، الذي طالما شعرت به تجاه صاموئيل، لكنّها أمسكت نفسها ودارت على شعورها، وأشفقت على القلب الذي فُرض عليه العيشُ تحت ذلك الجلد الذي راحت السنون تترك بصماتِها حثيثاً عليه.

- ما حدث لن يتكرّر ثانية -ردّد صاموئيل، حين وصلا المزرعة وتوادعا-. لن يحدث هكذا. ولكن اعلمي، أيّتها الغجريّة، أنّ دم قومك يسري في عروقك.

- شكراً، صاموئيل - قالت صوفيّا، ثمّ استدارت وركضت إلى غرفتها، دخلت إلى الحمّام، وراحت تدعك جسمها دعكاً، تحت دفق الماء، حتى لا يبقى من صاموئيل وجلده الخشن المدبوغ غير ذكرى الفراشات.

-23-

ذهبت صوفيّا إلى المحكمة وقد ارتدت أفضلَ فساتينها. ورتّب فاوستو أيضاً هندامه وارتدى قميص التمساح. خرجا باكراً، في السيارة التي يقودها سيكستو، السائق الجديد الذي يفخر دانوبيو بأنّه هو من يدرّبه. وصلا إلى باب المحكمة قبيل التاسعة. انتظرا بضع دقائق، فقد كانا تواعدا مع خيرونيمو على التاسعة. اجتاز ثلاثتهم ممرات المحكمة التي كانت أشبه ما تكون بالمدرسة، بمسقفاتٍ جدرانها الكونكريتيّة وسقوفها الزنكيّة، التي صُفّت الواحدة إلى جانب الأخرى، وأرصفتِها التي تصل بين مرافقها وأقسامها. راحت صوفيّا تنظر إلى الأسفل. إنّها لا تريد أن ترفع نظرها، بعد أن سكنها هاجسُ رؤية إستيبان والتعرّف على شكله في واحد من أولئك الرجال الذين يتقاطعون معهم وهم في الطريق إلى قاعة المحكمة، بينما ظلّ خيرونيمو متخلفاً عنهما بمسافة قليلة، يتطلّع إلى عنق صوفيّا البادي من تحت شعرها، ويتساءل، دون أن يعرف السبب، عمّا يشعر به الجلاد إزاء جِيد الملكة الأبيض الذي أمروه بقطعه في المقصلة.

لم تكن المحكمة مطابقة لتصّور صوفيّا، فقد كانت أشبه بصفّ مدرسي تشيع فيه الفوضى والقذارة، ويخيّم على أجوائه الحرّ. أمّا القاضي، وكان أشبه بحكمٍ في مباراة *بيسبول* حامية، فقد راح يحكم وسط هرجٍ وحركة دائمين. ثمّة منضدتان متهالكتان، عليهما طابعتان قديمتان، تعمل عليهما، بلا توقّف، امرأتان لاهيتان عن كلّ تلك الضجّة. على الكراسي المعدنية القديمة جلس ناسٌ لزموا الصمتَ، وقد بدا عليهم ضعف الحال والعجز. استطاع خيرونيمو، بالتدافع تقريباً، أن يحافظ على دوره في المرافعة. وقفت صوفيّا، جنب الحائط، بانتظار أن يُنادى عليها. وعلى مسافة قصيرة، وقف

فرناندو ومحامي رينيه. حين رأتْ خيرونيمو وما يعانيه في تلك الغرفة، ضحكت في داخلها، إذ كانت تتخيّل إستيبان وهو يرافع في قاعة فيها مصاطبُ من خشب مصقول، كما في الكنيسة، وتصورت القاضي وهو يرتدي عباءة سوداء، ويجلس بوقارٍ خلف منصة مهيبة. ما أكثر الأفلام التي تصوّرت رؤيتها، قالت لنفسها. وتساءلت إن كان إستيبان بين الأشخاص الكثيرين الذين كانوا بين داخل وخارج.

وأخيراً، طلب منها خيرونيمو الاقتراب. سألها القاضي عن اسمها وعنوانها وتاريخ زواجها واسم الزوج، وراحت تؤكد المعلومات التي كان خيرونيمو يردّ بها على أسئلة القاضي، بينما راحت الطابعيّتان تسجّلان ما تسمعان بسرعة.

– من واجبي أن أنبّهكِ، سيّدتي، إلى ضرورة أن تفكّري مليّاً في موضوع فسخ العقد الذي وقّعتِه والتزمتِ به، ليس أمام زوجك فحسب، بل أمام المجتمع كلّه – قال القاضي بنبرة من كرّر درساً على تلاميذه حتّى الملل.

– فكّرتُ – أجابت صوفيّا.

– تصرّين، إذاً، على فسخه؟

– أصرّ.

– ليدخلْ وكيلُ الزوج – أشار الرجل إلى محامي رينيه، الذي وقف يستمع، خلف صوفيّا.

اقترب فرناندو وجلس، بعد أن أبعد الكرسيّ عن صوفيّا. بدا منزعجاً، ولكن، ما من سبيل لإخفاء انزعاجه. وكيف لا ينزعج والسيّد يستخدمه، من جديد، كما البيدق في لعبة شطرنج.

الجو حارٌ. تنظر صوفيّا إلى خيرونيمو، الذي أخرج، من حقيبته السوداء، دفتر ملاحظاته وأعلن، بصوت مهيب، بدا لها مضحكاً في تلك الأجواء، أنّ «موكلته» تتنازل عن حقها في الأملاك المشتركة، وأنّها تطلب من القاضي أن يحكم بالطلاق، لغياب كلّ ما يتعلّق بالأولاد والإرث.

أمّا محامي رينيه، فقد بدأ، بعد أن تنحنح عدّة مرّات، مرافعة طويلة حول حقوق لموكله على جزء من ميراث صوفيّا، إذ كان، عند وفاة الموصي،

زوجَها الشرعي، فضلاً عن مطالبته بحقوق أخرى على سبيل التعويض عمّا أنفقه لإعالة الزوجة، التي تركت منزل الزوجيّة وأثارت فضيحة عامة وألحقت أضراراً كبيرة بالسيّد رينيه غالينو دوارته، دون أيّ اعتبار لواجبات الزوجة تجاه زوجها. وعلى القاضي أيضاً، أضاف المحامي، بعد أن تنحنح مجدداً، أن يأخذ في الحسبان أنّ السيد رامون سولانو لم يوصِ بأملاكه لامرأة عزباء، بل أوصى بها لصوفيّا سولانو دي غالينو.

كان القاضي ينقر بأصابعه على المنصّة، وينظر، من وقت لآخر، إلى صوفيّا، التي كانت تستمع إلى كلمات المحامي بازدراء. أمّا خيرونيمو، فقد كان ينظر إليها بدهشة المتواطئ الساخر.

وبعد أن ردّ فرناندو بنعم على أسئلة القاضي إن كان ما قاله المحامي يعكس موقف الطرف الذي يمثله، جاء دور خيرونيمو. تأملته صوفيّا وهو يفنّد بلباقة حججَ محامي الخصم. فورود اسم صوفيّا، في الوصية، مع لقب زوجها، مجرّد إجراء شكلي يعكس حالتها الاجتماعية في ذلك الوقت. ولو أنّ السيد رامون سولانو أراد أن يمنح صهره أكثر من المنزل الذي قدّمه له هدية بمناسبة زواجه، لذكرَ ذلك في الوصية. بخلاف ذلك، فإن الحجج المقدمة تستند إلى فرضيّات لا يمكن تأكيدها، ببساطة لأنّها منسوبة إلى شخص ميّت. والقانون يجب أن يستند إلى الوقائع، والوقائع تقول إنّ السيد رينيه غالينو دوارته حصل على المنزل الذي خصّص له، وليس له الحق في المطالبة بشيء آخر. أمّا موضوع الضرر الذي يزعم محامي الخصم أنّ موكلته ألحقته بالسيد رينيه غالينو، واصل خيرونيمو الكلام، فهو يودّ أن يسأل القاضي إن لم يكن حرمانُ شخصٍ من حريته، طوال ثمانية أعوام، أشدّ ضرراً، وإن لم يكن منطقياً ومفهوماً أن تعمد السيدة صوفيّا إلى الفرار من منزلها. ثمّ، واصل خيرونيمو القول -وهنا بدا فرناندو ومحامي رينيه عصبيين متوترين- إذا اتُّهمت موكلته بإثارة فضيحة عامة، فليست الفضيحة التي أثارها السيّد رينيه غالينو بأقلّ ثقلاً حين أقام علاقات مع صديقة زوجته، التي لا أريد أن أذكر اسمها من باب احترام خصوصيّة الآخرين.

أنهى خيرونيمو مرافعته، بينما أبدى محامي رينيه اعتراضاً خجولاً على عبارات خصمه الأخيرة، وراح ينشف عرقه بمنديل وسخ. أمّا فرناندو فقد

بدا كالتمثال. كانت صوفيّا تشعر بذبذبات الكراهية غير المبرّرة عبر المسافة الضيقة التي تفصل بينهما. منذ أن ضاجعت صاموئيل، صارت المشاهد الجنسيّة تتداخل في نظراتها إلى الرجال. تتخيل كيف ستمارس الحبّ مع هذا الشخص أو ذاك. وحين رأت فرناندو، تذكرت أفكارها التي تخيلتها، وفكّرت أنّ الواجب كان يقتضي أن تكون أكثر جرأة لكي تضعها موضع التنفيذ. فربّما كان فرناندو سيتصرّف مثل صاموئيل، وإن صعب عليها تصوّر ذلك. كان فرناندو كثير الشبه بسيّده. أمّا خيرونيمو... كيف سيتصرّف رجل من المدينة، أكثر ثقافة وتهذيباً؟ لقد أحسن خيرونيمو الدفاع والمرافعة، فكّرت. فقد تكلّم بثقة، وكانت سخريته المبطنة مبعثاً لراحتها. لقد أحسن فاوستو الاختيار، قالت لنفسها، وهي تنظر إليه وتتخيله في ظروف أخرى. أعادتها العجلة التي بدت على القاضي للانتهاء من الدعوى، إلى واقعها. صحيح أنّ الوقت كان مبكراً، لكنّ القضايا كانت أمام القاضي كثيرة.

- بعد سماع أقوال الطرفين، أبلغ حضرتك -قال، وهو ينظر إلى فرناندو- أنّي، وبعد مراجعة وصيّة السيّد رامون سولانو، أرى أنّ ما من موجب قانوني يمنح موكّلك الحقّ بمطالبة السيدة صوفيّا سولانو بنصيب في الميراث. ونظراً لانعدام الأملاك المشتركة والأولاد بين الطرفين، فقد حكمتُ، وفقًا لما ينصّ عليه القانون، بفسخ عقد الزواج بناءً على طلب السيدة صوفيّا سولانو. أرجو أن تبلّغ السيد رينيه غالينو بذلك. بعد قليل، يمكنك الحصول على نسخة من القرار، بعد أن أوقّع عليه. نادوا على الشخص التالي - أشار مخاطباً الأشخاص الذين ينتظرون، بينما راحت الموظفة تطبع بعصبيّة المحضر، على الآلة الكاتبة.

نهض الأربعة. رمقت صوفيّا فرناندو بنظرة المنتصر. ولم يستطع الرجل كبح جماح نفسه، فقال لها، وهو يمرّ بها، بصوت لم تسمعه إلّا هي: «سألقاكِ في الجحيم، أيتها الساحرة». لم يسمع خيرونيمو ما قال الرجل، لكنّه لاحظ الغضب بادياً على وجه صوفيّا، فجذبها من ذراعها، وانتحى بها في جانب من القاعة.

- لننتظرْ هنا -قال لها-، لن يتأخروا كثيراً في تسليمنا القرار.

– لا أريد الانتظار –قالت صوفيّا–. عُد لتسلمه لاحقاً. أطلقت ذراعها من يد خيرونيمو، واتجهت نحو بوابة الخروج، يتبعها فاوستو.

هزّ الرجلُ كتفيه وانصرف، بعد أن رتّب التفاصيل مع سكرتيرة القاضي.

في طريق العودة، أرسلوا بسيكستو بمفرده وركبوا هم في سيارة خيرونيمو. جلست صوفيّا ساكتة بجوار السائق. احترم خيرونيمو صمتها، لعلمه بأنّ حالة المطلقة النفسيّة بعد الطلاق ليست نفسها قبله. فبعد ثماني سنوات من العِشرة، لا بدّ من وجود مشتركات بين الزوجين. وقد مرّت به حالات عديدة كان فيها مضطراً إلى التخفيف من وقع الطلاق على العملاء، بعد أن انخرطوا بالبكاء حال تسلمهم ورقة الطلاق. إنّه يعرف كم هو غامض الزواج وكم هو غائر قاعه. يعرف ذلك عن تجربة عمرها خمس سنوات من زواج بلا حبّ.

يبرّدُ هواءُ الطريق الحرارة التي رسمها الغضبُ على وجه صوفيّا. ما أشدّ ما تطاول عليها فرناندو حين وعدها بلقائها في جهنّم! فليطمئن، لأنّه لن يحظى برفقتها، لا في جهنّم ولا في أيّ مكان آخر! ولتطمئنّ هي، لأنها لن تضطر إلى رؤيته مرة أخرى. يا له من بائسٍ مسكين، لم يحنْ وقتُ انعتاقه بعدُ، لأنّه ما زال عبداً لرينيه، يمتثل لما يأمره به، ويردّد ما يقوله. مخطت في منديلها ونظرت إلى خيرونيمو، الذي كان يقود السيارة ويدردش مع فاوستو.

– لقد أبليتَ بلاءً حسناً – قالت قاطعة عليهما دردشتهما. ثمّ انجرّ ثلاثتهم إلى استذكار مجريات المحكمة ووصْف رينيه بالتعيس إذ طمع في تقاسم الميراث معها واتهمها بإلحاق الضرر به.

حين وصلوا إلى المزرعة، دعت صوفيّا خيرونيمو لتناول الطعام معهما، وأمرت بجلب البيرة للاحتفال.

في تلك الليلة، رأى فاوستو، من غرفته، صوفيّا تجرّ جلدَ البقرة، وتبسطه على أرضية الحديقة وتستلقي عليه، وهي تفتح ذراعيها في هيئة صليب. ورأى عينيها مفتوحتين، تحدّقان في نجمة من النجوم.

كانت خيرترودِس تستلقي، هي الأخرى، فاتحة عينيها، في سرير المرأة العزباء.

لقد ودّعت رينيه، قبل قليل، عند باب الصالون، أمام نظرات خالتها المستاءة. منذ وفاة أمّها، وخالتها العجوز المحدودبة والصغيرة، تسكن معها. لقد انعقد لسانها من الدهشة إذ دعتها الخالة بـ «قليلة الأدب». وهي تمضي يومها تصلّي وتسبّح، وحين يصل رينيه، تتبعها وتلاحقها، وهو ما يثير غضب رينيه، الذي لا يفهم تمسّك خيرترودِس بخطوبة المراهقين، الذين لا يخرجون إلّا بصحبة كبير، ولا يفعلون شيئاً إلّا بإذنٍ من كبير. لقد باتت أحلامُ خيرترودِس كوابيس، فرينيه يستعجلها ويشتهيها، لأنّهما، يقول لها، بالغان، وهو، يضيف، ما عاد يصبر على الحرارة التي تستعر بين ساقيه والرغبة التي تستبدّ به.

«البلدة كلّها تعلم بالوضعيّة التي نحن عليها -كرّر رينيه-. لا أفهم لماذا تصرّين على أن نراعي المظاهر. لم يبقَ إلّا أن تقولي إنّك لن تكوني زوجتي حتّى تقرّر روما فسخ الزواج».

أمّا خيرترودس، فكانت تستمدّ قوّتها، وهي تقابل الناس، صباح كلّ يوم، وهي في طريقها إلى محطة حافلات ماناغوا، من ثقتها بأنّها، مهما رأى الناس فيها وقالوا، امرأة تحترم نفسَها وتحافظ على سمعتها وطهارة حبّها. لا شكّ أنّ الأمر سيختلف حين يتقرّر طلاق رينيه من صوفيّا، فعندها سيتزوّجان، هو وهي، زواجاً مدنيّاً، وسيعيشان معاً، وستعلن هي، على الملأ، أنّ ارتباطهما مسألة وقت فحسب، بانتظار أن يُفسخ زواج رينيه بحكم من الكنيسة. وعليه، فإنّها لا تطلب كثيراً حين تطلب منه أن يصبر قليلاً؛ ثمّ إنّها نفّذت له بعض رغباته، حين حشرت يدها، وهما في السينما بماناغوا، في الموضع الذي أراده، وطاوعته، حين اختلى بها في أماكن معزولة وأحياء مهجورة، وركن سيارته، وراح يداعب نهديها ويصل بها الحرارة لا تعرف كيف لم تتطوّر إلى ما هو أبعد. لا شكّ أنّ الرهبة التي شعرت بها، حين وضع يدها على عضوه الضخم، الصلب كالحجارة، قد أثّر فيها كثيراً، إذ تخيّلته وقد هتك عذريتها، ثمّ بحثت، وهي في الحمّام، وتساءلت إن كان في داخلها مكان يستوعب ذلك الإصبع العملاق الذي يسدّد إلى أعماقها. ولمّا زاد قلقها، اشترت كتاباً عن الحياة الجنسية، قرأتْ فيه أنّ المهبل يتمدّد ليناسب أيّ حجم، ولكن، هل تعرّف مؤلفو الكتاب على شخص له عضو بحجم

عضو صاحبنا؟ واطمأنت إذ تذكّرت صوفيّا، فما دامت صاحبتها صمدت، فستصمد هي أيضاً. لكنّها ليست في عجلة من أمرها، تكفيها، في الوقت الحاضر، لقاءات الحبّ الساخنة. المشكلة أنّه يبدو لها كأنّه ازداد هياجاً، مع ذلك، فقد أغضبه ما سمعه عن خسارة القضيّة في المحكمة. وبدا، في تلك الليلة، كالوحش حين أخبرها بما جرى في المحكمة، وكيف أنّ المحامي لم يستطع ثنيَ القاضي عن قراره بإعلان فسخ زواجهما، على الرغم من أنّه كان ضد إرادته. وقبّل خيرترودِس كأنّه يريد إفراغ غضبه وانتقامه فيها، وكان من حسن الحظ أنّه تحكّم بأعصابه وهو يصرّ على أنّه لن يكتفي بالطلاق من صوفيّا، بل سيتزوج. وكيف لها أن تقبل بأن يدخل بها وهو في سورة غضبه؟ ومن يضمن ألّا ينعكس غضبه ورغبته في الانتقام على سلوكه معها في الفراش؟ ستعمل على أن تختفي صوفيّا، مع الوقت، وأن ينسى وجودَها، ولكن، عليها أن تتصرّف بحكمة، وألّا تفسد الأمور بالعجلة. «فعلتُ الصح»، تقول لنفسها، وهي تُبعد الخوفَ من أن ينصرف رينيه -حيال تمنّعها- عنها ويبحث عن أخرى. «فعلتُ الصح»، تكرّر مع نفسها. وتغفو، لكنّها لا تقدر أن تنام، إذ ترى قضيبَ رينيه يلاحقها كالكرباج، فتصحو مفزوعة، وهكذا...

-24-

سارت الأمورُ في المزرعة على ما يرام، لكنّ أصحابَ المزارع المجاورة أرسلوا إلى صوفيّا من ينبّهها إلى الضرر الذي تسببه لهم من جرّاء دفع تلك الأجور العالية للعمّال. إنّها تفسدهم وسيستغلونها، وسترتفع كلفة المحاصيل وستقل الأرباح. التزمت صوفيّا الصمت، وتركت لفاوستو أن يشرح لهم كيف تضاعف إنتاج الدونم الواحد من الأرض، وكيف أنّ تنوّع المحاصيل بدأ يؤتي ثمارَه. فمن أسبوع، قال لهم، أرسلوا إلى السوق شاحناتٍ محملة بخضروات بيعت بسعر جيد، وهم ينتظرون البدء قريباً بإنتاج الزهور لمحلّات تواصلوا معها في ماناغوا وغرناطة وماسايا. كما أنّهم يخططون لإعادة تأهيل عقار مهجور في (مومباچو) لإنتاج الكاكاو الذي يلائمه هذا المناخ. كانت صوفيّا، طيلة الوقت الذي أمضاه أصحاب المزارع يستمعون، وهم في ممرّ المنزل، إلى حديث فاوستو عن الزهور والشوكولاتة، تنظر إلى خيرونيمو، الذي كان يحاول كتم ضحكته. بدا كأنّ لا شيء يزعجه، فكأنّ ماءً بارداً يسري في عروقه بدلاً من الدم. لا شكّ أنّها مهتمّة بمعرفة إن كان سيواجه كلّ الظروف بابتسامة القطة تلك، التي كانت، في البداية، تعجبها، ثمّ صارت تقلقها وتثيرها. لقد اعتادت من دون پرودينيو نظراتِ استغرابه ولومَه وتعنيفه على تسرّعها في استثمار الأملاك أو شرائها أو بيعها، لذلك فهي لا تبدو مرتاحة لبرود خيرونيمو ولامبالاته، ولا لتعاليه، إذ يقدّم لها المشورة ولا يبدو عليه الاهتمام بردود فعلها. «إنه مرتزق» – قالت لفاوستو–. لا يهمّه إلّا أن ندفع له «عمولته». فردّ عليها فاوستو بأنّها والمحامي من نفس الطينة، ولو لم يكن خيرونيمو متزوجاً لكانا، هي وهو، مناسبين بعضهما لبعض.

تلك الليلة، خلصت صوفيّا، وهي في سريرها، تحت ناموسيّة الدانتيل، إلى نتيجة أنّها لا ترغب في الزواج من خيرونيمو، لكنّها قد تجرّب مهاراتِه العاطفيّة، فمنذ وقت وهي تقلّب في رأسها العديد من الأفكار، وقد تجد فيه مُعيناً لها على تنفيذها. يمكنها أن تختبر معه نوعاً آخر من القوة، قوة شبيهة بقوة الأرض. فإن كان ثمّة ما فتنها من شؤون المزرعة، فضلاً عن تحدي منافسيها المتغطرسين، الذين لا يقرّون بقدرة رجل مِثليّ وامرأة على جني محاصيل كمحاصيلهم، أو خير منها، فهي مراقبتها اليومية للأرض، التي باتت، بتربتها وحمرة لونها، أعمقَ جذرٍ يربطها بما تقدّمه الشمسُ والعناصرُ من هبات. فحين تمارس طقوسها، تشعر بقوة الرطوبة في عظامها، وتحسّ كأنّ جسدَها جزءٌ من الحقل ومن الحديقة. لكنّها قوة ليست كافية. فالأرض لها قوّة، لأنّها تُغري المُزارع وتحوّل البذرة إلى نباتات. وقد أصابها حظ من تلك القوة، في الليلة المسحورة التي أمضتها مع صاموئيل، لكنّ تلك كانت قوتَه هو لا قوتها. أمّا مع خيرونيمو، الهادئ البارد، فيمكنها أن تجرّب قوتها هي وتنجب ولداً. لن تنتظر الحبّ، بعد أن ما عادتْ تؤمن بالحبّ، وهي لا تريد أن تخلّف بعد أن يضيع شبابُها ويتراجع اندفاعها. إنّها ما زالت تتذكر كم عانت إيولاليا معها وهي تركض وراءها في الباحة. لن يصعب عليها إغواءُ خيرونيمو، ولا أيّ رجل. لكنّ المشكلة تكمن في كيفيّة الجمع بين الجرأة والرزانة. إنّها لا تسعى إلى الإيقاع به في حبائلها، بل إلى حقنه بجرعة مناسبة من الرغبة، ثمّ ستتابع بقيّة السلسلة من تلقاء نفسها. ستتركه، بعد أن تحمل منه. فخيرونيمو ليس عاشقاً مولهاً، لأنّ ذلك ليس من طبعه. سيكتفي بجسدها، ولن يحاول كسب قلبها. وستفوز هي بإنجاب الطفل. ستُعلم خيرونيمو العناية بالمزرعة، وستحظى بصحبة شخص تحبه دون أن تخشى هجرَه، لأنّها ستسعى إلى ألّا يحدث ذلك. رتّبت صوفيّا الوسائد ثمّ رقدت راضية منتفشة. من خلال النافذة تشاهد سعف النخيل يتأرجح بفعل رياح الليل. كلّ شيء هادئ في العزبة. هادئ جداً. في تلك الغرفة مات دون رامون، وهي لا تريد أن تموت، وحدها، مثله.

نامت متأخرة، وهي تقلّب الأفكار وتضع الخطط، وفي اليوم التالي، أبلغت فاوستو أنّها ذاهبة إلى ماناغوا لشراء بعض الملابس، وسألته إن كان يريد الذهاب معها.

عادت شينتال من مشوارها المرهق، بعد أن عاينت بركة المياه الساخنة الساكنة. في مياه البركة، رأت صوفيّا محاصرة ومطاردة، ورأت صولجانها الملكي يتدحرج على الأرض.

– إنّه قدرُها –قال صاموئيل، حين حكت له ما رأت–. لا يمكننا عملُ شيء.

وحين انصرف الساحر، بدأت شينتال تطحن ريش الطيور الزرق.

أمضت صوفيّا وفاوستو وقتاً ممتعاً في ماناغوا. كان ذلك تجديداً بالنسبة إليها. فهي لم تزر العاصمة منذ أن أخذها رينيه إلى طبيب نسائيّ. لقد تطوّرت المدينة كثيراً. يافطات كبيرة ملوّنة في الطرق، تعلن عن بطاقات ائتمان ورحلات بالتقسيط ونوادٍ للفيديو وأجهزة كمبيوتر ومطاعم وسلام عالمي للديانة البهائية. الناس يسيرون في الشوارع مسرعين، وسيارات أجرة زاهية الألوان.

– أراكِ تنظرين إلى ماناغوا كأنّها نيويورك – ابتسم فاوستو، بينما قادته هي إلى متجر يقع في ناحية أخرى من المركز التجاري الذي شيّد بعد الزلزال الذي دمر المدينة.

دخلت محلّات الأقمشة، وتلمست الحرير وشراشف الكتّان، واستمتعت بالنظر إلى الألوان، والملابس والقمصان، بألوانها الصارخة، معروضة، بلا تنسيق، في *البوتيك*، حيث رأت، في الخلفية، امرأة تضع المساحيق على وجه سيدة سمينة. نبّهها فاوستو إلى أنّ باستطاعتها أن تتزيّن هناك وتكسب ملامحَ تزيد من جمالها وحيويتها.

وقفا، بانتظار أن تفرغ الحلّاقة من الزبونة، وراحا يراقبان كيف تنتف حاجبي المرأة، وكيف تلطّخ وجهَها بهذا الكريم وذاك المستحضر، بالفرشاة أو بالإسفنجة، حتّى انتهى الماكياج فبدت السيّدة دُمية قديمة ورديّة.

– يا إلهي! تبدو فظيعة – همست صوفيّا.

– طبعاً. لأنّ الطبيعة لم تهبها شيئاً –قال فاوستو–. أمّا أنتِ، فقد وهبتكِ الكثير. لا تقلقي.

وانبرى فاوستو يطلب من المُزيّنة ألّا تفرط في مكياج صاحبته، وأن تقتصر

على إبراز جمال ملامحها. أجلست المرأة صوفيّا على كرسيّ يشبه كرسي الحلاق. حاولت نتف حاجبيها فرفضت، فاكتفت العاملة بوضع الكريم الأساس والمساحيق وشيء من الأحمر على خديها، ثمّ راحت تحدّد، بعناية، عينيها بالأسود، وتضع الظلال والريميل على رموشها وترسم شفتيها.

بدا ذلك لصوفيّا نوعاً من الطقوس، جزءاً ممّا تسمّيه شينتال بـ «السُلطة». فالمرأة، من أجل إغراء الرجل، تستعد وتضع الأصباغ على جسمها، كما الأرض حين تُحرث والنبات حين يُسمّد. شعرت بحضور فاوستو، ولاحظت، من خلال عينيها شبه المطبقتين، انبهارَه. مساكين هم الرجال؛ فلا أحدَ يزيّنهم ويجهّزهم للحب. وتخيلتْ معاناة فاوستو، رجل بروح امرأة، فلا يستطيع أن يتجمّل ويتصبّغ كما تفعل النساء. وفكّرت في جسم صاموئيل العجوز وفي نبوءته بأنّ ما حدث له معها لن يتكرر. فعلاً، فقد باتت نظراته إليها واضحة وخالية من الرغبة.

– انتهينا – قالت المرأة، وأعطتها مرآة، بينما نظر إليها فاوستو مبتسماً، وهو يقول لها إنّها تبدو «جميلة جداً». ورأت صوفيّا عينيها في المرآة، كبيرتين، ورأت وجنتيها ورديتين. لم يعجبها فمها الأحمر، لأنّ صورته تذكّرها بشيء غامض للغاية، لا تفلح في تحديده.

– الفم أحمر جداً. لا يعجبني.

غيرت المُزيّنة الأحمر إلى الوردي الغامق، فاستحسنته صوفيّا.

– ولكن، هل يعجبكِ شكلكِ أم لا؟ – سألها فاوستو.

– أشبه (بيودا پورثينا) – قالت صوفيّا، في إشارة إلى البطلة المغرية والفاضحة لمسلسل تلفزيوني برازيلي أثار ضجّة آنذاك.

– بل أنتِ أجمل منها بكثير – ضحك فاوستو، وفكّرت صوفيّا أنّها بالفعل تبدو أجمل من بيودا پورثينا.

عادت صوفيّا وفاوستو إلى العزبة، عصراً، مُحمّلين برزم الأقمشة والفساتين والأحذية وعدّة المكياج كاملة. خفّت پترونا إلى سيّارة *الجيب* لتساعد سيدتها في حمل العلب، فدهشت إذ رأتها وقد بدت مثل حسناوات الأفلام، قالت.

لاحظت صوفيّا تأثير ملابسها الجديدة على الرجال، فكأنّها أطلقت، بملابسها «الأنثوية»، رشقة من الألعاب الناريّة، معلنة أنّها سهلة المنال أو أنّها تبحث عن عشيق.

– زوجتك السابقة تبحث عن صديق –قالت پاتروثينيو لرينيه، حين ذهب، يوم الجمعة، إلى حانتها–. لو أنّكَ رأيتَها! أصباغ وملابس وكعب عال، تهزّ ردفيها فتدوّخ حشد الأغبياء الذين يبدون، حين رؤيتها، مذهولين. فكأنّهم لم يروها من قبل!

ليست پاتروثينيو الوحيدة التي نقلت لرينيه تلك الأخبار، لكنّها الوحيدة التي لم يستطع إسكاتها. قال لها إنّه ليس مهتماً بسماع شيء عن تلك الساقطة، لكنّ پاتروثينيو لم تسكت، بل أخبرته أنّ صوفيّا أنفقت نقوداً كثيرة في ماناغوا على الملابس، وأن فاوستو المخنّث، الذي لا يستطيع ارتداء ملابس امرأة، كان معها، مرافقاً ومستشاراً.

– بل يقولون إنه كان يُلبسها بنفسه ويزيّن وجهها.

ضرب رينيه على الطاولة، فالتفتَ مرتادو الحانة إليه وراحوا ينتظرون فعله العنيف التالي.

منذ أن وقع الطلاق بينه وبين صوفيّا، ازداد رينيه عنفاً وشراسة. وما عادت تمرّ عليه نهاية أسبوع دون شجار مع أحد، ولأيّ سبب.

– كفاكِ، پاتروثينيو. طلبتُ منكِ أن تصمتي، إن كنتِ لا تريدين أن أحطّم كلّ هذه الطاولات – صرخ رينيه.

خرج كريسثنثيو من الناحية الخلفيّة من المنزل، لمساعدة زوجته، لكنّ هذه كانت قد أفرغت ما في جعبتها من كلام وعادت إلى الناحية الأخرى من البار، هادئة، توزّع الابتسامات على الزبائن، وراحت تكسّر الثلج بالمخصف.

ما كانت خيرترودِس تُعير بالاً لمشاجرات رينيه. فحين يتزوجها، قالت لنفسها، سيكفّ عن الشعور بأنّ الأخرى زوجته، ثمّ إنّها ستسعده وتوفّر له الأجواء التي طالما حلم بها، والأطفال، الذين سيعيدون له ثقته برجولته. عليهما، إذاً، أن يتزوجا، وبسرعة، فنظرات الشفقة التي يرمق الناسُ بها رينيه

تزعجها وتؤلمها. البلدة مثل نهر يغيّر مجراه، بلا مقدمات ولا سبب. صحيح أنّ رينيه هجر صوفيّا وخدعها، لأسابيع، وانصرف إلى خيرترودِس، لكنّ سوء مزاج الرجل صار يجعلها تفكّر أنّه ما زال متعلقاً بصوفيّا.

– متى ستتزوج، رينيه؟

لم تكن خيرترودِس مستعدة لأن تصبر إلى ما لا نهاية. وهكذا، فاجأته، ذات عصر، وكان ذهب ليأخذها من مكتبها في ماناغوا، بأنّها لن تنتظر أكثر من ذلك.

– رينيه، إن لم نتزوج الشهرَ القادم، فلن أتزوجك.

التفت رينيه نحوها، بين مصدق ومكذّب.

– أرى أنّكِ أيضاً تكشرين عن أنيابك – قال لها.

– يشاع في البلدة أنّكَ لن تتزوجني، لأنكَ ما زلتَ تحبّ صوفيا. ويقولون إنّ غضبكَ يفسد طبعك ومزاجك.

هذا كذب. قال الرجل. أمّا ما تفعله صوفيّا فلا يقدّم ولا يؤخّر. وإن هي اعتقدت أنّ ذلك هو ما يؤخر زواجهما، فلتعلم أنّه سيتزوجها. إنّما أراد الانتظار قليلاً لكي يحميها من ألسنة السوء. ثمّ إنّ الزواج ليس سباقاً، فهو يستدعي تحضيراتٍ واستعداداتٍ لكي يكون حفلُ الزفاف لائقاً.

– فلنحددْ موعداً له، على الأقل.

– متى تريدين الزواج؟

وقررا الزواج في 8 كانون الأوّل، يوم **عذراء الحبل بلا دنس**، وهو المناسبة الأشهر في جميع أنحاء البلاد.

رأت دونيا كارمن، بينما كانت تسقي النباتات بماء الرزّ الأبيض، سيارة *الجيب* تصل. جفّفت يديها بمئزرها، وخرجت لاستقبال صوفيّا.

– دعيني أراكِ، دعيني أراكِ – قالت وهي تمسك بيد صوفيّا وتدخلها إلى المنزل.

– تبدين كأنكِ من أهل ماناغوا. أراكِ تغيّرتِ كثيراً.

– المهم، يعجبكِ أم لا يعجبكِ؟

– لا بدّ أنّ هناك ما يدور في رأسك ويجعلك ترتدين مثل هذه الملابس.

تنشغل المرأة بتحريك كراسي الصالون الهزازة وترتيبها في وسط الغرفة. لقد أثار قلقها مشهدُ صوفيا، التي بدت ضائعة تائهة. صحيح أنّها تبدو جميلة، لكنّه جمال تشمّ منه رائحة مكان آخر، لا يتوافق مع مقياسها عن الجمال.

– تبدين غريبة. هذه هي الكلمة التي كنتُ أبحث عنها.

راق الوصفُ لصوفيا، لكنّها لا تريد إحراج العجوز. قد لا تهتم للآخرين، لكنّها تهتمّ لرأي دونيا كارمن. ولذلك أصرّت على أن تعرف ما شعرت به العجوز حين رأتها.

– وكأنّي رأيتُ أمّكِ. فهكذا تخيلتُها، طوالَ هذه السنوات، بتنورة واسعة وملمومة، وبلوزة بأكمام منفوخة.

– أبدو كالغجريات، ولكن بلا ملابس تنكريّة.

– تبدين جميلة جداً، يا ابنتي. كفانا كلاماً عن الموضوع. فقط أردتُ أن أعرف ما الذي دفعك إلى أن تتجمّلي وتتهندمي هكذا.

– أريد أن أنجب طفلاً.

بات الأمر واضحاً، فكّرت المرأة. مع ذلك، فما زالت تستغرب كيف يجد الأشخاص قدرَهم. لقد قضت عمرَها وهي تحاول تكذيب الإشارات التي طالما قرأتها في طالع الناس، وتنتظر أن يأتي شخصٌ يخالف توقعاتها، ويخفّف عنها عبء استشرافاتها ونبوءاتها، لكنّها تشكّ في أنّ شيئاً من هذا حدث، وربّما حدث قليلاً، ومع أفراد لم تكن ولادتهم متوقعة، أو أنّهم ولدوا عرضاً. إنّها لا تستطيع أن تنسى كم قرأت طالع صوفيا، ولا أن تنسى البنت التي رأتها مراراً.

– ستلدين بنتاً. وقد أخبرتك بذلك، قبل وقت طويل.

– لا يهمّ إن كانت بنتا أم ولداً.

– ومن سيكون والد الطفل؟

– خيرونيمو.

كانت دونيا كارمن تهمّ لكي تطلب منها ألّا تختار خيرونيمو. فهذا الرجل

سيمنحها ذبذباتٍ جليديّة، وهي لا تستطيع فعل شيء لتغييره. على الأقل، لا تستطيع أن تساعدها، فكّرت. لقد حدّثتها صوفيّا، طوال ساعتين، عن خططها، وطلبت منها المشورة، لكنّ العجوز تهرّبت وردّت عليها بغموض، مدعية أنّ ما من شيء مكتوب عن الحبّ، وأنّ عليها أن تستدلّ بقلبها.

غادرت صوفيا منزل دونيا كارمن ساخطة، تلوم نفسها، فليس لها أن تسأل أحداً عن شيء.

-25-

أغلق خيرونيمو على نفسه في مكتبه كي لا يُفسد أحدٌ عليه متعة القراءة. رنّ الهاتفُ الداخلي. إنّها السكرتيرة تبلغه بأنّ سيّدة تدعى صوفيّا سولانو تريد مقابلته.

- لحظة واحدة - أجاب. نهض من مقعده، سوّى قميصه، ورتّب الأوراق التي على مكتبه، وأغلق الكتاب الذي كان يقرأه، ثمّ خرج ليفتح الباب.

«يا يسوع، يا مريم، يا يوسف!»، هتف، في داخله، حين رأى صوفيّا تنهض من كرسيها في غرفة الانتظار، وتتجه نحوه وقد مدّتْ يدها إليه.

لا شكّ أنّ صوفيّا لاحظت أنّ ظهورَها فاجأه. ابتسمت.

رأت أنّ مكتب خيرونيمو يطابق تقريباً الصورة التي رسمتها له في مخيلتها. أنيقٌ ومنظّم وخالٍ من الديكور. منضدة خشبيّة حديثة، خلفها بعض رفوف الكتب. أريكة وكرسيان مع طاولة صغيرة في الوسط، جهاز تكييف، نخلة في الزاوية، ولوحتان على الجدران لمناظر طبيعية. الشيء الوحيد الغريب هو صورة امرأة نحيفة وحزينة، وضعت على رفّ الكتب.

أشار إليها خيرونيمو بالجلوس وسألها إن كانت ترغب في فنجان من القهوة أو كأس من الماء.

- لا، شكراً. لا تكلّف نفسك.

جلس خيرونيمو على الكرسي الآخر، ينظر إليها. ولم يجد بدّاً من أن يُطري عليها، وإن لم يعتد ذلك مع عملائه.

– تبدين رائعة، وأرجو ألّا أكونَ تجاوزتُ حدود اللياقة.

أومأت بأن لا. فليس في ما قاله ما يسيء.

على العكس، فقد فكّرت أنّها كانت ستقتله لم لو يقل لها شيئاً، بعد كلّ ما بذلته من أجل أن تبدو «جميلة ومتزنة»، بحسب تعبير فاوستو.

– وماذا جاء بك إلى هنا؟

– أبداً –قالت صوفيّا–. نزلتُ إلى ماناغوا وخطر ببالي أن أزورك في مكتبك.

أخرجتْ سيجارة من حقيبتها، فقرّبَ خيرونيمو لها ولاعته، بين مصدّق ومكذّب. حين تجاوز صدمة دخولها عليه دخولَ الفاتح الغازي، أحسّ كأنه بطل فيلم فيلليني، 8 ½. فعلاً، فقد أوحت له نظراتُ عينيها وإيماءاتُ يديها وتقاطعُ ساقيها، بأنّ صوفيّا ترمي له بشباكها لتصطاده، كما تصطاد حشرة غافلة. وما أكثرَ ما لاحظ أثر شعور المرأة بجاذبيتها، وما أكثر ما لاحظ علاقة ملابسها ومكياجها ومظهرها بتصرفاتها وسلوكها. يكفي أن تشعر المرأة بأنّها جميلة لكي تفرز مادة لامرئيّة لا شكّ أنّها ورثتها من العناكب. وابتسم إذ خمّن أنّها أرادت معرفة وقعَ ملابسها الجديدة على الناظر إليها، فلم تجد، لتجريب ذلك، خيراً من شخص يسكن المدينة. يبدو أنّها رأت في ذلك التحديَ الأنسبَ في سعيها لأن تكون امرأة متطورة. لم تدم طويلاً أجواء الجد، وهو يستمع إلى صوفيّا تحدثه عن أحوال المزرعة. فها هي ذي تجلس، ولمّا تمضِ خمس عشرة دقيقة على وجودها في المكتب، جلسة قلقة، متناسية أنّ تنّورتها الضيّقة تسمح له حتّى برؤية سروالها الداخلي الزهري. كانت صوفيّا تكلّمه عن أحوال المزرعة وعن سير المشاريع، وهي غارقة في سحابة من دخان السيجارة التي راحت تدخنها بشراهة المدخّنة المبتدئة.

– سأدعوكَ إلى حفلة –قالت له، وأشعلت سيجارة أخرى، ثمّ بدأت تحكي له عن خططها لـ «ترويض» البلدة لكي تتقبلها بصفتها امرأة مطلقة وثريّة. نعم. ثريّة–. أمّا عن قصّة الحبّ مع رينيه –قالت له– فقد كانت تخطيطاً ربّانياً. لم يستطيعوا، إلى الآن، أن يقرّروا إن كنتُ مظلومة أم ظالمة. وتراهم في كلّ يوم برأي.

نهض خيرونيمو ليحرّك إحدى لوحات الستائر الزجاجيّة ليسمح للدخان بالخروج من النافذة. من الخلف، تأمّل رقبتها الناعمة التي تذكّره بالمقصلة، ونظر إلى منحنى وركها الذي بدا، من خلال الفستان الأبيض، مستقرّاً على الكرسي. لمس شاربه، وعاد إلى مكانه.

– آمل ألا أفسدَ الحفلة – قال خيرونيمو مازحاً.

– بالطبع لا! – قالت صوفيّا، وطلبت منه كأساً من الماء.

نهض خيرونيمو وطلب من السكرتيرة، بالإنترفون، أن تأتي بكأس من الماء. نظرت صوفيّا إلى قميصه الأبيض، بأكمامه الطويلة، وبنطاله الكاكي المكويّ. تخيّلت زوجته، وهي تعتني بملابسه، وبطيّات بنطاله، تودّعه عند الباب، بروب البيت المزهّر. من المؤكّد أنّها المرأة التي تظهر في الصورة. هي ليست قبيحة، لكن يبدو أنّها تعاني، مثل غالبيّة الزوجات.

– هل هي زوجتك؟

– نعم.

– ما اسمها؟

– لوثيّا.

– تبدو حزينة. حذارِ، فقد تنشر، ذات يوم، تبليغاً لك في الجريدة – قالت صوفيّا بخبث.

ضحك خيرونيمو، وهو يمرّر أصابعه على شاربه، وقال إنّ كل شيء جائز.

– الحياة مليئة بالمفاجآت – قال.

ابتسمتْ صوفيّا، وهزّت رأسَها موافقة. وبعد أن شربتِ الماء الذي أحضرته السكرتيرة، وبدا لها أنّ مهمتها قد انتهت ورسالتها قد وصلت، نهضت وسوّت تنورتها وأعلنت أنّها ستنصرف، فما زال أمامها مشاوير أخرى في ماناغوا. رافقها خيرونيمو إلى الباب، وتأمّل مسيرها المستقيم بالكعب العالي، واستظرف أن تعيقها تنورتها الضيقة عن الصعود بسلاسة في سيارة *الجيب*.

كانت صوفيّا، في طريق عودتها إلى المزرعة، فرحة مبتهجة. فتحت النوافذ ليلعب الهواءُ بشعرها، وجلست في المقعد الأمامي ووضعت قدميها في الفراغ الذي يمتدّ تحت صندوق التابلوه. رأت أنّها بالغت في حساباتها بشأن خيرونيمو، فالإيقاعُ به لا يبدو صعباً، بل هو مسألة أيام قليلة. لقد راقبته بعناية. لم يرق لها لونُ بشرته، لكنّه لن يلبث أن يتكافأ مع لون بشرتها. ربّما سيكون طفلهما بين أسمر فاتح أو أبيض، ولكن ليس ببياض الحليب. يدا خيرونيمو طويلتان ورقيقتان. وهذا جيّد. وهو طويل، وتقاطيعه مثيرة للاهتمام، ربّما بدا فمه أنثويّاً بعض الشيء، لكنّه مقبول. التوليفة، عموماً، ستكون جيدة. وتخيّلت، في لحظة مّا، يده وهي تفتح أزرار بنطاله، وشعرت بالإثارة. ما أحوجها إلى أن تمارس الحبّ من جديد. فقد أيقظت حكايتُها مع صاموئيل غرائزها، وأقضّ القلق مضجعها. لا شكّ أنّها ستشعر بالإثارة وهي تضاجع شخصاً لا يشبه رينيه الثقيل، المجرّد من أيّ خيال، والذي لا يعرف غير أن يرمي بنفسه عليها كلّ ليلة، ولا الساحر العجوز الذي لم يفعل سوى أنّه أثار رغباتها.

– سندعوهم جميعهم.

– لن يتخلّف أحدٌ منهم –قال فاوستو–. لا تظنّي أنّك ستستطيعين أن تثبتي شيئاً. في هذه البلدة، نادراً ما يقام حفل، ولن يتخلّفَ أحدٌ عن الحضور.

– والأب پيو.

– يا عالِم إن كان سيأتي.

– أرسلتُ له نقوداً لترميم سقف المدرسة. صحيح أنّي تأخرتُ في إرسالها، لكنّي أرسلتها.

– الوحيدان اللذان لن توجهي لهما الدعوة هما رينيه وخيرترودِس، كما أظنّ.

– لن يأتيا حتّى لو دعوتهما. لذلك سأدعوهما، لكي يريا أنّي لا أضمر لهما حقداً.

ستُقام الحفلة في باحات المنزل. وستوضع طاولات مع مفارش في الممرات. وقد خططت صوفيّا أيضاً لطلب كعكة ضخمة.

- لكنّها ليست حفلة عيد ميلادك.

- ليس لديّ عيدُ ميلاد.

- ألم يكونوا يحتفلون بعيد ميلادك يومَ عثروا عليكِ؟

- بلى، لكنّ يومَ عثروا عليّ ليس هو يوم ميلادي. ستكون الكعكة رمزية.

المهمّ هو خلق أجواء مناسبة لكي يكتسب دمُ خيرونيمو المائي اللون الأحمر، ويبلغَ الطُعم. وقد يواتيها الحظ، فتنجز المهمّة في الليلة ذاتها. فقد اختارت التاريخَ الذي يوافق يوم إباضتها واكتمال البدر.

أمضت صوفيّا وفاوستو يومهما في المكتب، ينظمان القوائم بالأشياء المطلوب شراؤها، ويتصلان هاتفياً لتأمين الفرقة الموسيقيّة والكراسي والطاولات وكلّ ما يجب كراؤه. فالحفلة ستكون مشهودة، ومختلفة عن كلّ ما عاشته (ديريا) من حفلات.

حضر خيرونيمو إلى المزرعة مرتين أخريين، منذ زارته صوفيّا في مكتبه، وبدا مهتمّاً برفد الحفلة بأفكار جيّدة. وحين انحنت صوفيّا على الطاولة لتريه ثدييها المحصورين بين فتحة صدر الفستان، خطرت بباله فكرة إطلاق ألعاب ناريّة، كتلك التي تطلق في ماناغوا، في المناسبات الكبرى؛ ودارت في رأسه أيضاً فكرة إحضار فرقة (تيبيهواني)، التي يرقص على موسيقاها حتّى الموتى، إذ تمزج بين موسيقى البوليرو والموسيقى الخفيفة الشائعة في أنحاء أمريكا الوسطى. وحين فكّر بصوت عالٍ واقترح عرضَ فيلم، انزعج فاوستو وانزعجت صوفيّا، فذلك لا يفعلونه حتّى في حفلات ماناغوا.

- وهذا بالضبط ما أقصده -قال خيرونيمو-. ولو أنّهم فعلوه، لحضرتُ كلّ الاحتفالات.

- في هذه الحفلة، لن تحتاج إلى أفلام لكي تتسلّى - قالت صوفيا، وهي ترمقه بنظراتها.

مع أنّ صوفيّا لم تخبر فاوستو بنواياها، فقد أحسّ هذا بأنّها تعدّ العدّة لأمر خطِر، وأسف أنّها لم تشركه في خططها. كلّ ما يعرفه هو أنّ حياته باتت تدور في فلكها، بل إنّه يشعر، أحياناً، أنّ صوفيّا هي أناه الأخرى، وجانبه الأنثوي. فمن خلالها، استطاع أن يتذوق الأشياء الصغيرة واليومية التي تهمّ

النساء، والتي لا تحظى، مع ذلك، بتقدير الرجال؛ وهكذا، بدأ، إرضاءً لها، يستفيض في التعبير عن ميوله للزينة والزهور والديكور، تلك العناصر التي تجعل من البيت الذي تسكنه المرأة مكاناً مثالياً، حيث تستمتع بخصوصيتها، وتنمّي نظرتها الجماليّة إلى الحياة. لقد ترك الرجال، بعد أن انصرفوا إلى شؤون «العالم الكبير»، للنساء مسؤوليّة خلق الأجواء الحميمة، حيث أظهرن تفوقاً لم يكن الكثيرُ من الرجال مستعدين للاعتراف به. بتنَ يُحسنّ التعامل مع متطلبات الجسد التي يستهين بها الرجال؛ ويتقنّ تحضير الطعام المُغذّي، ويضفين عليه النكهة والشكل اللذين يجعلان من فعل الأكل طقساً راقياً؛ ويقدّرنَ أهميّة النوم والمخادع، ومن هنا، غرفُ النوم المعطرة والشراشف النظيفة المكوية، والوسائد الناعمة؛ ولسنا بحاجة إلى الحديث عن ترتيب الأثاث، وتوزيع المزهريات، ووضع الزينة على المناضد. بل إنّ فاوستو فوجئ بلمسة الأنثى حتّى في تلك البلدة الضائعة، حيث يندر أن ترى من يراعي ترف الذوق والزينة أو يحسن التعامل به. فوجئ بها في الحدائق الصغيرة والبسيطة، وفي الرائحة الزكيّة التي تنبعث من الأرضيات الترابية، التي طالما رُشّت بالماء، للحيلولة دون إثارة الغبار، وفي أواني المطبخ التي كُدّست بعناية وترتيب، وفي فخار الجرار اللماع. أمّا أكثر ما أثار إعجاب فاوستو فهي تدابير الروح الأنثوية ومكائدها، ومعرفتها العميقة والغريزية بنفسية الرجال، ووسائل إثارتهم وتهدئتهم وإغضابهم وحقنهم بجرعات مناسبة من الابتسام أو الإغراء أو اللامبالاة، وحملهم إلى مشاعرَ يظلّون إزاءها منقادين ضعفاء كالأطفال. وهو ما يجعلهم يخشون النساء، ويتصرفون معهنّ في الغالب بعنف لا يفهمه أولئك الذين لم يسمعوا بصراع الفحل القديم مع كلّ ما يذكّره بضآلته وبأنّه لم يكن غير جنين أعزل في بطن امرأة.

خمّن فاوستو أنّ صوفيّا تدبّر أمراً لخيرونيمو. رآها تستعرض نهديها وذراعيها وعينيها ورمشيها وذكاءها أمام المحامي. ولم يفته الربطُ بين ظهور خيرونيمو ومظهر صوفيّا الجديد، ولم يغفل عن كثرة خروجها ليلاً واستلقائها على البساط وتحديقها في النجوم، كما لم يفته الإحساس بأنّ الحفلة ستكون مركز شبكة العنكبوت تلك. لكنّ صوفيّا رفضت أن تشركه

في الطبخة. فكان عليه أن يكتفي بالمراقبة، وإن تألّم وغضب، وهو الذي طالما حرص على نصحها، كما سيحرص الآن لو أنّها أتاحت له الفرصة.

صارت حفلة (الإنكانتو) مدار حديث أهل (ديريّا). تتحلّق النساء، عند خروجهنّ من الكنيسة، ليتكلّمن عن شاحناتٍ تدخل إلى العزبة حاملة الكراسي المستأجرة، وأخرى تحمل خنازيرَ بيضاً سمينة مكدّسة تخنخن؛ ومجاميع من العمّال يقطعون فروع الأشجار المتدلية. في المتنزه، حيث يراقب تمثالٌ الدكّات المطليّة وأسيجة النباتات بأوراقها الكبيرة الأرجوانية المبقعة بالأصفر، راح الرجال يتحدثون عن الموضوع ويلمّعون أحذيتهم. وجّهت صوفيّا الدعوة للعائلات المعروفة، ودعت أيضاً صانع الفخار، خوليان، وصانع السلال، لويس، وفيرمين، وكيل توزيع الصحف، ولاستينا ونيديا وبيرونيكا، والعمدة، وحتى پاتروثينيو وكريسثينثيو.

– أخبروني أن پاتروثينيو تخطط للذهاب ومعها زجاجة من الماء المقدس، لترشها على صوفيّا في المنزل.

– بل إنّ اللصّة دعت حتى خيرترودس ورينيه.

– لكنهما لن يذهبا. سيذهبان إلى حفلة أخرى في ماناغوا.

– هذا ما قالاه. أعتقد أنّهما سيذهبان إلى ماناغوا كي لا يكونا هنا.

– لا بدّ أنّ رينيه غاضب.

يجتهد ماسحو الأحذية الصغار في المسح والتلميع، بينما تحلّق الرجال الذين باتت أحذيتهم لمّاعة برّاقة حول أولئك الذين ما زالوا جالسين على الدكّات، مادّين أرجلهم ناظرين إلى دِهان الأحذية وهو يؤدي وظيفته، وإلى أيدي الصغار وهي تعمل صقلاً وتلميعاً بالأحذية.

خرجت النساءُ من قُداس الخامسة. مرّت إنغراثيا مسرعة بالقرب من الرجال الذين كانوا يلمّعون أحذيتهم، والنساء اللواتي رحن ينزلن من على درج المدرسة المقابلة للكنيسة، متمهلات، منشغلات بالحديث عن الحفلة.

-26-

صوفيّا متوترة. في الليل، تعتادها الكوابيس، تصحو في الثانية صباحاً، فلا تستطيع بعدها النوم. تظلّ صاحية حتى الخامسة فجراً، حين يصيح أوّل الديكة في الفناء. في ساعات الأرق، تحسّ بشبح إيولاليا يطوف في الغرفة. يجلس عند طرف سريرها، يكلّمها، يحذّرها، يقضم أظافره، فكأنّ به قلقاً. فتغمض صوفيّا عينيها كي لا تراه.

دقّت الساعة السابعة. فتحت صوفيّا ناموسية الدانتيل ونهضت. ذهبت إلى الحمّام ونظرت إلى وجهها في المرآة. يا له من يوم مشؤوم آخر، بعد ليلة أرق لعينة أخرى. أأرقٌ عشيّة الحفلة؟ أأرق وهي بحاجة إلى أن تنام جيداً لتستيقظ مرتاحة نشيطة؟ لكنّ الهالات السود المحيطة بعينها لا تضيرها، قالت، وهي تنظر إلى صورتها في المرآة. ثمّ إنّ لديها قلم المكياج الأبيض، الكفيل بمحو كلّ أثر. تعقد شعرها، وترتدي سروالَ العمل وتخرج إلى الممرّ لتناول الإفطار وإصدار الأوامر.

كانت دونيا كارمن وإنغراثيا وفاوستو قد بدأوا العمل منذ الصباح الباكر. بدا شعرُ فاوستو ملتصقا برأسه، لأنّه نام وعلى رأسه الشبكة التي اعتاد وضعها في الليالي التي تسبق المناسبات الكبرى. لن يمشّط شعره الآن، بل عصراً، كي لا يُفسد تسريحته.

وراحت تيريسا، زوجة خوسيه، الناظر، على رأس فريق من الفتيات، تزيل الغبارَ من على النوافذ وتمسح زجاجها بورق الجرائد. أمّا پترونا فكانت في المطبخ، تعدّ الطناجر لطبخ الرز، وطهي الخضار والموز.

أمّا في الباحات، فقد راحت نساءٌ أخريات، مسلّحات بالمكانس،

يزحنَ الأوراقَ اليابسة، بينما انهمك العمّالُ بتعلّيق شموع الإضاءة؛ وراح النجارون يثبتون المنصة التي ستعتليها الفرقة الموسيقية، بينما راحت فتيات مسلحات بالخراطيم يغسلن الباحة، وهي نفسها التي شهدت احتفال صوفيا بالبكالوريا، ولقاءها الأوّل برينيه.

تتنقل صوفيّا من مكانٍ إلى آخر، لتتحقق من أداء الجميع. لقد فكّرت في كلّ صغيرة وكبيرة، تجنباً للاستعجال، وللحيلولة دون الارتجال. كما أنّها لا تريد أن تكون مرهقة حين وصول المدعوين.

من (ديريومو)، وصلت طلبيّات الحلوى: صوانٍ مليئة بكراميل الفاكهة والحليب وجوز الهند وحلوى الصنوبر. من بعيد، يعلو صياح الخنازير التي راحت أيدي الجزارين الخفيفة تعمل فيها ذبحاً. وتكفّلت مجموعة أخرى من الطاهيات بالنقانق والمقانق. وانصرفت دونيا كارمن وفاوستو إلى ملء الأصص بالزهور ووضعها وسط الموائد.

وانشغلت صوفيا بترتيب الطاولات ومفارش المائدة والبار.

الساعة هي الخامسة عصراً: العزبة جاهزة لاستقبال المدعوين، والخنازيرُ تتقلّب على النار.

انسحبت النسوة الكبار ليغيّرن ملابسهن، وكذلك فعل فاوستو وصوفيا.

– لن تساعدني اليوم في زينتي –قالت صوفيّا–. سأتزيّن وحدي.

في غرفتها، أخرجت صوفيا فستانها الأحمر، وملابسها الداخلية الجديدة، وهي حمراء أيضاً. كان فاوستو أخبرها بأنّ البكيني والستيان الأحمرين ليسا جميلين. لكنّها فكّرت أنّ اختيار الأحمر ليس اعتباطياً؛ فما دام الأحمرُ أثبت فعاليته مع الثيران، فلا بدّ أنّه فعّال مع الرجال. كست جسمها، في الحمّام، برغوة من صابون معطّر اشترته للمناسبة. حلقت إبطيها، وأزالت شعرَ ساقيها وعانتها، حتّى لم يبقَ غير مثلّث يناسب سروالها الصغير. ثم غسلت شعرَها، ونظّفت بالفرشاة أسنانها إلى أن دغدغت نكهة النعناع فمها.

في الستيان أسلاكٌ مقوسة أسفل الثديين، وظيفتها رفعُهما وحصرهما في المنتصف. لبست الستيان، ورشّت مفرقه بالعطر. بدا البكيني لها مناسباً. استدارت لتنظر إلى مؤخرتها وساقيها الملساوين. وقالت لنفسها: إن لم يؤثر

كلّ هذا في خيرونيمو، فأمره يبعث على الشكّ. وأخيراً، ارتدت الفستان الأحمر الذي التصق بجسمها، وكشف عن كتفيها العاريتين وعن أعلى نهديها وساقيها. وقفت أمام المرآة، فإذا هي طاغية قاضية تفيض حسيّة. فأنّى لخيرونيمو أن يفلتَ من نداء الجسد وشباكه؟

لاحظت صوفيا تأثيرَ ملابسها في نفوس أوّل المدعوين: كان الرجالُ يُعجبون ويُطرون، وكانت النساءُ يبحلقن ويتهامسن، بين حاسداتٍ ومستنكرات.

حين خرج خيرونيمو من سيارته ورآها، فكّر أنّ الناظر إليها، بملابسها تلك، ليميّزها من مسافة أميال، فملابسها تذكّر بأشباح (موموباچو)، وبـ «المرأة القاتلة»، وبالفانوس الصيني. استقبلته صوفيّا بحفاوة وقدّمته إلى العمدة والراهب وأعيان البلدة، الذين وقفوا، يحملون أكواباً بلاستيكية، ويتحدثون، بعيداً عن ضجيج الجمهور، قاصدين بيانَ أهميتهم وتميّزهم، ثمّ وقفت إلى جانب خيرونيمو، تتابع سير الحفلة. لقد امتلأت باحات المزرعة بالقبعات الأمريكيّة، والأحذية الجلدية الطويلة المنقوشة، وفساتين الساتان وأقمشة الحرير المقلّد اللماعة، المستوردة من كوريا، والدانتيل الوردي الناري، والتنورات الطويلة، بل لقد ارتدت بعض النساء القفازات ووضعن إكليل الملكة على رؤوسهنّ. لقد تزيّن الجميعُ ما وسعهم التزيّن، استعداداً لذلك الحدث، وراح الكلّ يتنقّل من هنا إلى هناك، مستعرضاً جوارب النايلون أو الحذاء الجديد أو القميص الأبيض المخطط أو قميص البوبلين اللماع. وبدا الحضور ملوّناً ومبتهجاً، تحت الأنوار التي تضفي على أشجار المانغو مظهراً مهيباً. كان فاوستو، بقميصه الأبيض، يتنقّل، مرحّباً محتفياً، بين مجموعة وأخرى؛ أما النوادل، الذين أحضروا من فندق (إنتركونتنتال) ماناغوا، والذين اعتادوا الخدمة في حفلات المجتمع الراقي، فقد كانوا يبتسمون وهم يشهدون عرض الأزياء البلدي ذاك، والنساءَ اللائي أخرجن من خُزُن ملابسهنّ قبعاتٍ ربّما تزيّنّ بها في أعراسٍ وحفلات بلوغ الخامسة عشرة.

واختارت فرقة (تيپيهواني) الموسيقيّة، التي اعتادت الأداء في ملاذات ماناغوا البوهيمية، أن تعزف موسيقى (پاسودوبلس) إسبانية و(كوريدو)

مكسيكيّة، من تلك التي يفضلها الجمهور، فضلاً عن (رانچيراس) و(كومبياس) ذائعة. يقترب البعضُ من الفرقة ليطلب منها أن تعزف هذه القطعة الموسيقيّة أو تلك. لا شكّ أنّ الجميع سينتقدون بذخ الحفلة وترفها «الآسيوي»، وفستان صوفيا القصير الضيق وصدرها الدالع. لا يهمّ. المهم أنّهم الآن يستمتعون بالشعور بأهميتهم، وبالتهام الفطائر والشطائر المقدمة لهم في الصواني الفضية والأسياخ المزينة برقائق السولوفان السمائي والأحمر، الصعبة حين الصنع، السهلة حين البلع، حتّى إنّ كرة اللحم أو الروبيان الممزوج بالبقسماط لتذوب ما إن يضعها الواحدُ في فمه. راجعت صوفيا ذهنياً قائمة المدعوين ووجوه الحاضرين، ووجدت أنّ الجميع، بمن فيهم الأب پيو، موجودون، باستثناء پاتروثينيو وكريسثينثيو، وخيرترودِس ورينيه. وراح الجميع يستمتعون بالتهام المقبّلات وعبّ الرون والكوكتيل المطعّم بالفواكه، الذي راق حتّى للنساء، رغم أنّ البلدة تستنكر على النساء أن يشربن ويسكرن. وبعد الأحاديث والدردشات، انطلق كلّ زوج وزوجه، وكل شريك وشريكته، إلى باحة تجفيف القهوة استعداداً للرقص حال بدء الفرقة الموسيقيّة بإيقاعات الميرينغه وأغنية *خوانا لا كوبانا* [خوانا الكوبيّة] الشهيرة، التي حطمت الأرقام القياسية في الشيوع والانتشار، والتي تتصدر، منذ عدة سنوات، قوائم الأغنيات الأشهر في الإذاعة. راح خيرونيمو يكلّم الراهب پيو عن أعمال الكنيسة؛ وانطلق الراهب يحكي لخيرونيمو عن تفاصيل معركته اليومية مع الجهل والخرافات في (ديريّا)، حيث يُقبل الناسُ على المعالِجات والمشعوذات أكثر من إقبالهم على القديسين الكاثوليك، وحيث يُعالج السرطان بدم الحمير، وحيث يعزف العجزة عن الذهاب إلى عيادة الطبيب، ويموتون وهم يضعون أوراق المطاط على قلوبهم، إيماناً منهم بقدرة المطاط على «لزق» الحياة بالصدر المحتشي. ولم ينجح خيرونيمو بالتملّص من الراهب إلّا بفضل تدخل فاوستو، فانتحى جانباً، ليقترب من الطاولة التي نصب عليها البار، وليتمكّن من متابعة الحفلة، من هناك.

– وأخيراً زاغَتْ من الأب پيو – قالت له، حين اجتازت الزحمة في طريقها إلى البار.

- عجوز مثير للاهتمام -أجابها خيرونيمو-. لقد ألقى عليّ محاضرة في العلاجات المنزلية... حفلتك تحقق نجاحاً كبيراً!

فعلاً، قالت صوفيا، نجاحٌ كبير، فقد حضر معظم من دعوناهم، حتى أصحابُ المزارع، الذين أقسموا أن يفسدوا الحفلة، تراهم هناك، يسكرون؛ وأكل الضيوف وشربوا وتعارفوا ودخلوا إلى المنزل وطافوا فيه واصطفوا أمام حمّامه لرؤية مرحاضه؛ واستمتع الأصدقاء المقربون أيضاً: فيرمين، موزّع الصحف، وصاموئيل ودونيا كارمن وفاوستو... وبعد قليل ستبدأ الألعاب النارية. لقد ذهب خوسيه لاستدعاء العمّال، ليبدأوا حفلة المفرقعات النارية، وها هي الفرقة تعزف موسيقاها الرائعة، فلماذا لا يراقصها، سألته، فهي لا تصدّق أنّه لا يحسن أن يرقص بوليرو.

لم يشأ خيرونيمو أن يفشل في الاختبار، فبدأ ينظر إلى الراقصين الآخرين وهم يعانقون شريكاتهم؛ وإلى أصحاب المزارع وهم يلفون أذرعهم حول خاصرة الفتيات؛ وإلى المتزوجات وهنّ يغمضن أعينهنّ لإدخال الزوج في أجواء البوليرو الرومانسية، بينما انشغل هذا بالنظر، من وراء كتف زوجته، إلى زوجة الآخر البعيدة والعصيّة.مكتبة سُر مَن قرأ

وانتهت الفرقة من البوليرو لتنطلق وتعزف، تكريماً لصوفيّا، *چاچاچا* الفستان الأحمر، حيث يقول المغنون: «ومن يقدرُ عليكِ بفستانك الأحمر!»، بينما يلفّ الراقصون ويضحكون ويصفّقون، أمّا خيرونيمو، فيحاول أن يجاري حركة صوفيا، التي ترقص وتقول له «انظر، خيرونيمو، واحد اثنان ثلاثة، *چاچاچاااا*»، فيفكّر ويقول لنفسه وما المشكلة في أن أهزل مرّة واحدة في حياتي؟ تنتهي الموسيقى، ويستمتع الجميع ويضحكون. هوّت صوفيا وجهَها بيديها، ومسحت العرق بمنديل ورقي، ثمّ جرّتْ خيرونيمو من ذراعه لتريه، قالت له، كم هي جميلة غرسات الورد تحت ضوء القمر.

ولم تلبث أضواء الألعاب النارية أن تصاعدت في السماء، فانفلق شررٌ وردي وأخضر وعناقيد من أضواء بيض، وتدفقت، في ظلمة الليل، نافورات ملونة لا تلبث أن تسقط وسط النباتات، بعد أن تتحوّل إلى مطر من يراعات الخيال. وصدرت من بين المدعوين تأوهات الإعجاب، وامتلأت عينا

إنغراثيا بالدموع، وهي التي طالما أبكتها الأشياء الجميلة، أمّا أجملُ ما في الأمر فهو أنّ كلّ شخص في البلدة استطاع أن يشاهد العرض ويشارك المحتفلين احتفالهم، وهو جالس في بيته. وكان هذا هو ما أرادته صوفيا حين فكّرت بالألعاب النارية. فهل ما زال، بعد هذا، من يفكّر في أذيتها ويتمنّى الشر لها؟

شهقت الرؤوس، من حول إنغراثيا، تنظر إلى حلقات الضوء التي راحت تنفتح كالمظلات، مع كلّ صاروخ ينفجر. وكان بين الناظرين من راح يحسب كم كلّف كلّ ذلك البارود. وكان بينهم من رأى في العرض مبالغة، فما من عاقلٍ يفكّر في فعل ما فعلته صوفيّا، بينما فكّر آخرون أنّ صوفيا حرصت على كسب الجميع، واستمتع آخرون، كالأطفال، بنافورة الألوان، وراحوا يبتسمون كلّما انبثق الماءُ في حلقاتٍ ساطعة سريعة متتابعة.

كانت دونيا كارمن شاردة البال، لا تكلّم أحداً، تنظر إلى السماء، وتتذكر، الله أعلم، ماذا عن طفولتها، حين فاجأها بردٌ لم تفهم سببه. خفضتْ عينيها ولاحظت غياب صوفيّا. تلاقت نظرتها بنظرة فاوستو. حاولت فهم ما تعنيه تعبيراته وحركة كتفيه وزمّة شفتيه وإيماءته الغامضة المستسلمة.

رأت صوفيّا الأضوية الملونة. ورآها خيرونيمو معكوسة في عينيها، بينما راحت الصواريخ تنفجر، وراح هو يشعر، كما ثيران المصارعة، بتأثير اللون الأحمر.

-27-

لم يبقَ غير انتظار القمر، نهاية الشهر، موعد الدورة الشهريّة اللاحقة، قالت صوفيّا، في اليوم التالي، وهي تكلّم نفسها، في غمرة حملة إزالة زينة الحفلة والعودة بالأمور إلى سالف عهدها.

لقد اجتاز خيرونيمو الاختبار بنجاح. صحيح أنّه ليس كصاموئيل، لأنّه كان متعجلاً، لكنّ جسمَه كان قويّا، كما أنّ أفكارَه شفعت له استعجاله.

من الواضح أنّ فاوستو انتبه إلى الأمر. كان ينظر إليها بطرف عينه، حتّى إذا ردّت إليه النظرة، حاد بعينيه، كأنّه طفلٌ أمسك به متلبساً. بدا مستاءً، فشعرت صوفيّا عليه بالعطف، إذ لم يحسن المداراة على غيرته، وكانت نظراته تفضح فضوله لرؤية ما وقع، في الليلة السابقة، بينها وبين خيرونيمو، ظاهراً في عينيها، أو مكتوباً على جلدها.

– كفى فاوستو! وكفّ عن النظر إليّ هكذا. اهدأ. لن يقع لي مكروه – قالت أخيراً، بعد أن انتهوا من إعادة الأثاث إلى مكانه، وجلس الاثنان على الطاولة في غرفة الطعام لشرب القهوة.

– هل تعلمين أن خيرونيمو متزوج؟

– أعلم.

– ألا يهمّك ذلك؟

– إطلاقاً. ولكي ترتاح، سأخبركَ بأنّ كلّ ما أريده هو أن أنجب طفلاً.

بحلق فاوستو فيها غير مصدّق، وأخذ رشفة كبيرة من القهوة.

– فإذاً اتخذتِ من المسكين فحلَ استيلاد؟

أومأت صوفيّا برأسها.

لطالما رأى فاوستو في صوفيّا كائناً متعقلاً، على الرغم من بعض الفظاظة في طبعها. مع ذلك، لم يخطر بباله، يوماً، أن تظهر غرائزُ الأمومة عليها، في هذه المرحلة من حياتها. وهكذا يخطئ فاوستو، من جديد، في حكمه على النساء، وهو ما يُشعره بإحباط كبير. ظلّت صوفيّا صامتة، تدقّ بأصابعها على الطاولة، وتتلفّت بين فنجان القهوة والحديقة ووجه فاوستو.

إنّها غير متأكدة من حملها. ستواصل العلاقة مع خيرونيمو حتى تتثبّت من الأمر، وربّما استمرّت، بعد ذلك معه، بضعة أشهر أخرى، لأنّ ممارسة الحبّ نشاط صحيّ، يزوّدها بالطاقة ويزيل عنها الأرق. وتتذكر صوفيا الليلة السابقة، فتشعر بانقباضٍ بين ساقيها.

يشتدّ إحساسُها مع الوقت. صارت ترى نفسها مع خيرونيمو، يومَ الحفلة، بطلي قصّة تستعيدها ذاكرتها، مرّة بعد أخرى، في حكاية تتجدّد يومياً من خلال تفاصيلَ صغيرة لم تظهر، في الأيام الأولى، حين كانت ذاكرتها ما زالت بعدُ طريّة. بدأت صوفيّا، بعد أسبوع من لعبة الصور هذه، تشكّ في نفسها، حين انتبهت إلى أنّ فستانها، في آخر مرة استحضرت فيها تلك اللحظة، لم يكن أحمر، بل أسود. لم يفت پترونا أن تلاحظ حالة الشرود التي تعانيها سيّدتها. لقد رأتها، غير مرّة، في الحديقة، بلا حراك، وقد مالت بجسمها فكأنّها ترشّ الماء على الزرع، ولكن بمرشة خالية من الماء. وحين تقرّبت منها ومسّت كتفها، انتفضت صوفيّا فكأنّها فزعت من النوم.

يشعر فاوستو بالقلق. قد يفهم البرود الذي خططت به صوفيّا للإيقاع بخيرونيمو، لكنّ من الصعب عليه أن يفهم شرود امرأة عاشقة، وقعت، من أيام، وفجأة، في شباك الحبّ. إنّه على يقين من أنّها تذوي وتنحل. والأغرب من ذلك أنّها لا تورد ذكراً لخيرونيمو، ولا تتكلّم عن لقائه مجدداً، على الرغم من أنّ فاوستو ألمح لها، عدة مرات، بالحاجة إلى الاتصال بالمحامي لمناقشة أمور تخصّ العمل في المزرعة.

ما زالت لا ترغب في رؤية خيرونيمو، فكّرت صوفيّا، وإن كانت لا تفهم سبب حاجتها المُلحة لتكرار التجربة معه، وهو ما لم تشعر به في حالة

صاموئيل. ربّما لأنّ العجوز كان حازماً إذ صرّح بأنّ ما حدث لها معه لن يتكرّر، كما أنّها أيضاً لم تكن مستعدة لتكرار التجربة معه. كان ذلك سحراً دام ليلة واحدة. أمّا موضوع خيرونيمو فمختلف. ببساطة لأنّها حامل. وهل من سبب أدعى إلى ما يطرأ عليها من تغييرات؟ وهل غير ذلك الهوس بتذكر أدنى إيماءة مسّ بها خيرونيمو رقبتها وهو يخلع قميصها، وعطر بودرة الطلق والكولونيا الذي شمّته في كتفه، والذي ما زال عالقاً بأنفها؟ وغير أصوات تلك الليلة، وأنين خيرونيمو الأبحّ الغريب، الذي جعلها تظنّ أنّه يوشك على البكاء. وماذا عساها تفعل مع رجل يبكي وهو في غمرة الجماع؟ لا شكّ أنّ جسدها يفرز هرموناً جديداً، هرموناً يليّن العظام كي تتسع بطنها فتستطيع العظامُ أن تستقرّ في جوف كرشها. وأيّ شيء غير صخب الحياة يقف وراء هذا الإحساس بالخفّة، بالرغبة في الضحك ثمّ بالرغبة في البكاء؛ بالشعور بالوحدة، ثمّ بتذكّر الحفلة والأضواء الملونة المتناثرة في السماء، وكتف خيرونيمو، التي بدت مثل أفقٍ يرسم فيضَ الأنوار؟

-28-

بعد مرور ما يقرب من أسبوعين على الحفلة، عاد خيرونيمو لزيارة العزبة. جلس الثلاثة في المكتب. كان فاوستو يتكلّم عن العمل والتجارة، ويلتفت، من حين لآخر، طالباً موافقة صوفيّا على ما يقول. أمّا هي، فكانت تنظر إليهما، دون أن تستمع إلى ما يقولان، مشدودة إلى حركة يدي خيرونيمو، وإلى أصابعه المربعة، بأظافرها القصيرة والنظيفة. ينظر خيرونيمو، من حين لآخر، إلى صوفيّا ويبتسم لها، محاولاً تطمينها. فقد تكون، فكّر، نادمة على ما حدث، وإن كانت، في الحقيقة، توتر أعصابه بذلك الشرود وبطريقتها الغريبة في النظر إلى يديه.

– هل سمعتِ، صوفيّا؟ –سألها فاوستو منزعجاً–. كأنّكِ لستِ معنا!

– لا تقلق –أجابت، وقد ثابت إلى نفسها–. ذهب فكري بعيداً، لكنّها ليست نهاية العالم. – وغمزت لخيرونيمو.

عليها أن تضاجع خيرونيمو، مجدداً، قالت لنفسها، وإن كانت حاملاً. وسيفعل خيرونيمو ذلك، مرة أخرى، بلا شك. إنّها متأكدة. راح فاوستو ينظر إلى صوفيّا مرّة وإلى خيرونيمو، مرّة. إنه متوتر وغير مرتاح، ثمّة شيء يحدث. يبدو أنّ صوفيا وخيرونيمو يفكران ويحسبان ويخططان، فصوفيّا، على الأقل، ما عادت تائهة، كما كانت في الأيام القليلة الماضية. فعيناها تبرقان، فكأنّها محمومة. وهذا شيء يقلقه فيها ويخيفه.

منذ ليلة الحفلة، تذكّر خيرونيمو الحادث عدّة مرّات، مستمتعاً. فقد مرّت عليه شهورٌ، قبله، وهو عازف عن ملذّات الجسد. صحيح أنّه خاض، بعد أن تزوج، عدّة مغامرات، لكنّه عاد، مع ظهور الإيدز وما قيل عن ممارسة الحب مع غريبات، إلى حضن زوجته. ولكن، شتّان.

لصوفيّا طعمٌ خاص.

انتهوا من الحديث عن التصاريح التي يجب على خيرونيمو استصدارها لتصدير الكاكاو إلى كوستاريكا، ونهضت صوفيّا لمرافقته إلى السيارة، والاستراحة من نظرة فاوستو المزعجة.

سارا في صمت. نبدو كمغفلين، فكّرت صوفيّا، وهي تنظر حولها. الشمس تغرب، وظلال النخيل ترسم خطوطاً سوداً على خلفيّة السماء الحمراء.

- هلّا أخذتني لنرى غروب الشمس من مطلّ (كاتارينا)؟ - سألت خيرونيمو.

- هيّا - قال لها.

(كاتارينا) بلدة قريبة، وشوارعها مرصوفة بالحجارة. صعدت سيارة خيرونيمو، بشيء من الصعوبة، إلى المطلّ، الذي بناه رئيسُ بلدية تقدمي، فوضع فيه مصاطبَ للجلوس، تشبه تلك التي في الحدائق. من المطلّ تُشاهدُ بحيرة (أپويو) الواسعة. هناك بوابة حديديّة تُفتح على نصف دائرة، مزروعة بالعشب، حيث راح بعض الأطفال يجمعون لوازمهم ويهمّون بالعودة إلى بيوتهم، بعد أن خاضوا مباراة في الـ *بيسبول*.

تعرف صوفيّا المكان جيداً. إنّه يشبه المكان الذي وجدت فيه نفسها هائمة على وجهها، ليلة خرجتْ تبحثُ عن أمّها، والذي طالما رأته في الأحلام. تلك الأحلام الضبابية التي ترى فيها نفسها وحيدة، ثمّ تصحو وهي تبكي. من هذا المطلّ، تبدو البحيرة فجوة مليئة بالماء، ومن خلفها، خطوط مدينة غرناطة والـ (غران لاغو) [البحيرة الكبرى]

جلست صوفيّا وخيرونيمو على العشب. لم يتحدّثا كثيراً. حكت له صوفيّا عن المطلّ الآخر. وفجأة، وبلا مزيد من المقدّمات، عرضت عليه رغبتها. لماذا لا يتضاجعان هناك، بين الأشجار، حيث المنحدر. لم يجد خيرونيمو وقتاً للتفكير. فقد حرّك اندفاعُ صوفيّا شخصيته، التي لا تحسب لشيء حساباً. ولم يلبثا أن وصلا إلى فسحة من الأرض، بين جذوع الأشجار وكتل النباتات. بدت المواقعة لصوفيّا، هذه المرّة، أبطأ وألطف. أغمضتْ

عينيها، وتركت لجسمها أن يشعر بحركات خيرونيمو ويهضمها. وفجأة، سمع الاثنان ضحكات أطفال مكتومة. التفت خيرونيمو، وتناول ملابسه. شدّ قميصه حول خصره، ونهض. وحين أزاح الساتر النباتي، رأى طفلين يركضان صعوداً وهما يضحكان.

- يا لقلة حيائها -راحت پاتروثينيو تقول، وهي تخبر كلّ من ارتاد حانتها-، تمارس قذارتها في المطلّ، على مرأى من الجميع. ما هي إلّا ساحرة عاهرة، ولطالما قلتُ لكم ذلك، لكنّكم لا تريدون أن تصدّقوني. إنّها عارٌ على البلدة. حتى الأطفال ما عادوا في مأمن من أفعالها وفضائحها.

- لا أعتقد ذلك -قالت إنغراثيا-. ليس لأحدٍ أن يقنعني بصحّة هذه القصّة.

- الطفلان يقولان إنهما شاهداهما - تصرّ تيريسا، زوجة ناظر العزبة. يقولان إنّ السيد خيرونيمو ربط قميصه على وسطه وطاردهما غاضباً، بينما كانت صوفيّا تضحك كالمجنونة... وأنا رأيتها أيضاً، ذات ليلة، تختفي في التلّة مع صاموئيل...

- وأنتِ أيضاً كفّي عن حكاياتك. صاموئيل رجلٌ عجوز. ما أكثر ما تنطوي عليه قلوبُ الناس من شرّ. لم يشكروا لها، حتّى، الألعاب النارية في يوم الحفلة، ولم يشكروا لها أنّها دعتهم، وأطعمتهم وسقتهم طيب الطعام والشراب... لا يشكرون ولا يذكرون، بل يفترون عليها الكذب. يا لهم من جاحدين! دعيهم ولا تقربيهم. وتذكري أنّ صوفيّا سيدتك ووليّة نعمتك.

- أرأيتِ عناد تلك السيّدة -قالت تيريسا لپترونا، دون أن تذكر موضوع صاموئيل-. لا تريد أن تصدّقني. لقد أخذت الأمّهاتُ الطفلين إلى الأب پيو ليسمع منهما، تحت سرّ الاعتراف، ولكي يرى أنّهما لا يكذبان. ثارت فضيحة كبرى. عليكِ أن تحذّري دونيا صوفيّا من الذهاب إلى البلدة.

- يا لجرأتها! -صاح صاموئيل، أمام دونيا كارمن، وهو يبتسم-. لكنّ دمها حار. آمل ألا يركبها الجنون وترتكب حماقة.

- إنّه قدرُها -أجابته دونيا كارمن-. لا يمكننا فعلُ شيء.

- على الأقل، يمكننا عمل تعويذة تقيها ألسنة السوء...

– أنتَ تعلم أن ما من تعويذة تنفع في هذه البلدة.

– أحسنتُ حين طلّقتُ تلك الجاحدة – قال رينيه، متفاخراً.

– أنسيتَ كم غضبتَ حين طلبتْ منكَ الطلاق؟ –ذكّرته خيرترودِس–. يؤسفني ما يحدث لها. بعد الحفلة، قيل إنّها اختفت مع المحامي بين مزارع البن، ساعة إطلاق الألعاب النارية، ويقال إنّها فعلت الشيءَ نفسه، ذات ليلة، مع صاموئيل. ثمّ راح جميع الذين ذهبوا إلى الحفلة يغتابونها وينتقدونها، فمن متحدث عن الإسراف والتبذير، ومشيرٍ إلى الترف والبذخ، ومتكلّم على فستان الآرتيست الفاضح الذي لبسته... شيء مؤسف.

– ما أطيب قلبكِ – قال لها رينيه، وهو يبتسم بهدوء وينظر إليها وهي تطرّز دانتيل المفارش التي سيستخدمونها يومَ الزفاف.

– ما يسعدني هو أنّهم تركونا وشأننا. ما عادوا يقولون إنكَ ما زلتَ تحبّها. لقد كنتُ محقّة حين طلبتُ منك تحديد موعد لزواجنا.

– أنتِ محقّة دائماً، ماميتا، لكنّي كنتُ أيضاً محقًا حين طلبتُ منكِ ألّا نؤجّل زواجنا بسبب شكليّات.

يقترب رينيه منها ويداعب صدرها.

– كنتَ على حق – أجابت خيرترودِس، وعلى وجهها نصفُ ابتسامة.

قال فاوستو لصوفيّا، لا ليلومها، بل ليبدي إعجابه بتهورها، وهو يتأرجح على كرسي هزّاز، بجوار الباحة الداخليّة، بينما جلست هي، قريباً منه، تشرب عصير التمر الهندي في كأس كبيرة:

– وكيف خطر لك أن تفعلي فعلتك في المطلّ!

– لم تكن المشكلة في المكان، بل في الطفلين الأحمقين.

– ليسا أحمقين، هم أطفال. وكان من الممكن أن يكونا أحمقين لو أنّهما لم ينظرا إليكما.

– كان ذلك من سوء حظي. ما كان ينقصني غير أن تعلم البلدة كلّها بالأمر!

– على الأقل، سيعرفون، إذا ما حملت، بأنّ الطفل هو ابن خيرونيمو

وليس ابن الشيطان. لن يستطيعوا وقتها أن يقولوا إن الشيطان نزل عليك في الليل ليحبّلك!

واختارت صوفيّا ألّا تنزل إلى البلدة، قبل أن يمرّ وقتٌ طويل. واختارت أن تلتقي بخيرونيمو في ماناغوا. وراحا يستكشفان موتيلاتٍ وأوتيلات. ومارسا الجنس في شاطئ بحيرة (شيلوا)، ذات ليلة، شربا فيها البيرة. قليلاً ما كانا يتحادثان، فهما يعرفان لماذا يلتقيان، وكان خيرونيمو يبدو راضياً عن حديثها له عمّا يطرأ على جسدها من أحاسيس، ويبتسم وهو يسمعها تصف له نشوتها معه ورعشتها. باتت صوفيّا تزداد جرأة مع ازدياد مغامراتها مع خيرونيمو. وصارت تمضي اليومَ في البحث عن مسارح جديدة لمغامراتهما، واكتشاف طرق مختلفة ووضعيّات أخرى. لا تضع حدوداً للمتعة. فهي عازمة على أن ترتوي منها ما استطاعت؛ وأن تجرّب المسموح والممنوع، وأن تتحدّى خيرونيمو، دون أن تبدو عليها مفاجأة أو تعب أو ملل، وإن ظنّت، أحياناً، أنّ خيرونيمو يحاول تحذيرها، أو حماية نفسه من مجهول.

لا يهمّ، تفكّر صوفيّا، ما دامت حاملاً. لا يهمّ. أسابيع قليلة وتتركه، عندها سينتبه، وهي لا تريد له أن ينتبه الآن.

حين لا تلتقي صوفيّا خيرونيمو، تبقى في المزرعة. تستيقظ مبكراً، وتذهب إلى الحقل لتعاين المحاصيل، وتشغل نفسها بإزالة الأعشاب الضارة من الورود، واختبار بذور أزهار غريبة أخرى. وحين تلمس الأرض، تشعر كأنّها تلمس خيرونيمو؛ فالأرضُ مادة حية؛ لها رائحة، ويُغطيها الوحل، ويكسوها الغبار، وتتفتّح باستمتاع، لكنّها تتصلّب أيضاً وتقسو، كما ذكر خيرونيمو حين تداعبه. الأرضُ تُشعرها بالقوة، فكأنّ جسمها محورُ البندول الذي يجعلها تدور.

– سرعان ما سنتخلّص من خيرونيمو –أعلمت فاوستو–. بعد شهر، سترتفع بطني.

في الليل، تخرج صوفيّا للاستلقاء تحت النجوم، وأداء طقوسها المعتادة، فتشعر بالرغبة في خلع ملابسها. انتظرتْ بضعة أسابيع كي تتحقّق

من الإشارات التي أصدرها جسمُها. ترقّبٌ بانتظار الاقتناع الذاتي، وزوال هاجس البقعة الحمراء التي ظهرت على ملابسها الداخلية، في الشهر الأول، حين كانت متأكدة تماماً من حملها. لذلك، ولتجنب خيبة أمل أخرى، فضّلت أن تنتظر وتتيقّن، وها قد تيقّنت. تريد أن يصل ضوء النجوم إلى حيث تقبع ابنتها -لأنّ الطفل سيكون بنتاً-، أن تتسرّب نسماتُ الليل إلى مساماتها، وتتغلغل في برعم الحياة اللاواعي والهش.

يهبّ الهواءُ الباردُ على جسدها العاري، المستلقي فوق جلد البقرة، فتعروها رجفة، لكنّ صوفيّا لا تعقد ذراعيها على صدرها، لحماية نفسها، بل تبقي عليهما مفتوحتين، صابرة على سياط الريح الليليّة الخفيفة. تغمض عينيها، وتحاول التفكير في صور للحر، للشمس، للبلاج. وتدخل صورة خيرونيمو في المشهد فتشوّشه، فكأنّها صورة الضوء البيضاء تلك التي تدخل في شبكية العين وتصرّ على البقاء فيها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-29-

لم تصدق تيريسا ما رأت عيناها. فحكته، في اليوم التالي، لپترونا، التي استمعت إليها وهي تقلّب الرزّ في الطنجرة. قالت لها إنّها رأت صوفيّا تخرج، الليلة البارحة، إلى الباحة عارية، كما خلقها ربّها. رأتْها بعينيها اللتين سيأكلهما الدود. رأتها تخرج ليلاً وتفرش جلدَ البقرة على الأرض وتخلع ملابسَها وتستلقي. لقد فقدت السيّدة عقلها، وثبت أنّها مسحورة. قد تصدّق أنّ شيئاً لم يقع بينها وبين صاموئيل، وأنّ ما رأته كانت تهيؤات من صنع خيالها، أمّا هذا، فخيال أبعد من الخيال.

– هل أنتِ متأكدة ممّا تقولين؟ ألا يمكن أن تكوني رأيتِ أشباحاً؟ كيف يمكنكِ أن تكوني متأكدة إلى هذا الحدّ إذا كان الوقتُ الليل؟

– قلتُ لك إنّي متأكدة. كان القمر منيراً. رأيتُها كما أراكِ الآن.

رسمتْ پترونا علامة الصليب وسكبت الماءَ على الرز. شيء غريبٌ يحدث، قالت. هي تعرف صوفيّا، لكنّها لم ترها قط كما رأتها في الأسابيع الأخيرة: غريبة، متجهمة. تأمرها بشيء، ثمّ تنسى ما أمرتها به.

– غيّرتُ لها الشراشفَ ثلاث مرات في أسبوع. ومن يدري ماذا تفعل حين تذهب إلى ماناغوا. قبل أيام، كانت ملابسها مليئة برمل الشاطئ.

– تذهب إلى ذلك الرجل. أكيد. يقولون إنّه متزوّج، ولكن يبدو أنّها لا تهتمّ لذلك.

– ومن يهتمّ لذلك، تيريسا! ومنذ متى رأت البلدة في العلاقة برجل متزوّج فضيحة كبرى؟ المشكلة الآن هي أنّ الجميع يبحثون عمّا يتهمون به صوفيّا.

تغطي پترونا طنجرة الرز، وتبدأ بتقطيع الخضار. وتقلّب الأفكارَ في رأسها: إنّها لن تسمح لأحد، مهما فعلت صوفيّا، بمسّها أو التقوّل عليها. إنّه الحسد. يحسدونها لأنّها شابة وجميلة وغنية، ولأنّها رفضت الحياة مع زوجها القاسي. إنّه الحسد. حسناً، ألا تتمنّى الكثيرات أن يتركن رجالهنّ ويذهبن، لا مع عشيق واحد، بل مع عديدين؟ لكنّهنّ جبانات، خوّافات، وقد وجدن في شجاعة سيدتها ما يعذّبهنّ ويؤلمهنّ.

لن تتمكّن خيرترودِس من الزواج ببدلة العرس التقليديّة، لأنّ المراسم ستتمّ أمام القاضي، في المحكمة، وليس في الكنيسة. فرينيه، بحسب القوانين الكنسية، ما زال متزوجاً من صوفيّا «حتى يفرقهما الموت». ثمّ إنّ خيرترودِس لم ترد أن تقيم الحفلة في منزل عائلتها، لأنّ خالتها العجوز تصرّ على أنّ ابنة أختها ترتكب خطيئة حين ترضى بالعيش مع رجل لم يتزوجها أمام الربّ. وقررا أن تقام الحفلة في مزرعة رينيه. وكانت التحضيرات للعرس مناسبة لاجترار الحديث عن كلّ ما يشاع عن صوفيّا، بؤرة الفضائح ومركزها. وهكذا صارت حادثة الأطفال تروى كلّما جدّ عليها تفصيلٌ من التفاصيل. وإلى تلك القصّة، أضيفت قصة تيريسا حول تعرّي صوفيّا ليلاً، وقصّة مشوارها، في منتصف الليل، مع صاموئيل، فضلاً عن إشاعة قويّة مفادها أنّ الغجرية حامل.

التأم جمعُ النساء في ممرّ منزل رينيه، قبل أسبوع من الحفلة، لمساعدة خيرترودِس في تحضير الهدايا. في الوسط، نُصبت طاولة عليها سلالُ الحلوى وأكياس التول والشرائط البيض التي علّقت بها بطاقات صغيرة كُتب عليها «رينيه وخيرترودِس»، بحروف ذهبية. كانت الأيدي تعمل بجدّ، دون أن تكفّ الأفواه عن الكلام.

– إنّها حامل. أكيد. رأيتُ ضفادع ميتة بالقرب من (الإنكانتو) – قالت امرأة عجوز ترتدي السواد، وهي تضع الحلوى البيضاء في كيس التول، مشيرة إلى الاعتقاد الشائع عن أنّ بول المرأة الحامل لا يوافق دماءَ الضفادع.

– يبدو لي أنّ ظهورَها مع المحامي تدبيرٌ لكي نصدّق بأنّه هو من وضع بذرته في بطنها وليس الشيطان – قالت پاتروثينيو، التي تصرّ على تحذيرها بشأن المسيح الدجال.

– أنا لا أصدّق ذلك –تجرأت خيرتروديس على القول–. إذا كانت حاملاً، فمِن المحامي.

– إذا كانت لم تحمل من رينيه طوال ثماني سنوات، فهل ستحمل من المحامي بهذه السرعة؟ – أضافت امرأة أخرى، نحيفة، طويلة الأنف مدبّبته.

أمسكت خيرتروديس عن الكلام، ولم تصرّح بسرّ حبوب منع الحمل، الذي بات عبئاً ثقيلاً عليها، لأنّها إن صرّحت به لرينيه، فستفضح نفسها وستكشف عن تواطئها وذنبها في كلّ ما حدث.

– لا أدري –قالت پاتروثينيو– حتّى متى نظلّ ساكتين على الفضائح؟ نحن بلدة مسيحيّة، محترمة ومحتشمة. فليس من حقّ أحدٍ أن يظنّ أنّه يستطيع بماله أن يهيننا ويتجاوز على تقاليدنا. لا أعرف إلى متى سنسمح لهذه المرأة بالتجاوز علينا وإفساد شبابنا بالقدوة السيئة التي تبديها. يجب أن نُخرجها من البلدة، يجب على الأب پيو أن يوقع بها الحرمان الكنسي... علينا أن نفعل شيئاً!

حلّ صمتٌ مشوبٌ بالتوتر. فليس لأيّة واحدة من الحاضرات القدرة على طرد صوفيّا، وليس في وسع أية واحدة منهنّ أكثر من الثرثرة والكلام. هزّت خيرتروديس رأسها. صوفيّا، في نظرها، مجرّد امرأة، لا تنسب إليها أيّة قوى سحرية، وهي تنأى بنفسها عن حلقة صائدات الساحرات تلك. مع ذلك، فهي تدرك أنّ التعقّل والمنطق لا يقنعانهنّ، فقد أمضين وقتاً طويلاً وهنّ يؤمنّ بالخرافات وينظرن إلى العالم من زاوية جهلهنّ السحريّة.

– لن نكسب شيئاً من هذا –قالت خيرتروديس–. فلكلّ شخص أن يحيا حياته.

– وهل من حقّها أن تعكّر علينا صفوَ حياتنا؟ –ردّت پاتروثينيو حازمة–. أنتِ تحبينها لأنّها كانت صديقتك، ولكن هناك فرق بين أن تكون الواحدة طفلة جاهلة وأن تكون بالغة عاقلة. أرى أنّ واجبنا يقتضي أن نجعلها، على الأقل، تشعر بأنّنا نريدها أن تكفّ عن فضائحها. علينا أن نراقبها، لنعلم، في حال كانت حاملاً، إن كان الطفل من خلفة الشيطان.

تبادلت النسوة النظرات، وفهمت إحداهنّ الأخرى. فخير تروِدِس ليست منهنّ، لأنّ العلاقة التي تربطها، رغم كلّ شيء، بصوفيّا تشوّش رؤيتها. لن يعتمدوا عليها، ولن يأخذوا برأيها، وپاتروثينيو محقة. عليهنّ التفكير في عقاب الغجريّة. فليس للأمور أن تستمرّ هكذا.

– انتهت الحلوى – قالت إحداهن وهي تشير إلى السلّة الفارغة.

شعرت شينتال، وهي في كوخها، بالهواء يتصاعد من البلدات مشحوناً ومحتقناً. الريح الخبيثة تثقّل الجوّ وتثني أوراق النباتات. لقد عاشت طويلاً، والأحداثُ هي هي، قالت لنفسها، وهي تُنزل القارورات من رفّ مستحضراتها الكيميائية ووصفاتها السحريّة. على الحائط، خبّأت قارورة زرقاء وراء كومة من الخرق. لقد أخذ تحضيرُ تلك المادة منها أشهراً قضتها بين إغراء الطيور الزرق لنزع بعض ريشاتها، والبحث عن جذور اليبروح، وجمع ندى الفجر، وأجنحة الفراشات، وحبوب اللقاح، وبذور الأشجار المهاجرة. وقتٌ وجهدٌ وموادّ، ولا ضمان لنجاعة الخلطة.

ليس في وصفات المشاعر المبهمة تلك أيّة فضلات؛ فلا شيء فيها يفسد؛ لا شيء فيها ينتج من التحلّل الذي يصاحب الموت. لأنّ الشرط فيها هو أن تحتوي خلاصاتٍ حيوية ورموزَ تمرّد وعناصر هوائيّة. فلا شيء يقلل من وهج العواطف التي تتغلغل في شقوق الطفولة المتعرجة غير الصلة بالحياة وبالجمال في أنقى صورهما. المشكلة تكمن في أنّ العواطف قد تلعب دورَ المرآة فتغيّر الأحاسيس الداخليّة. لا شيء ثابتٌ في الكون، حتى القدر.

سهل عليها أن تتنبأ بدواخل الأشخاص من ذوي الدماء التي لا تفورُ، إذ لا إمكانية لتبدّل المسار لديهم؛ أمّا في حالة صوفيّا، فحتّى صورُها التي تظهر في بركة المياه الساخنة متناقضة. تراها يوماً سعيدة، وفي اليوم التالي، تراها تعيسة. هناك نوعان من المصائر، تتجاذب وتتنافر: جاذبية الدوامة الثابتة ظاهرياً، المسار الدائري الذي تحدثت عنه إيولاليا، والذي يسعى إلى تكرار الدائرة، لكنّ هزة زمنية ما، تتسبب في ألّا يكتمل مسار الحياة، وهو فراغ يمكن لصوفيّا، من خلاله، أن تهربَ من التكرار الذي لا ينتهي. ولذلك فهي تلحّ على دونيا كارمن في القول إنّه ليس كل ما سيقع لصوفيّا «مكتوب

عليها». إن حدث الاقترانُ المناسب، فستتمكن صوفيّا من كسر الدائرة ومنع تكرار الأساطير الجاهزة. المشكلة أنّ هناك الكثير من المتغيرات المحتملة، والكثير من الظروف غير المهمّة ظاهرياً، وفي مقدور مَن أن يعرف إنّ أتفه قرار يمكن أن يؤشر، في لحظة، الفرقَ بين الحياة والموت؟ ولطالما شهدت شينتال أموراً حاسمة، لم تكن، في ظاهرها، أكثر من صدفة عابرة!

مرّ وقتٌ طويل دون أن تزورها صوفيّا. فمنذ أن تركتها وعادت إلى (الإنكانتو)، صارت تظهر، بين الحين والحين، عصراً، على حصانها، وتظلّ معها حتى وقت متأخر من الليل. ربّما هي مشاغل الحياة. لن تطلب صوفيّا الحكمة، ولن تفكّر فيها، ما لم تفرضه عليها المعاناة أو الحاجة إلى أن تحيا دون أن تضحّي بجزء من نفسها. كانت شينتال تدرك ذلك، لأنّه يمثّل واحدة من قواعد السلوك البشري الأزليّة. ولمّا كانت صوفيّا حاملاً، فستنشئ شرنقة من حولها. وستتحوّل إلى فراشة إذا استطاعت النظر إلى نفسها من الداخل، وفهم القوة التي توجّه مصيرها، وإذا تمكّنت العاطفة من أن تحرف المسار ليصطدم بالمرآة وينشطر.

تتوهّج المادة الزرقاء في القارورة إذ تنظر شينتال إليها عبر الضوء. توشك الوصفة التي ستحمي صوفيّا، حتى من نفسها، أن تجهز. صحيح أنّ شينتال لا تضمن التعويذة، لكنّها لم تفقد الأملَ في نجاعتها.

إنّها الثالثة بعد الظهر، الكنيسة مظلمة، وأبوابُها مغلقة. وأجواءُ صحنها، أمام المذبح الكبير، باردة، خلافاً للحرّ في الخارج. فالجدران العريضة والسقف المرتفع يحولان دون دخوله. راح الأب پيو يتحرّك ببطء، يرتب الشمعدانات الكثيرة التي صُفّت أمام صورة العذراء. إنّه متعب، ومهمته في رعي أرواح الناس تجعله، أحياناً، لا يفصل معاناته وهمومه عن معاناة الآخرين وهمومهم. إنّه ينوء بحمل خيبات الأمل والتحاسد ومشاكل الأزواج ونزاعات التجارة والعمل بين رعيته. ويتعبه أنّهم ينتظرون منه الكلمة الوافية والنصيحة الشافية. هو، في النهار، مسؤول أمام الرعيّة، بينما هو، في الليل، حين لحظات وحدته، فهو مسؤولٌ أمام ربّ لم يكلّف نفسه، يوماً، أن يتحدّث معه ليوضح له سبيل تجنّب الخطأ. لقد تعلم، خلال حياته، أنّ «كلّ شيء موجود في كرمة الربّ»، لكنّ مهمته هي حماية عيون

الجهلاء وآذانهم من علمٍ لا همّ له غير إرباك الروح. حتى في تلك البلدة الصغيرة، هناك قصصٌ غير مفهومة، فصولٌ سودٌ من البؤس الإنساني، تقع عليه مسؤولية نزع فتيلها لتجنب الإطاحة بالوئام والانسجام بين الجماعة. ولطالما رأى في الفضيحة أسوأ الخطايا؛ إنّها خطيئة ترقى إلى مرتبة الحدث. إنّ بقاء المشاكل داخل نطاق الأسرة، يوفر فرصة لإصلاحها. وإن بلغ شيء منها مسامعَ الآخرين، فهو يمتلك من التأثير ما هو كفيل بوأد الإشاعات في مهدها، وهكذا تموت، كما النارُ حين تظلّ من دون حطب. إنّه ليفخر بقدرته على التحكّم بغرائز آكلي لحوم البشر الذين يرى أنّهم يعششون في دواخل الناس. ولكن، ماذا عساه يفعل في حالة صوفيّا؟ فمنذ سنوات وهي لا تذهب إلى الاعتراف، فقد استاءت منه لأنه سألها عن تفاصيل علاقتها الحميمة مع رينيه. ربّما ظنّت أنّه سألها لفضول مَرَضي فيه، ويشهد الربّ على سلامة نواياه ونقاء مقاصده. فهو يطرح ذلك السؤال على الجميع، حتّى إنّه ليعرف كيف يضاجع كلّ صديق صديقته في البلدة، وكم مرة، وكلّ التفاصيل. منذ سنوات والراهب پيو يفهم الفضول على أنّه ضرورة لضمان دقة المشورة الروحية. ثمّ إنّ الجسد هو المسؤول عن كلّ الخطايا، حتى أتقى النساء تميل إلى ارتكاب أشنع خطايا الجسد، بسبب طبيعتها الأنثويّة. ما من امرأة يعرفها بمنأى عن إغراءات الوصيّة السادسة. يبدو أنّها لعنة حلّت على الأنثى منذ حواء الأولى. ولذلك وجب معرفة أبعاد هذه القوّة المنفلتة للسيطرة على تجاوزاتها. لكنّ صوفيّا أساءت فهمه. لم تستطع إدراك التضحية الجسيمة التي يعنيها سماعُه تلك الاعترافات، وهو الكائن الذي له ما لبقيّة البشر من نقاط ضعف. ولو أنّها علمت أنّه، حين كان أصغرَ سناً، لم يكن يستطيع كبح رغباته، فتعتاده حالات الانتصاب وهو في حجرة الاعتراف. وما أكثر ما جلد ذاته عقاباً على أنّه لم يستطع مقاومة تنفيسه الفسيولوجي بعد ما سمع من الاعترافات. لقد نهضت صوفيّا من كرسي الاعتراف وأهانته، كأنّ من يقف أمامها رجلٌ عادي، وليس رجلَ دين. ولم تعد من بعدُ لأداء ذلك السرّ المقدّس.

وها هي الفضيحة تقع! وكان لها أن تتجنبها -وهو ما كان يسعى إليه- لو أنّها التزمت سرّ الاعتراف وواظبت عليه.

كان له، بكلّ تأكيد، أن يكبح رغباتها الوبيلة التي دفعتها إلى معاشرة رجلٍ في البريّة، فلم تنتبه إلى عيون الطفلين التي كانت ترقبها. وهكذا فقد أولئك الطفلان براءتهما قبل الأوان، ولن يعودا هما نفسهما بعدما أكلا تفاحة المعرفة. لقد احتجزهما الراهبُ في الأبرشيّة طوال أسبوع، ليقصّا عليه ما شاهداه، وليعيدا القصّ، مراراً، وكلّ يوم، ويزيدا، لكي يصلا إلى الخلط في رواياتهما، ثمّ الشك في صحتها وحقيقة وقوعها. وأخضعهما لعلاج مركّز، لكنّه لم يكن مقتنعاً بنجاعة العلاج. وطالبت البلدة بعقوبة صارمة. وزاره فرناندو، على رأس وفدٍ من رجال البلدة ونسائها، للمطالبة بحرمان كنسي في حقّ صوفيّا، لتكون درساً وعِبرة. فالمسألة مسألة أخلاقيّة. بدت ردّة فعل الناس له مبالغاً فيها. من الواضح أنّهم يستخدمون الحادث للتّنفيس عن أحقاد لا يحسنون هم أنفسهم تفسيرها. طلب منهم أن يمهلوه ليشاور الربّ. ورفع الراهبُ بيو عينيه إلى الصليب الكبير الذي يتصدّر المذبح الرئيسي في كنيسة (ديريّا). وبدا المسيح، على ضوء الشموع، منهكاً أيضاً. هو يرى في الحالة المعروضة قطرة في بحر، فما أكثر الخطايا التي تُرتكب يوميّاً في العالم!

«كلا، بدا أنه قال، الحرمانُ الكنسي كثير؛ يكفي التحذير». هو، بالطبع، يدين الخطيئة، وسيتناول هذا الموضوع في عظاته. لقد خصّص عظة الأحد السابق للتذكير بخطيئة حواء، الخطيئة الأصلية. وكان، كلّما ذكر حوّاء، تمثّل له وجهُ صوفيّا وجسدُها. يتخيّلها بشعرٍ يصل إلى خصرها وأوراق عنب تكاد لا تستر عورتها. وعاد ينظر إلى الصليب، فشعر بالفرح لوجوده في ذلك المكان، بمنجاة من الخطيئة.

– إذا اتصلتْ بي دونيا صوفيّا، فقولي لها إنّي غير موجود.

لم ينتظر خيرونيمو ردّ سكرتيرته، بل دخل مكتبه وأخرج من الإضبارة رزمة سميكة من الأوراق. مرّت عليه أسابيع، وهو لا يعمل.

ولكن، أيّ ضيرٍ في مراهقة متجدّدة وعاطفة جامحة وشهوة منفلتة؟ ومع ذلك، فقد آن الأوان ليعود إلى واقعه؛ فالروتين ينادي عليه، وصوفيّا تثير مخاوفه. بل صار يتساءل إن كان في تلك المرأة مسٌ من الجنون، أو كان سلوكها

دليلَ انحراف مَرضي. يبدو أنّ ما بها هو انفلات من أجل الانفلات. قال إليوت: «نستكشف ونستكشف ونستكشف، ثمّ نعود إلى نقطة البداية، لنتعرّف على المكان». لا بدّ أنّ شيئاً من هذا القبيل يحدث لها، تستكشف لتبدأ من جديد، لتثبتَ أنّ البداية تختلف، بين المرّة والمرّة، وأنّ ما يبدو معروفاً قد تغيّر.

هو يعترف بأنّه يشتهي صوفيّا، يشعرُ أنّها نقلته إلى طقوسٍ قديمة، إلى جوهر المتعة الجنسيّة الحقيقي، الذي ساد في الأزمنة التي سبقت عصر الخطيئة والكبت. ولولا إقراره ببرودته لما اهتمّ بأداء دور المحفّز. لقد فوجئ، أكثر من مرة، وهو يراها تنام، يغمرها شعورٌ بالحنان يسبب له غُصّة في صدره. إنّه يجازف بالوقوع في الحب. لذلك فمن الأفضل له إيقاف ذلك السباق وتقنين اللقاءات، لا بقصد وضع حدٍ لها، بل لضبط إيقاعها، ببساطة، لأنّه هو من يخاطر أكثر. سيلتقيها مرة واحدة في الأسبوع، قرّر. التفت إلى رزمة الأوراق على مكتبه، وراح يتفحصها ويتساءل كيف استطاع أن يتحمل لغة القانون الرسمية اللعينة المبهرجة تلك، طوال هذا الوقت.

دخل فاوستو إلى المنزل مضطرباً، وقد احمرّ وجهه من لفح الشمس والغضب. فتح باب المكتب، من دون طرْق، وجلس قبالة صوفيّا، على الأريكة المجاورة للمنضدة.

– أرأيتِ؟ أحدهم خرّب أكثر من ثلاثة كيلومترات من سياج العزبة.

رفعت صوفيّا رأسها ونظرت إليه. لم تفهم ما قاله.

– يبدو أنّ الحادث وقع البارحة –شرح فاوستو، وهو يستجمعُ أنفاسه–، ولا شكّ أنّ من فعل ذلك شلّة من العمّال. قطعوا الأسلاك الشائكة المحيطة بالمرعى. لقد أرسلتُ الفلاحين لاسترداد الماشية التي خرجت من الفتحة. يبدو أنّهم أعلنوا الحربَ علينا.

– حرب؟ ومن سيعلن الحربَ علينا؟ ولماذا؟

– محاكم التفتيش المقدسة، يا أمّي. إنّهم لا يريدونكِ بينهم، لأنكِ آثمة مخطئة. وبما أنّ الربّ لم يحرّك ساكناً، ولم يعاقبك ببرق يشطرك، فقد تكفّلوا هم بأن يدفّعوك ثمن خطيئتك. بل لقد ذهبوا إلى الأب پيو وطلبوا منه أن يحرمك كنسياً.

ألقت صوفيّا برأسها إلى ظهر الكرسي ونظرت إلى فاوستو بسخرية.

– لا أستطيع أن أصدق أن يكبّر هؤلاء المنافقون موضوع تلك المغامرة إلى هذا الحدّ!

– بل عليك أن تصدّقي.

– يجب أن نكلّف العمّال بالمراقبة في الليل – قالت صوفيّا، وتلمّست بطنها التي بدأت تتكوّر. يجب، على الأقل، منعُ أيّ شخص من الاقتراب من المنزل... أنا متأكدة من أنّ لرينيه وفرناندو ضلعاً في الموضوع.

– بالتأكيد... حفلة زفاف رينيه وخيرترودِس الأسبوع المقبل. وأظنّ أنّنا الوحيدان اللذان لم يُدعيا إلى العرس.

– ربّما سيتوجّب علينا أن نوجّه الدعوة إلى أنفسنا.

– انسيْ. سيكون من قبيل أن نقفز إلى نهر مليء بأسماك البيرانا الضارية.

– أو من قبيل أن نقول لهم إنّنا لا نهابهم.

راح فاوستو يقضم أظافره. فسيرُ الأحداث لا يبشّر بخير. وهم إن بدأوا بمضايقته، فلا شكّ أنّه سيواجه سخريتهم وتعريضهم بميوله الجنسية، مع أنّه يحرص على علاقة طيبة بأهل البلدة حتّى لا يصلوا ولو إلى رميه بنظرة احتقار.

– على رسلك، فاوستو –قالت صوفيّا–. ليس لهم أن يحرقوا أعصابنا، فهذا هو ما يبتغون.

وما إن انتهت صوفيّا من قول ذلك حتّى اقتحمت پترونا الغرفة، وقد بدا عليها الاضطراب. دعتهما لرؤية ما كُتب على السور المجاور للطريق.

نهضت صوفيا متكاسلة، بين حملٍ يثقل عليها إلى درجة أنّها، في بعض الأيام، لا ترغب في النهوض من الفراش، وتفكيرٍ في هذه «الحرب» العبثيّة. وسارت متثاقلة مستاءة، على العكس من فاوستو، الذي راح ينط، سائراً إلى جانب پترونا. شعرت كأنّ الغضب يصنع دوامة صغيرة في مركز معدتها.

«الساحرة القذرة»، «الخنزيرة»، «الموت للعاهرة والتيس»، «الموت للخنازير». بهذه الكلمات، التي كتبت بأحرف سود كبيرة، لطخوا بياضَ سور المزرعة.

أشارت پترونا إلى الكتابات، وهي تردّ على أولئك الوقحين المتوحشين. إنه الحسد والحقد، صرخت، وأنّى لسفلة أن يتعلموا احترام الآخرين! أوغاد يدّعون القداسة والطهر!

نظرت صوفيّا إلى الكتابات وشعرت ببرودة تسري في عمودها الفقري صعوداً. لو تعلّق الأمر بها وحدَها، لردّت الصاعَ صاعين، ولانتقمت، فكّرت، ولتكفّلت بتلطيخ بيوت كلّ من تظنّ أنّهم وراء ذلك، لكنّها حاملٌ، وعليها أن تفكر في ابنتها، التي ستولد هنا وسترث كلّ ما تملكه من أرضٍ وعَقار. إنّها لا تريد أن يلعنها أحدٌ، أو يدعوَ بالشر على المخلوق الذي في بطنها، فقد تكون أحقاد (ديريّا) خطِرة. قد تفهم هذا الموقف إن كان صادراً عن رينيه، لكنّها لا ترى منطقيّاً أن تتعاضد البلدة كلّها على مضايقتها، لمجرّد أنّ أطفالاً حمقى رأوها مع خيرونيمو في التلّة. وكيف لتلك البلدات، التي اشتهرت بفضائحها وجرائمها العاطفيّة، أن تُجمع على إدانتها. إنّهم، قال فاوستو، يدفّعونها فاتورة تطاولها وشعوذتها وأصلها الغجري. ولكن، ما الجديدُ في أن تقيم بين ظهرانيهم ساحرة والبلدة تعتاش من أناسٍ يأتون لاستشارة المشعوذين ومعرفة طالعهم في مياه البحيرة الحارة العكرة؟ ثمّ إنّ صوفيّا ليست بالساحرة المحترفة، كما هي دونيا كارمن أو صاموئيل. هي تمارس طقوساً لا تشارك بها أحداً، ونادراً ما تقرأ التاروت، مع ذلك، فقد ظلوا يرون فيها غريبة عليهم، دخيلة، ابنة «يهودٍ تائهين». إنّها متعبة من وِزر أسلافها، ولطالما حلمت بأن تكون شخصاً عادياً، وبأن تنسى ماضيَها الغجري. إنّها تشعر بالهمّ والحزن. وتتجرّع نوبات من الغضب والضيق تسبب لها قرفاً وغثياناً. نظر إليها فاوستو وقد تسمّرت أمام السور، كلّمها، لكنّها لم تردّ. رآها شاحبة، ركض نحوها ليساعدها ويسندها، لكنّ صوفيا انثنت وراحت تتقيأ.

– سنذهب إلى عرس رينيه وخيرترودِس –قالت صوفيّا لفاوستو، بعد أن حملوها إلى المنزل ومدّدوها على السرير ووضعت پترونا منديلاً مبللاً بالكولونيا على جبهتها–. سنذهب لنطلب منهم أن يدعونا وشأننا. ليبيّض العمالُ السور، ولينظفوه من تلك الكتابات.

في عتمة غرفتها الباردة، تتدثر صوفيّا بالملاءة. إنها الثانية بعد الظهر.

تسقط الشمسُ متعامدة في الخارج، فيتصاعد بخارٌ من الأرض. قبل ثلاثة أيّام، حين اكتشفوا الكتابات على السور، بدأت صوفيّا تشعرُ بشيء من الضيق. فقد عافت نفسها كلّ طعام غيرَ الشعير والحساء الخفيف والمشروبات المرطّبة. واخترعت پترونا الماهرة لها خلطاتٍ من حساء الخضار والفواكه كي تشربها دون أن تؤذي معدتها. وأمضت صوفيّا جلّ أيّامها مستلقية في الفراش، تقرأ كتباً سبق لها أن قرأتها، فهي لا ترغب في قراءة ما يثيرها أو ما يثير فضولها.

فتح البابُ مواربة، وأطلّ ظلٌ غريبٌ مدببُ الأنف، ثمّ دخل الغرفة دون أن يُصدر صوتًا. لم تميّز صوفيا وجه شينتال إلى أن اقتربت من سريرها.

– صحيح أنّكِ لم ترسلي في طلبي، لكنّي أتيتُ لأنّي أعلم أنكِ محتاجة إليّ.

جلست العجوز على حافة السرير، ووضعت يدها الباردة على جبين صوفيّا.

– آآآآه، شينتال، هذه الأوجاع تقتلني! أخشى أن تكون سحراً.

نهضت العجوزُ دون أن تتفوّه بكلمة واحدة، وبدأتْ تدور حول السرير تتلمّسه وترفع أطراف الغطاء، وتنحني لتلقي نظرة على ما تحته، ثمّ تطوف في الغرفة، تنظر وراء الأثاث، وفي الزوايا، وفي عوارض السقف. حين اقتربت من المرآة، أخرجت قارورة المادة الزرقاء، التي كانت تخفيها في صدرها، ثمّ غمست إصبعها ورسمت دائرة حول السطح.

– أحضرتُ لكِ أوراق السراخس وإكليل الجبل لتضعيها في حذائك. سوف تحميك حين خروجك من البيت. أيضاً طلبتُ من پترونا أن تحضّر لكِ ماءً بالقرفة. ستستحمين غداً وكلّ يوم بهذا الماء لأنّه يطرد الحسد والذبذبات السالبة.

– ما أريده هو أن تزول هذه الأوجاع. لأني إن استمررتُ على هذه الحال، فلن أتمكن من حضور حفل زفاف خيرتروِدِس.

– هل دعوكِ؟

– لا. لكنّي سأذهب. فهناك سأرى كلّ الذين يكرهونني. سألّوح لهم بكلّ قوى الجحيم التي يظنّون أنّي أمتلكها.

مالت صوفيّا لتتناول شراب الكتان الموضوع إلى جانب السرير. بدت شاحبة ومرهقة، وخمّنت شينتال أنّها خائفة. ليس عليها أن تُقدم على أفعالٍ قد تندم عليها، قالت لها.

- المشكلة أنّي لا أعرف ماذا فعلتُ لهم؟ وإلى متى سأظل «الغريبة» و«الغجريّة»؟ اللعنة على أمي التي تركتني معلّقة، لا إلى هذا ولا إلى ذاك! متى سيكفّون عن النظر إليّ كأنّي حيوانٌ نادر! ماذا فعلتُ لهم!

مرّرت صوفيّا يدَها بعصبية على بطنها المنتفخة. وشعرت شينتال بنوبةٍ من غريزة أمومتها القديمة تقلّص ضفيرتها الشمسيّة[1]. فخلف نيران صوفيّا، رأت الفتاة الخائفة الوحيدة، التي تغرق في السرير، وتتدثّر بالملاءات، كأنّها تحمي نفسها من عالم عدوانيّ، عالم لا تفهمه ولا قِبل لها به، رغم ما اجتهدت وحاولت.

- دعيهم وشأنهم، وسوف يدعونكِ وشأنك.

- لا أستطيع ذلك، ما داموا يناصبونني العداء -ردّت عليها صوفيّا-. هم كانوا البادئين.

- لكنكِ لن تكسبي شيئاً من مواجهتهم.

- المسألة ليست مسألة مكسب، بل مسألة مبدأ. ليس من حقهم مضايقتي، ولا محاسبتي على أصلي وفصلي، ولا معاملتي كما يُعامل المجذوم. - عدّلت جلستها على السرير، فزال من وجهها تعبير الفتاة المسكينة الضعيفة، لتتحوّل إلى صوفيّا، صوفيّا التي يعرفها الجميع.

قالت إنّ خوفها الأكبر هو ألّا تستطيع مواجهة أولئك الذين يريدون إيذاءها، ألّا تعينها قوتها على حضور حفل الزفاف. لا يمكنها أن تترك تلك الحشرات تفعل بها ما تشاء ثمّ تفلت من العقاب. ليس ذنبها أنّهم يؤمنون بشياطين وسحر أسود، وإذا كان هذا هو السبيل الوحيد لكي تجعلهم يتركونها وشأنها، فلا بدّ من علاجهم بشيء من دوائها.

1- Plexo solar أو الضفيرة البطنية أو الحشويّة. وهي شبكة معقدة من الأعصاب تقع خلف المعدة.

– عليك أن تساعديني، شينتال. صفي لي ما يزيل أوجاعي – قالت صوفيّا، وعادت تستند إلى الوسائد وتحرّك رأسها، من جانب إلى آخر، يائسة، فهي تشعر بموجات من الغثيان تسحق عظامها وعزيمتها.

أغلقت شينتال عينيها ومرّرت يدها على ذراع صوفيا. الغرفة مشحونة بالعزلة. من شقوق النافذة يمكن رؤية بياض الضوء الساطع في مقابل عتمة الداخل. المرأتان صامتتان وساكنتان، تحاول إحداهما تهدئة معدتها، وتفكّر الثانية، العجوز، أن لا علاج للأوجاع غير سلام الروح؛ ولا شيء أسوأ من القلق لإطلاق عصارات البدن الحامضيّة.

– الحياة الجديدة، صوفيّا، ترفض الأفكار القاتمة. ما تشعرين به هو حياة ابنتك التي ترفض الأخلاط الرديئة. إذا أردتِ أن يختفي الغثيان، فعليكِ أن تهدأي وتتركي هذه الغرفة المظلمة وتخرجي من هذا السبات. ابنتك تطلب منكِ أن تتشمسي – قالت شينتال أخيراً، وهي تفتح عينيها.

هزّت صوفيّا رأسَها ثانية معبّرة عن عجزها. وتعقّد شعرُها المجعد على الوسادة.

– بي من السخط ما لا يسمح لي أن أكون سعيدة.

– هوّني عليك؟ لا أحدَ ممّن يريدون إيذاءك يستأهل أن تعاني من أجله. ألا تدركين أنّ هذا هو ما يسعون إليه؟ عليكِ أن تتجاوزي ألمكِ، وتنهضي، وتستحمّي بماء القرفة، وتتمشي في المزرعة، وسترين غداً أنكِ أصبحتِ أحسنَ حالاً. أريدكِ أن تجلسي على السرير وتخلعي قميص نومك.

– ماذا ستفعلين؟ – سألت صوفيا.

– سأمنحكِ الحماية.

أخرجت شينتال القارورة التي تخبئها في صدرها، وراحت تبلل أصابعها وتمرّرها على عمود صوفيّا الفقري، وهي تتمتم بكلماتٍ غير مفهومة.

-30-

تستطيع صوفيّا أن تقطعَ الطريقَ بين عزبة (الإنكانتو) ومزرعة رينيه، معصوبة العينين. فهي تعرفه كما تعرف راحة يدها، من كثرة ما قطعته جيئة وذهاباً، بصحبة فرناندو، وهو ممسكٌ بلجام حصانها. إنّه دربٌ يخترق أرضاً مزروعة، على جانبيها، بشجيرات البنّ، فضلاً عن أشجار المندرين والموز والسامانيا. في السماء الصافية، المرصعة بالنجوم، يضيء القمر في تربيع متناقص، محاطاً بهالة برتقالية غريبة. الصيف في نيكاراغوا موسمُ رياح وأعاصير، لكنّ رياح هذه الليلة ساكنة، والأجواءُ مشحونة، يقطعها نباح كلابٍ بعيد.

حاول فاوستو ثني صوفيّا عن الفكرة، لكنّها لم تقتنع بحججه. فحملها سائقها، سيكستو، في *الجيب* إلى حفل زفاف رينيه وخيرترودِس.

«يا لها من ليلة للزواج!»، فكّرت صوفيّا، وهي تحسّ ثقل الجوّ وسكون الهواء، العاجز حتّى عن تحريك أوراق الأشجار. لقد حكت لها شينتال شيئاً عن الهالات البرتقالية المحيطة بالقمر، لكنّها لا تذكر ما قالته.

تُسمع، من بعيد، موسيقى الحفلة، وتصطفّ السيّارات، عند حافة الطريق.

– اتركني عند البوابة الخلفية – قالت صوفيّا.

مرّت سيارة *الجيب* من أمام البوابة المشرعة، وواصلت سيرَها في الطريق المحيط بالمنزل، حتّى طلبتْ صوفيّا من سائقها التوقف. نزلت وأمرت سيكستو بانتظارها عند البوابة الأمامية.

– سيّدتي –قال لها سيكستو، قبل أن ينفذ أمرها–. أعلم أنكِ لا تحبين

أن أكرّر عليك بالنصيحة، ولكن احذري... فرينيه رجلٌ شرير، وهو مستعد لفعل أيّ شيء.

– لن يهنأ له بال –ردّت عليه صوفيّا–. لا تقلق، فلن يحدث لي مكروه.

انصرف السائق، وسارت هي بخطى واثقة. في نهاية الباحة، تحت شجرة لوز، وقف عددٌ من الموظفين يتجاذبون أطراف الحديث. لكنّهم صمتوا ما إن رأوها تمرّ. وكان الأب پيو أوّلَ من رأت. رأته يجتاز غرفة الطعام في طريقه إلى المخرج الخلفي.

– عجباً، أبانا –بادرته، قبل أن يفوق من دهشته–، أتبارك المذنبين الخطّائين؟

لم يحرِ الراهب جواباً. واصلت هي طريقها، بينما ظلّ رجلُ الدين ينتظر أن يفيق من صدمته. ماذا تفعل هذه؟ تساءل، وما الذي جاء بها إلى هنا هذا اليوم؟ يا لها من فتاة جريئة! ولماذا تلومه، كأنه لا يعرف ماذا يحتّم عليه واجبه تجاه أتباعه! من الأفضل أن يعود ليرى ماذا تخطط تلك الروح الضالّة!

رُتّب للحفلِ أن يُقام في باحة البيت الأماميّة. ودُعي له جيرانٌ وأصدقاء، من البلدة ومن المناطق القريبة، بينما حضر، من ماناغوا، معارفُ خيرترودِس، ومن (ماسايا) عوائلُ تربطهم مصالح تجاريّة برينيه. شارك المدعوون في ترتيب الطاولات، بينما وقف آخرون في الممرّ، قريباً من مكان تناول المشروبات. إلى اليمين، عند السور الذي أمر رينيه ببنائه، أقيمت منصّة اعتلتها الفرقة الموسيقيّة، ومنها راحت تعزف ألحانها. شغل الراقصون الحيّزَ الأكبرَ من الباحة، وراح المحتفلون ينشطون ويصخبون. أمّا صوفيّا، فقد كانت تتحرّك وتهزّ رأسها بالتحيّة للحضور، كأنّها تتحرّك في بيتها وبين ناسها.

– مرحباً، دونيا بيرونيكا

– كيف حالكِ، دونيا نيديا؟

– مسرورة برؤيتكَ، دون پروديثيو.

بمرورها، تناوب الهمسُ والهمهمات؛ صمتٌ مردّه الخوف، إيماءات استغراب، لحظات من الشكّ، لقمٌ لا تصل إلى الأفواه، وضيوفٌ يحاولون

ألّا يشرقوا بما يشربون. راح الناسُ يفسحون الطريق وهم لا يعرفون إلى من تتوجّه عينا الفهد المخادع تلك. لمحت صوفيّا پاتروثينيو من بعيد. لم ترها هذه، فقد كانت تخوض دردشة ساخنة. لكنّ حسّ النادلة فيها نبّهها إلى أنّ شيئاً غريباً يحدث؛ فقد تراجع المدعوون، من سكان البلدة، الذين كانوا يقفون في الممر، نحو الحائط، وتوجّهت أنظارهم، مذهولة، نحو نقطة قريبة من منصّة الفرقة الموسيقيّة، بينما واصل مدعوو ماناغوا حديثهم، غافلين.

– سأذهب لأرى ماذا يحدث –قالت پاتروثينيو لزوجها–. لقد حضر شخصٌ ما. انظر كيف ينظر أولئك.

– هي امرأة جميلة، پاتروثينيو –قال كريستينثيو–. ما شأنكِ أنتِ؟

جادلت قليلاً، ثمّ زيّنت لها فرحتها، أنّ شخصاً مّا يتّجه نحو حلقة الرقص، فعادت إلى الدردشة. لكنّها لم تستطع التركيز، لأنّ الناس ظلّوا يحدّقون في المرأة التي كانت تتقدم وتدورُ حول الراقصين. لم ينتبه رينيه ولم تنتبه خيرترودِس إلى الضجّة التي أثارها وجود صوفيّا، فقد علا صخبُ الموسيقى على كلّ ضجيج.

صعدت صوفيّا المنصّة، واندست بين العازفين المبتسمين، إذ حسبوها صديقة للعريسين، ترغب في أداء نمرة على شرفهما. وانزعج مغني الجوقة حين طلبت صوفيّا منه، في منتصف الوصلة، أن يترك لها الميكروفون.

راحت خيرترودِس ترقصُ سعيدة، بعد أن سارت الأمور على ما تهوى نفسُها، حتى الأب پيو أبدى مرونة حين بارك زواجهما المدني، بانتظار وصول فسخ الزواج السابق من روما. وها هي خالتها، تجلس عند طاولة الشرف، راضية مطمئنة. وامتدح المدعوون أطباق خيرترودِس. أمّا رينيه، فبدا على خير مزاج، بل لقد أقسم لها أنّه سيحبّها دائماً، ووعدها بشهر عسل دائم، وبسعادة لا يعكّر صفوها معكّر، حتّى لو لم يرزقا، لأي سبب من الأسباب، بالولد.

في حلبة الرقص، راح رينيه يراقص العروس وينقلها، من ناحية إلى أخرى. لمحت خيرترودِس صوفيّا. رأتها تصعد إلى المسرح وتنتزع الميكروفون من يد المغني، الذي بدا مذهولاً. لم يسعفها الوقتُ لإخطار

رينيه، فقد تردّد صوتُ صوفيّا في المكبّرات، يأمر الفرقة الموسيقيّة بالتوقف عن العزف. ظلّ الحاضرون جامدين، فكأنّ المغزلَ الذي وخز إصبع «الأميرة النائمة» في حكاية الأطفال المعروفة، وقتلها، وخزهم.

- أتيتُ لأقولَ لكم إنّكم لن تستطيعوا أن تسلبوني سلامي وراحتي، وهما حقّي -صاحت صوفيّا في الميكروفون-. أمّا مَن يتجرأ على مضايقتي، فسأقلبه حيواناً، وسينتهي به المطاف في المسلخ! أقسم لكم بالشيطان، أشبيني وعزّابي!

كان رينيه هو أوّل من تحرّك. لم يتعرّف، في البداية، على صاحبة الصوت، ولم يفهم سبب نظرات خيرترودِس الذاهلة. لكنّه استشاط غضباً لأنه لم يكن يحمل مسدسه، لكان أنزل الساحرة من عذابها الذي كانت فيه، ولكان قضى عليها وعلى سحرها. لم تحاول خيرترودِس أن تمنع رينيه، الذي قفز إلى خشبة المسرح بطفرة واحدة.

وركض الأب پيو أيضاً، أمّا الضيوف الذين لم يفهموا الموضوع، فقد ظلوا يتلفتون، في حيرة من أمرهم، يبحثون عمّن يشرح لهم ما يحدث. وتوزّع همّ سكان البلدة بين التهديد الذي حلّ على رؤوسهم، والجلبة المستعرة على المنصة. لقد انتزع رينيه من أحد الموسيقيين غيتاره، وانطلق، كالمجنون، والآلة بيده، بقصد أن ينهال بها على رأس صوفيّا، التي تكوّرت على نفسها. وكاد رينيه أن يهوي بالغيتار على رأسها حين هدرت الأرض واهتزّت، فشاع الصراخ بين الحضور، ودبّ الهلعُ بين الرجال والنساء، فانطلقوا يركضون، كالمجانين، نحو البوابات، باحثين عن الطريق المؤدية إلى خارج المزرعة. زلّت قدم الراهب پيو على درجات المنصة، وسقط على الأرض، فلصق وجهه بالتراب وراح يصلّي ويتوسّل بجميع القديسين لكي يحموه. وعمّ الهرج والمرج، وركض الناس مرعوبين في كلّ اتجاه، وعلا صياحُ الرجال والنساء، يوجهون بعضهم بعضاً، للخروج على جناح السرعة؛ شعرت خيرترودِس بالدفعات تأتيها من كلّ ناحية وإلى كلّ اتجاه، لكنّها ظلّت تنظر إلى رينيه، الذي رمى بالغيتار وراح ينظر كالمجنون إلى المدعوين الذين تفرقوا أشتاتاً. أمّا صوفيّا فقد اختفت، فكأنّ الأرضَ ابتلعتها. راحت أشرطة المصابيح تتأرجح، وأباجورات الزجاج ترتجّ مع

اهتزاز الأرض. أمّا پاتروثينيو، التي سمعت مرعوبة كلمات صوفيّا، والتي جاء الزلزالُ مُصدّقاً لشكوكها، فقد تشبثت بالكرسي وركعت على حصى الباحة، وهي تصرخ: «إن كنتَ قوياً، فالربّ أقوى منك. ومنك سينجّيني الأبُ والابن والروح القدس». حاول زوجها أن يُنهضها، فسحبته هي لكي يركع إلى جانبها. كان الزلزال شديداً. إنّه واحدة من تلك الشهقات الدوريّة العنيفة التي تعتري أرض نيكاراغوا كلّ عام، مع ذلك، فقد عكست ردة فعل المحتفلين شعوراً بوقوع كارثة كونية، قدّر الحاضرون أنّها أعنف وأشدّ من تلك التي ضربت ماناغوا عام 1972.

دامت الهزّة ثواني طويلة، وحين انقضت، نظرتْ خيرترودِس إلى الباحة، التي كانت، حتّى دقائق قليلة، مسرحاً لحفلتها، فلم ترَ إلّا كراسيَ مبعثرة وطاولاتٍ مقلوبة ومفارشَ متناثرة وأطباقاً مكسّرة ومناديلَ ورقية تغطّي الأرض. ورأت رينيه جالساً على كرسي، كالسائر في نومه، وهو يحدّق في پاتروثينيو، التي واصلت رسم علامة الصليب، وهي تلوذ بشجرة جوز هند؛ نهض الأب پيو، وهو ينفض قفطانه بيديه، وبدأ الموسيقيون يعودون ويبحثون عن آلاتهم. وهكذا فسدت الحفلة في لحظة، وانتهت الفرحة بمأساة وخراب. اللعنة على صوفيّا وعلى نسل صوفيّا! -قالت خيرترودِس لنفسها-. إنّها لن تغفر لها ما فعلت. سيبدأ الجميع يخافون منها عداها. فليس للشيطان أن يترك شؤونه ويتفرّغ لشؤون صوفيّا! شعرت بساقيها ترتعشان من الغضب والخوف، وسارت نحو رينيه، وقد بدأت تهدأ إذ رأت أنّ الأمور انتهت عند ذلك الحدّ، فما كان قولها لو أنّ زوجها ارتكب جريمة؟ وما كانت ستقول لو أنّ حفلة عرسها أشّرت بداية زياراتٍ دوريّة لزوجها في السجن؟

في طريق العودة إلى (الإنكانتو)، راحت صوفيّا تفكر في السبيل إلى الخروج من تلك الفوضى، وتحاول ترتيب أفكارها. مازالت تشعر بمعدتها تعصرها كلّما تذكرت عيون رينيه المجنونة وهو يرفع الغيتار ويهمّ بالانقضاض عليها، قبيل الهزة العجيبة بثوان. واستعادت صورتها، وكيف أنّها تكوّرت لتتجنّب أن يهوي بالغيتار على ظهرها فيسبب أذى لابنتها. في تلك اللحظة، ندمت على تهوّرها وأقسمت ألّا تتحدى أحداً أو تناصبه

العداء. ولكن، ما أعجب أن تهتزّ الأرضُ في تلك اللحظة بالذات! وسرت القشعريرة في بدنها. أتراه سحر شينتال أم إنّ الطبيعة أرادت أن تحمي ابنتها القابعة في بطنها؟ هي لا تؤمن بالشيطان، لكنّ الهزّة كانت فعلاً سماوياً! إنّها تشعربالامتنان لمن كان وراء تلك الهزّة، كائناً من كان... وتجتر المشاهد فتذكر الناسَ الذين ولّوا الأدبار، والفوضى التي عمّت، والهرجَ الذي ساد. لقد تبخّر الجميع في دقائق قليلة! أمّا هي، فقد ركبت *الجيب* دون أن يراها أحد، بل لم يرها حتّى الذين خرجوا مذعورين ليركبوا سياراتهم أو يمتطوا صهوات خيولهم. شعر سيكستو بالخوف، فقد سمع ما قالته صوفيّا عِبر مكبّر الصوت، ورأى كيف أنّ الزلزال وقع بعد ذلك مباشرة، ليزيل من قلبه بقيّة الشكّ الذي كان يساوره بشأن قوى سيّدته الخارقة. فعزم على أن يوصلها إلى المزرعة ثمّ يتوارى عن الأنظار، إلى غير عودة. في السيارة، راح ينظر إليها، بطارف عينه، وهو يرغب في رسم علامة الصليب على صدره. أمّا هي، فكانت هادئة، وحين رآها تبتسم، ضغط على دواسة الوقود، ثمّ لم تلبث بسمتها أن انقلبت ضحكة مكتومة ثمّ قهقهة. وهنا قالت له: «هل رأيتَ، سيكستو؟ هل رأيتَ كيف خرجوا مذعورين؟ لقد بدوا مثل قطيع هائج من الأغنام...ها قد اقتنعوا بأنّي ساحرة. ولن يجرؤوا على مضايقتي بعد الآن»، واستأنفت الضحك في قهقهة تجمّد لها دمه.

لكنّ صوفيّا كفّت، بعد أيّام، عن أن تضحك. بدأت تعتادها كوابيس مخيفة، تظهر لها فيها شياطينُ ذات حواجب مرفوعة مدببة، لها شبهٌ برينيه، تطاردها وتحاول أن تنتزع منها ابنتها، وكانت عبارة «الشيطانُ إشبيني وعرّابي»، لا تنفكّ تلاحقها، في صحوها ونومها. ويستبدّ بها خوفٌ تتوهمه من كوارث جديدة، وزلازل عنيفة من شأنها أن تهدّ (الإنكانتو) على رأسها فتدفنها تحت جدرانه السميكة. ويختلط خوفُها بخوف عمّال العزبة والمستخدمين، الذين صاروا يبتعدون عنها حين اقترابها ويمتنعون من النظر إلى عينيها، حتّى خادمتها المخلصة، بترونا، تنظر إليها بطرف عينها، متشككة مرتابة. ولم يعد سيكستو إلى العمل، منذ ليلة الهزّة الأرضيّة، وتكرر الشيء نفسه مع عمّال آخرين، فكأنّهم يخشون الهواء المتخم الثقيل الذي يخيّم على العزبة. أمّا فاوستو، فبعد أن لامها على ما دعاه بـ «اندفاعها غير المنطقيّ»، أبلغها بأنّه

ما عاد يتحمّل عدوانية الأهالي، وأنّه سيذهب إلى ماناغوا، لـ «يشمّ الهواء» ويرتاح، فتظاهرت صوفيّا باللامبالاة، وهي تشعر، في داخلها بالخوف.

رفض أصحابُ الحوانيت التعامل معها، وتجنّبت شاحنات الزهور الاقتراب من مزرعتها، حتّى صارت رائحة الورود المتعفنة تملأ أرجاء المنزل مع كلّ هبّة ريح.

تخرج صوفيّا إلى الحقول، هائمة على وجهها، تطاردها كوابيس الليل وتقلقها الشكوك. إنّها لا تجد غير الصدفة تفسيراً مقبولاً للزلزال، ولكن، كيف لها أن تصدّق معتقدات بالية، وكيف لها أن تسمح لقوى شيطانيّة خارقة أن تدخل تفكيرها، حيث تتراقص أمامها أيضاً مخاوفُ خفيّة من أن تظهر بصمات سلالتها، وهي بصمات ترفض الإقرار بها وترفض تصديقها.

بدا كأنّ الهزّة كانت استجابة لتضرّعها إلى الشيطان، الذي حاولت أن تخيف به أهل البلدة. لم يفارق مخيّلتها الذهولُ والفزع اللذان ارتسما على وجه المسكينة خيرترودِس. واختلطت موجات الندم بخوفها القديم من جهلها بأصلها.

لكنّ إنغراثيا ودونيا كارمن ظلّتا تزورانها، وتلحّان عليها بتناول مزيج مياه الينبوع والماء المبارك، كي لا يحشرَ الشيطان نفسَه في جسدها. تشرب المزيج بلا اعتراض، وتأذن لدونيا كارمن برشّ سائلٍ أخضرَ ثخين حول المنزل. في أيام العزلة تلك، انصرفت صوفيّا إلى تذكّر لحظة من طفولتها، حين نزلت من مطلّ (ديريّا) فلم تجد والديها. كم يصعب عليها أن تقاوم الخوف والوحدة. وكم تحتقر أمّها وحظها العاثر، اللذين تركاها بهوية مشوشة، وأجبراها على العيش بدم مختلط يتجاذبها ويجعلها في لجّة من تناقضاتٍ كثيرة وغامضة. في الليل، تضيء أنحاء المنزل، وتحلّ عليها ساعات الفجر وهي تطوف بالممرات أو تجلس في المطبخ، حيث لا تجد ما يسلّيها غير قرب پترونا، النائمة في غرفة الخدمة، وحواراتها الطويلة والصامتة، مع الكائن الذي يستقرّ في أحشائها. لم تجرؤ على الاستعانة بطقوسها الليلية والاستلقاء تحت النجوم، خوفاً من حدوث ظواهر جديدة. تسير والهالات السود تحيط بعينيها، ولا تشتهي الطعام، وحين تشعر بأن

الصمتَ في المنزل بات قاتلاً، تقرر الردّ على مكالمات خيرونيمو، بعد أن كانت قرّرت ألّا تراه ثانية.

– قولي له إنّني غير موجودة، وليتركْ رسالته وسأتصلُ به لاحقاً.

ويعود خيرونيمو إلى أوراقه، وتنقل له سكرتيرته رسالة صوفيا، التي تتصل به، بعد ساعة.

– قولي لها إنّي لم أعُد. وإذا عاودت الاتصال، فأخبريها بأنّي لستُ هنا، ثمّ تعالي لكي أملي عليك رسالة – يوجّه خيرونيمو سكرتيرته، دون أن يغيّر تعبيرات وجهه.

كانت أسابيعَ صعبة على خيرونيمو. في البداية، شعر بالحيرة، إذ فوجئ بأنّها أوكلت إلى فاوستو بجميع اتصالاتها به. وسرعان ما انقلبت حيرته يقيناً، حين تأكّد له أنّ مخاوفه بشأن صوفيّا تتحقق؛ فتلك المرأة، التي لا تحسّ بمشاعر من تطلبهم ساعة حاجتها، تعامله كأنّه كوبٌ من تلك التي تستعمل مرّة واحدة. فبعد أن استنفدت طاقته واختبرت تعلّقه وعاطفته، وبعد أن ارتوت من كأسه، تخلّت عنه، وهو الذي كان على وشك أن يقع في حبها، في «مغامرة خطِرة»، كما كان يقول لنفسه؛ وكان من حسن الحظ أنّها حدّدت المسافة، حين كان يقترب من نقطة اللاعودة، وحين كان يوشك أن يدمن على صوفيّا، فلا يستطيع منها فكاكاً. كانت ستعقّد عليه حياته. إنّه يشعر بأنّه تجاوز الرغبة التي عذبته، في البداية، بل إنّه بات يحظى بترف التفكير دون أن تضغط عليه العواطف، ودون أن تشوّش على تفكيره الغرائز. ومهما يكن من أمر، فالخير كان في ما كان؛ فالحبّ إدمان خطِر لطالما نجح هو في تجنبه، وقد استطاع، في المرات القليلة التي تشوّش فيها فكرُه، أن يطفر الحفرة بمهارة البهلوان المتمرس. مع ذلك، فقد وصل به الأمر، أحياناً، ولا سيّما في السنوات الأخيرة، إلى أنّه شكّ في دوافعه، ولام نفسَه على تردده، وعلى أنّه ينكر على نفسه بُعداً من أبعاد الحياة. كانت لديه صديقة عزيزة ما انفكّت تردّد على مسامعه أنّ مشكلته تكمن في إحجامه عن الانطلاق والإبحار في تلك المحيطات الواسعة، محيطات المشاعر الجامحة التي تضفي على الحياة أجواء المغامرة التي اعتاد أن يهرب منها. ولقد شعرِ

في لحظة مّا بأنّ صوفيّا هي الشخص المناسب لكي ينطلق معه ويتحرر، الشخص الذي يستطيع أن يهبه نعمة المشاعر الرومانسية، ويحمله إلى عالم الاندفاع والجموح، لكنّه توقف في الوقت المناسب؛ أوقفته هي في الوقت المناسب؛ وتكفّلت هي بأن يكتشف الألم المختبئ وراء الغابات المقدسة. كان الشمعُ يصمّ سمعه. وكان مقيداً إلى الصاري، مثل عوليس، مستعداً لعبور كونشيرتات عرائس البحر، وانتظار پينيلوپي حقيقيّة، تنسج حقاً، ليلة بعد ليلة، بمثابرة تجعل الرحلة تستحقّ عناءها. بل لقد بدأ يعتقد أن لوثيا، زوجته، كانت تلك الپينيلوپي التي كان يبحث عنها في الأخريات. أمّا صوفيا، فقد كانت فصلاً مغلقاً. ولن يتكفّل بعد الآن بدعاواها وقضاياها. لقد عزم على أن يمدّ بحوراً بينه وبينها، وهو رجلٌ إذا قال فعل.

دخلت السكرتيرة وبيدها دفتر الملاحظات. شابة مبتذلة الهندام، إلى حدّ مّا، تربطها بخيرونيمو علاقة مُشفرة: تعرف بمغامراته، لكنّها تغضّ الطرف عنها. علاقة مناسبة للطرفين.

– اكتبي رسالة إلى السيدة سولانو – قال خيرونيمو. أريدكِ أن تخبريها بأنّ مكتبنا قد وقّع عقود عملٍ وارتبط بالتزامات مع العديد من الشركات، وهذا يقتضي عملاً يفوق قدرات المكتب، لذلك أعتذرُ عن مواصلة التكفّل بالدعاوى الخاصة بأملاكها. ولترسلْ بالسيد فاوستو راموس لتسلم الملفات والوثائق التي بحوزتنا. أنتِ تعرفين كيف تكتبين الرسائل في مثل هذه الحالات.

هزّت السكرتيرة رأسها، فرحانة في داخلها، فها هو خيرونيمو يغلق تلك القضيّة التي أفسدت روتين مكتبهم المريح.

ثارت ثائرة صوفيّا لأنّ خيرونيمو لا يردّ على مكالماتها الهاتفيّة. أمّا شعورها بالضيق من أنّ الشيطان عرّابها، ومن أنّه يوشك على الدخول في جسدها، فقد صبّ في موجة من الغضب، حين تلقّت تلك الرسالة المكتوبة بلغة قانونيّة ورسميّة.

رأتها پترونا تفتح الظرف، بوجه المستطلع. ثمّ لم تلبث المفاجاة أن انقلبت غضباً.

– من يظنّ هذا الغبي نفسه؟ هل يعتقد أنّه يستطيع أن يرمي بي هكذا! يا له من مرتزق، وقد قلتُ ذلك لفاوستو: فها هو يسحب نفسه، بعد أن انتهت العمولات الدسمة!

صحيح أنّ پترونا لم تفهم شيئاً ممّا قالته سيدتُها، لكنّها تعلم أنّ الغضب يضرّ بالحامل. رجتها أن تهدأ، وذهبت لإحضار كوبٍ من الماء، لكنّ هذه دفعتها، وراحت تصبّ كلّ ما في قاموسها من سباب على خيرونيمو، وتصفه بأنّه قليلُ الأدب وابنُ عاهرة وناكرٌ للجميل ووقحٌ واستغلالي. كانت تذرع الممرّ وتلعن، والرسالة في يدها، بينما وقفت پترونا خرساء غير مدركة سبب كلّ هذا الغضب.

مع ذلك، فقد كان لما حدث فائدته ونفعه، فقد أعاد صوفيّا إلى واقعها، فما عادت تلك المرأة الشبح، التي تمشي في نومها وقد تلبّسها الشيطان.

ظلّت پترونا في مكانها، تحمل كأس الماء، ترثي لحال سيدتها وتراقبُها، وهي تشكو الخيانة والجحود. لطالما تصوّرت الخادمة والدة صوفيّا امرأة متمرّدة جامحة، وأنّى لنا أن نعرف في أيّة لحظة غضب تخلّت عن البنت! ربّما هذه هي طبيعة الغجر، ينفجرون كأنّ ناراً تسري في عروقهم، لكنّه طبعٌ لا يناسب البلدة التي حلّت فيها. ربّما ستهدأ ويروق طبعها حين تضع مولودها.

– افتحي الماء في الحوض، سأستحم –أمرتها صوفيّا–. لن أحرق المزيد من أعصابي. فهي أغلى من أن أحرقها لأجل محامٍ تافه!

-31-

لطالما شعرتْ صوفيّا بالحاجة إلى الاستحمام. فجسمها يفرز من العرق ما تضيق به نفسُها، ويحمرّ له لونُها. غضبٌ ويأس. وفي الحمام، تكسر عطوراً وفخاراً ومزهريات، وتتشقّق بشرتُها من كثرة الحكّ والفرك، وما أكثر ما نتفت شعرها من إحباط سببه حيرتها وجهلها بالجهة التي عليها أن تصوّب إليها سهام غضبها المكبوت، الذي ما انفكّ يداهمها ليلَ نهار، مثل سرب هائج من الدبابير.

في رأسها، يتحوّل خيرونيمو إلى كائن مقيت، حرفَ مسارَ حياتها نحو المجهول، لذلك فهي تلقي عليه باللائمة في كلّ ما أصابها: تحمّله ذنبَ الوحدة التي تعيشها، ونفور المحيطين بها؛ تنظر، أحياناً، إلى بطنها البارزة، وتضيق بجسمها الذي تشوّه. يعذبها التفكيرُ في أنّها تحمل بكائنٍ من صُلب رجل تكرهه. لكنّها تحاول تجاهله، وطمأنَة نفسها بأنّه لن يستطيع إيذاءها ولا أن يُفسد علاقتها بابنتها. وأقسمت ألّا تعرفَ البنتُ أباها. صحيح أنها تحاول ألا تفكر فيه، لكنّها ترى، في كلّ ناحية، صورته، التي يضاعف الحقدُ حجمَها، حتّى شعرت، عقب أسابيع، بأنّ تحوّلاتٍ غريبة تحلّ محلّ سخطها وغضبها؛ لقد أفسح الغضبُ مكاناً لكآبة تسحقها وتكاد تشلّها، فتعود، وهي على ذلك الضيق، إلى التفكير في نفسها، وتبكي حزناً على حياتها الموسومة بالفراق والهجر، وتبكي من قسوة قلب أمّها، وتحسّ بأنّ الوحدة باتت قدرها، بعد أن كان خيرونيمو الوحيد القادر على تخليصها منها. ولئن لم تلتفت، من قبل، إلى شعورها بالحب نحوه، فها هي ترى في نفسها ما تراه حبيبة هجرها محبوبها. ومن خلال الصدوع التي خلّفتها خيبة الأمل، تطلّ ذكريات أيّامها معه مصبوغة بلون الدغدغات التي يصبغ الشوقُ بها الذاكرة.

لقد نسيت، في أقل من شهر، كيف خطّطت، وبكلّ برود، لإغواء خيرونيمو، وها هي تقنع نفسها بأنّ ما حدث صدر عن حبٍ، لكنّ خوفها هو ما يحول دون أن تعترف به. إنّها مغرمة بخيرونيمو، وهي نادمة على أنّها لم تحسن التعبير عن مشاعرها التي تجزم الآن أنّها تشعر بها نحوه.

– إنّ ما فعله بي، فاوستو، ليس له اسم! تمرّ الأيام وأنا لا أصدق ذلك! أنا يائسة...

عاد فاوستو إلى عمله في المزرعة، بعد إجازة قصيرة، فصوفيّا لا تريد أن تعرف شيئاً عن أمور العمل. استمع إليها وهي تحكي له، بين دموع وزفرات، قصّة حبها، الذي مزقته قسوة خيرونيمو.

– لكنّكِ لم تحبيه... – قاطعها فاوستو، لكنّها لم تفسح له، ولم تكفّ عن التلميح له بأنّه أعمى؛ هي نفسها لم تكن تعلم بمبلغ حبّها له، قالت له. «لا أحدَ يعرف قيمة ما يملك حتى يفقدَه»، كررتْ، بينما التزم فاوستو الصمت، وراح ينظر إليها، ويفكّر في السبيل إلى إعادتها إلى الواقع. كان وجه صوفيّا الهزيلُ الشاحبُ صورةً للخراب، وكانت تقاسيمه وألوانه تكتسي، مع الوقت، مسحة عتبٍ حزين لامرأة تلقى الرفض الذكوري الوحشي جزاء على كلّ ما قدّمت وبذلت.

– أنتَ أعرف، فاوستو، بالرجال، ولهذا فأنتَ تحبّهم... وتعرف ما عانيته مع رينيه، وانظر الآن إلى ما أعانيه من خيرونيمو؛ أرسلَ لي رسالة كلّها رسميّات، وما زال لا يردّ على مكالماتي... وأنا حاملٌ منه! أشعر أنّي سأموت – قالت وأجهشت بالبكاء.

يُصاب فاوستو بالحيرة. إنّه يحاول فهم الآليات التي تحكم تفكير صوفيّا، التي تسعى الآن إلى إيهامه بأنّها ضحية. فلا بدّ من انتشالها من أنانيتها المقيتة. فهي أنانيّة بطبعها، وهذه هي طريقتها في حماية نفسها. ولطالما حاول أن يُفهمها أنّ الناسَ، في هذه الدنيا، ليسوا بيادق تُضحّي بهم تباعاً للوصول إلى نهاية اللعبة وبلوغ مرحلة الـ*كش ملك*. لكنّها لم تستمع إليه، لأنّها ترى فيه شخصاً «متقلباً وساذجاً وأنثويّ المشاعر». إنّه على ثقة من أنّ أسطوانة الحبّ هذه ما هي إلّا بحثٌ يائس عن وجهٍ لطيف للمرآة التي

شوّهت هي صورتها، وردٌّ ينقذها من لعنة الفراق التي تطاردها منذ طفولتها، والتي باتت تراها السبب في سلوك خيرونيمو، كما كانت، من قبلُ، السبب في موت إيولاليا ودون رامون. إنّ أشباحها تمنعها من الإقرار بأنّ الذين لا يرتضون العيش إلّا في عالم مفصّل على مقاسهم، لن يكون مصيرهم غير أن يعيشوا في العزلة.

– ماذا يمكنني أن أفعل؟ ما رأيك؟ –سألتْه، وهي تنظر إليه بعينين نديّتين. وانحنت لتمسك بيده–. لطالما رأيتَ أنّي قاسية، فاوستو، أعرف ذلك، لكنّي لستُ كذلك، صدّقني، أرجوك. انظرْ كيف أصبحتُ! فأنا لا أشتهي حتى الأكل!

أخذ فاوستو يد صوفيّا وعصرها بقوة. إنه يحبّها، وقد أحبّها منذ مراهقته، ويؤلمه أن يراها تائهة وعاجزة عن إدراك اللعبة القاتلة التي تجري في داخلها، لعبة الهوية الغامضة.

– أعتقد أنّ عليكِ أن تهدئي وتتخطي هذه الحالة –قال لها–. لا يمكن لأحد أن يجبر أحداً على أن يحبّه. ستتجاوزين المحنة. امنحي هذا الحبّ لابنك. من أجله عليك أن تتغذّي، ومن أجله عليك ألّا تُمضي أيامك كئيبة يائسة هكذا.

– لكنّي متأكدة من أنّه يحبّني، فاوستو. كان ذلك خطأي؛ فقد أشعرتُه بأنّي غيرُ مهتمّة... عليّ أن أذهبَ إليه، وأن أشرحَ له. وعليه أن يفهمني، فهو يحبّني. – ظلّت صوفيّا صامتة، تقلّب أفكارها لجبر ما انكسر. وبهذا الهوس صارت تمضي معظم ساعات يومها.

نظر فاوستو إليها. إنّه يعلم أنّها اتخذت القرار، ويعلم أن لا شيء يثنيها عمّا قرّرت.

أنهى الأب پيو قدّاس السادسة صباحاً، وراح يتفقّد أرجاء الكنيسة، كما تتفقّد ربّة البيت بيتَها، فمن شموع استُهلكت هنا، أو ثياب انكشفت عن مقدّسٍ هناك. نَعِم الراهب، الليلة البارحة، بنوم هانئ، وكان اتصاله بالربّ، في قدّاس هذا الصباح، فعلَ محبّة غمره بشعورٍ من الرضا والسلام. وبعدَ ساعاتٍ قليلة، سيتقاطر الأطفالُ على الكنيسة ليتلقّوا تعليمهم المسيحي،

فأمامه، إذاً، أن يستمتع بحالة الوحدة والسكينة التي يعيشها. كان من انغماسه في وحدته وسكينته، مدندناً بالمزامير والأمجاد، أنّه لم يسمع وقع خطوات تقدمت من خلفه. وحين استدار، انقلب أمنُه خوفاً: إنّها صوفيّا، ترتدي السواد، وقد بدت عليها واضحة، علاماتُ الحمل. ركعت عند واحدة من المصاطب الخلفية.

أصابت الحيرة الأب پيو، لحظة، لكنّ بزّة الكاهن كانت أقوى من المفاجأة، فتوجّه نحوها، وهو يفكّر أنّ عليه أن ينتهز الفرصة ويُعيد الابنة الضالة إلى الحظيرة.

- صباح الخير، صوفيّا.

- صباح الخير، أبونا - حيته من على المصطبة

- هل من خدمة أقدّمها لكِ، بنيّتي؟ منذ وقتٍ طويل وأنتِ لا تأتين للاعتراف.

- جئتُ لأصلح علاقتي بالربّ -قالت له-. أعلم أنّ حضرتك أيضاً تعتقد أنّ الشيطان استحوذ عليّ بعد أن تركني الغجر، لكنّه هو وحده - وأشارت إلى الرجل المعلّق على الصليب- يعرف الحقيقة.

- لكنّ الربّ أرسى قواعده، صوفيّا. فلا فائدة من الصلاة دون الاعتراف.

- أنتَ إنسان، أيّها الراهب. وطالما قلتَ إنّ الربّ موجودٌ في داخلنا. كلّ ما أطلبه منك هو أن تتركني وحدي في الكنيسة. هذا كلّ ما أحتاجه.

- صحيحٌ أنّه يسكن داخل كلّ منّا، يا ابنتي، ولكن، ولكي تتأكّدي من أنّه لم يفارقكِ بفعل قِوى أرادت أن تؤذيك وتبعدكِ عنه، فعليكِ أن تسمحي لي بأن أقوم بعملي وأن أمسح عليك بالزيوت.

أدركتْ صوفيّا أنّ الأبَ يريد أن ينتهز وجودها ليطرد عنها الأرواح الشريرة. حدّقت فيه، وكانت على وشك أن تنصرف عنه غاضبة، لكنّها رأت، في لحظة هدوء، أنّ ذلك قد يعود عليها بالنفع. فإن لم يفلح الأب پيو في صبّ اللعنات على الشياطين وإخراجها من جسدها، فإنّه سيُعلم الجميع بما جرى وما رأى، وستجد هي في ذلك ما يحمل إليها الهدوء، وعندها ستنسى المخاوف التي طالما أقلقتها والتي قد تكون السبب في نفور خيرونيمو وابتعاده عنها.

ظلّت صوفيّا مطرقة، لبضع دقائق، تفكّر، ثم قالت وقد حسمت أمرَها:

- اذهب واجلب زيوتك. سأنتظرك هنا.

نسي الراهب هدوءه وسلامه، وانطلق، بخطى متوترة، إلى الداخل، وهو يدعو الربّ ألا يريه مشاهد مخيفة من طرد الأرواح، لم يرها إلّا في الأفلام؛ وتوسّل إلى الربّ ألّا يكون الشيطانُ الذي يتلبّس صوفيّا، إن كان في داخلها شيطان، عصيّاً، وأن يخرج من جسمها بسلام.

ظلّت صوفيّا هادئة في مكانها، تنظر إلى وجوه القديسين وهم يرجون التوبة والهداية للمؤمنين. في الشارع، وخلافاً لبرودة الكنيسة، كانت الشمس تلهب الرصيف. راحت صوفيّا تفرك ذراعيها وتشعر بدغدغات القلق والعصبية تسري في بدنها. ليس ما يقلقها هي فكرة الشياطين، التي لا يستوعبها عقلها، ما يقلقها هي معتقدات الناس، الذين ينغّصون عليها حياتها، لكنّ المناطق المعتمة من رأسها تضطرب فتثير في ذهنها تساؤلات، وتعرض في مخيلتها صرخاتٍ مروعة يطلقها الشيطان المريد، الحبيس، الذي سيثير الراهب پيو غضبه بتحذيراته والذي سيجعله يهزّ رأسه مثل تلك المرأة التي تظهر في الفيلم وهي تمجّ قيئاً أخضر من فمها. «يا له من جنون»، تقول لنفسها، لكنّ قلبها يمتثل للخوف ويسرع في دقاته حتّى يتردد نبضه في سمعها.

بحث الأبُ پيو في غرفة حفظ المقدسات عن الزيوت، لكنّه لم يعثر إلّا على زيت المسحة الأخيرة. وما الفرق بين الموت وطرد الشيطان! تناول مرشّ الماء المقدس والوشاح وكتاب القدّاس، حيث ترِدُ أدعية طرد الأرواح الشريرة، ورسم على صدره علامة الصليب، مبتهلاً إلى الربّ أن ينوّر له بصيرته لإنقاذ الروح التي جاءت بها الرحمة الإلهيّة إلى الكنيسة، ثمّ عاد، قاطعاً صحن المعبد، وهو يثني قامته احتراماً وتوقيراً.

اقتربت صوفيا بإشارة من الراهب، وصعد الاثنان إلى قريبٍ من المذبح. حمل الأب پيو على كتفه وشاحاً أرجوانيّاً، وفي يده إناءً من الماء المقدّس، وعصا قصيرة للرشّ. وضع كتّاب القداس على الدرابزين، وراح يردّد الصلوات على مسمع من صوفيّا، الجاثية أمامه. لاحظت ارتجاف يديه،

ولاحظت كيف أنّه يرفع، بين الفينة والفينة، عينيه عن الكتاب ليتأكد من أنّها لا تزال على وضعها، تنكّس رأسَها وتنظر إلى بلاط أرضيّة الكنيسة المنقوش. تمضي الدقائق بطيئة، ويشعر قلبُ صوفيا بالهدوء. ما عادت تشعر إلّا بحركات الجنين، الذي كان يخفق في أحشائها؛ فما من شيطان يطاردها غير صورة خيرونيمو، وهذا هو ما جاء بها إلى الكنيسة لإصلاح ذاتِ بينِها مع الربّ والتخفيف من قلقها. وهدأ الأب پيو أيضاً، ولم تعد يداه ترتجفان. كان للشيطان أن يهرّ ويزمجر من أول رشة ماءٍ مقدس على جسدها لو كان بها مسّ منه، لكنّ صوفيّا ظلت في مكانها، ثابتة، بلا حراك. وحين انتهى الراهبُ من لعناته وتحذيراته، نظر إلى صوفيّا مطوّلاً. وظلّ الاثنان يتبادلان النظر وينتظران، خائفين. وزاد صمتُ الكنيسة البارد من أجواء التوتر، لكنّ الدقائق مرّت ولم يحدث ما يحرّك الوقت في الحرم المقدّس. خاطب الأب پيو صوفيّا مُبدياً رضاه أن لم يعلن أيّ شيطان عن نفسه. ثمّ رفع ذراعيه وباركها، وقال لها إنّ في إمكانها أن تذهب بسلام وتصلي مطمئنّة في الكنيسة، أمّا هو، فعليه أن ينصرف لأنّ الأطفال بدأوا يتوافدون لحضور دروسهم الدينيّة.

– ها قد رأيت، أبانا. لقد أخبرتُك بأنّ مشكلتي ليست الشيطان، بل إنّ حبّاً من طرف واحد يكاد يقتلني. – لم تنتظر ردّ الراهب، بل رسمت على صدرها علامة الصليب وتوجهت إلى نهاية الكنيسة، وجثت على المصطبة وحنت رأسها، كأنّها عادت للتوّ من تناول القربان.

لم يجد الراهب پيو ما يقوله لصوفيّا، كما لم يجد ما يفسّر له نبرة كلامها المتلوّنة. فمنذ أن وصلت، وهو لا يدري إن كانت جاءت تائبة، أم مرتدّة، أم يائسة، أم إنّ كلّ ما رآه وهمٌ من صنع خياله. صوفيّا الوحيدة التي يعرفها ويميّزها هي تلك التي رفضت الاعتراف حين عرضه عليها، وأصرّت أن يكون اتصالها بالربّ مباشراً، أمّا قبولها بتحذير الشيطان وانصرافها للصلاة واعترافها بحبّ من طرف واحد، فأمور لا يفهمها. ما أغرب طرق الربّ وما أعجبها، فكّر وهو يخلع، في غرفة المقدسات، عدّة الشغل.

– قلتُ لكِ إنّ الأب پيو أكّد بعظمة لسانه أنّ صوفيا غير ممسوسة من الشيطان – ردّدت إنغراثيا القول لپاتروثينيو، التي التقتها في ساحة البلدة،

حيث يقام، كلّ صباح، سوق الفواكه والخضروات. وكشأنها دائماً، لم تستطع پاتروثينيو أن تكبح رغبتها في الكلام، أمام إنغراثيا، عن التحالفات الشيطانيّة لمحسوبتها القديمة.

– للأب پيو أن يقيم قداساً، ولكن ليس في مقدوره، لا هو ولا غيره، أن يكذّب ما رأيتُه أنا بهاتين العينين اللتين سيأكلهما الدود. وما أدراك أيّ عملٍ عملته لمنع الراهب من رؤية الشياطين! أنا لا أستطيع بلع تلك الحكاية ولا بعسل كلّ نحل العالم.

– ما أطيبَ قلبَكِ، دونيا إنغراثيا –قالت بيّاعة أخرى–. أنا لا أعرف إن كان الشيطان مسّ صوفيّا أم لا، لكنّي أعرف أنّها ساحرة، ومن الخبيثات الشريرات، وهو شيء لا تستطيعين نكرانه! هل نسيتِ أنّها جعلت الأرضَ تميد بنا؟ أراكِ أسوأ مقالاً من دونيا خيرترودِس، التي أمرت بصلاة شكر للربّ على أن قيّض الهزّة، وإلّا كان دون رينيه يقبع الآن في السجن بتهمة قتل الساحرة!

– ها أنتم ترون، فكأنّ الربّ قصد بالهزّة حمايتها –تشجعت إنغراثيا–، فقد ظلموا صوفيّا المسكينة منذ أن كانت طفلة صغيرة، وحمّلوها وزرَ أمّها!

– قولوا لها ألّا تفكّر حتى بالاقتراب منّي –قالت پاتروثينيو–. لقد نذرتُ أن أوقد كلّ يوم شمعة للعذراء كي تبعدها عن طريقي... والأدهى من ذلك أنّها تعاني، يقولون، من لواعج الحبّ! من المؤكد أنّها تحاول أن توهمنا بأنّ من أخصبها هو المحامي لا الشيطان!

– ما أقبح لسانك، پاتروثينيو، –نهرتْها إنغراثيا–. فلا غرابة، إذاً، في أن يضيع الرجالُ في حانتك! أنتِ من يجب أن يرحل من هنا، لتختفي كلّ هذه العربدة! ألا ترين الفضائح التي يثيرها زبائنك، الذين تسقينهم السم، ليعودوا إلى بيوتهم ويفعلوا الأفاعيل بنسائهم المسكينات!

استدارت إنغراثيا غاضبة، وابتعدت، وهي تحمل سلّتها، تاركة پاتروثينيو على أسوأ حال، بعد أن أفقدتها معرفتها بحقيقة تلك الكلمات مبادرتها المعتادة في الردّ. بات يصعب على إنغراثيا السكوت. بل صارت، منذ أن أخبرها الأب پيو بذهاب صوفيّا إلى الكنيسة، أقوى حجّة في الدفاع عن

صاحبتها، ساعة تستعر المجادلات، وما أكثر ما استعرت في البلدة عقب الزلزال. خفّت حدّة التعليقات، لكنّ الأخبار الواردة من الكنيسة لم تجمّل صورة صوفيّا، ولم تقلّل الخوف منها. قليلون هم من كانوا يقتربون من (الإنكانتو)، وكثيرون هم من كانوا يتجنبون صوفيّا، أو ينتقلون للسير على رصيفٍ غير الذي تسير هي عليه.

– أحتاج مساعدتكِ، شينتال. إن لم يكلمني هذا الرجل، فسأجنّ. أتصلُ به يومياً، ولا يردّ. أريدُ أن أذهب إليه، لكنّي خائفة؛ لا بدّ أن أذهب إليه وأنا مستعدة. وماذا سأفعل إن ردّني خائبة؟

لم ترفع شينتال، المنهمكة في تحضير خلطة من خلطاتها، رأسها، بل نظرت، بطرف عينها، إلى قارورة السائل الأزرق الذي حاولت به، مرّة، تخليص صوفيّا من هواجسها وعذاباتها. لم تتوقف صوفيّا عن الحركة، بل كانت تسير في المطبخ جيئة وذهاباً، وهي تمسك بطنها، فكأنّها تؤلمها.

– أراكِ تضعين يدكِ على بطنك، هل تشكين من أيّة متاعب؟ – سألت شينتال.

– يركلني طوالَ اليوم –ردّت صوفيّا–. ساعديني، شينتال، أرجوكِ! خيرونيمو هو مصدر متاعبي.

– القدرُ مكتوب، ولا يمكن التلاعبُ به.

– لكنكِ تعرفين المكتوب –لامتها صوفيّا–. فلماذا لا تخبريني به؟

– إنّه مشوّش. وأنتِ الوحيدة القادرة على تقويم مساره.

جلستْ صوفيّا على الكرسي ومدّت ساقيها، دون أن تكفّ عن لمس بطنها.

– هذا الرجل هو الشيطان بعينه، شينتال. عمل لي سحراً، وما عدتُ قادرة على نسيانه. ذهبتُ إلى ماناغوا واقتربتُ من مكتبه. رأيته من بعيد، لكنّي لم أجرؤ على الاقتراب منه. لا أعرف لماذا أخافه إلى هذه الدرجة. كلّ ليلة أرى نفسي في المنام علجوماً، وأراه هو، وهو يحاول سحقي.

– لكنّكِ لستِ علجوماً.

- أنا لستُ علجوماً، أنا ضفدعة قبيحة ومقرفة... إذا كانت أمي لم تحببني، فكيف للآخرين أن يحبوني! أنا ملعونة، شينتال. هذه هي خلاصة الكلام. ولهذا، لا أحدَ يحبني. حتى الطفل الذي في بطني لا يكفّ عن ركلي!

«إنّها ضائعة»، فكّرت شينتال، وهي تنظر إلى أوراق زهور السدم، في أصصها، والنسيم يحركها. جففتْ يديها بمئزرها وجلست إلى جوار صوفيّا. ما أكثر ما رأت شينتال في حياتها ما يفعله الحبّ، مع ذلك، فالأسوأ هو حين تنكسر المرآة فلا يعود المرء قادراً على رؤية صورته. حين يموت المرء في نظر آخر، يبدأ موته في نظر نفسه، وهذا هو أسوأ الموت.

- سأعطيك علاجاً -قالت شينتال، بعد أن ظلت المرأتان، طوال برهة، صامتتين-. خذي سبعاً وثلاثين وردة وابدأي بنزع بتلاتها. ضعي البتلات في ماء مغليّ حتّى تتحلل. استحمّي بهذا الماء الساعة التاسعة مساءً من كلّ إثنين وأربعاء وجمعة. وأنتِ تستحمين، عليكِ -وهذا هو الشيء الأهم- أن تتذكري حدثاً سعيداً مرّ عليكِ في حياتك؛ ستجدين نفسك سعيدة وجميلة، وستنعمين بهذا الشعور، طوال مدة الحمّام.

- وخيرونيمو؟

- اتركي الآن خيرونيمو، لا تتصلي به ولا تبحثي عنه.

كيف لا تتصل به؟ سألت صوفيّا نفسها، بينما راحت سيّارة *الجيب* تنطّ وهي تنزل تلّة الـ (موموباچو)، يقودها سائق جديد تعاقد معه فاوستو في ماناغوا. وكيف تستريح قبل أن تقولَ له إنّها تحبّه، وتطلبَ منه ألّا يتخلّى عنها؟ وما نفعُ حمّام ماء الورد والحدث السعيد إن كانت المشكلة لا تتصل بها، بل بخيرونيمو؟ فعلاً، فالمشكلة تتصل بخيرونيمو، الذي لا يكلّف نفسه حتّى رفعَ سماعة الهاتف، ليقول لها شيئاً، فكأنها لا وجود لها... بل إنّه ليفضّل أن تحسبه ميتاً على أن يمنحها فرصة لوداعه. هو أيضاً يسيء الظنّ بها، كالآخرين. إنّها تتمنّى قتله! وهكذا راحت تصوغ، مع نفسها، خطاباتٍ نارية، تمرّنت عليها، لتواجهه بها، لكنّ خوفاً شديداً منعها، في المرات السبع التي ذهبت فيها إلى ماناغوا، بعد أن اعتزمت اقتحام مكتبه ومصارحته برأيها فيه. لقد شلها ذلك الخوف وجعلها تعود أدراجها. لم تكن قادرة على تحمّل

صدوده. لم يرها خيرونيمو حاملاً، وستبدو له قبيحة. لا شكّ أنه سينظر إليها بنفور، وسيشعر نحوها بالشفقة، ولن يلقاها بالنبل الواجب تجاه الحوامل. لذلك فهي تحتاج، أوّلاً، أن تقابله، كي لا يتفاجأ بمظهرها. وربّما أثارت فكرة الأبوّة شيئاً من مشاعره.

كان خيرونيمو قد رفض، قبل أيّام، الكلام عن أيّة أبوّة أو بنوّة. ولم يؤثر فيه وجهُ فاوستو الحزين، وهو يقسم له أنّ صوفيّا تحبّه فعلاً. فليس لأحدٍ أن يجبره على المخاطرة من جديد، وأنّى له أن يخاطر معها وقد بات في يدها دليلُ الجريمة الدامغ، ابتزازٌ بحفاضات، تستطيع، من خلاله، وفي واحدة من نوباتها، أن تطيح بتوازن حياته القلِق، والعودة إلى پينيلوپي، عقب الأوديسيا وحوريّات البحر. لقد بات يتمثّل قول «ربّ ضارة نافعة»، بعد أن وجد في عودته إلى حضن زوجته مكاسب مربحة، فقد انتعشت ذكرياتُ زمن جميل اصفرّ لونها مع الوقت والروتين. وبلغ، هو ولوثيا، من القرب والانسجام ما لم يبلغاه منذ سنين. لقد غذّت علاقته مع صوفيّا، ولوقت طويل، عطشه للمغامرة، وإن كان قد خشيها، في البداية، فإنّ تصوّرها بالسلاح الجبّار الذي يتكوّن في أحشائها، لا يمكن أن يدفعه إلّا إلى اتخاذ قرارات متطرفة، من قبيل رفضه أن يكون والد الطفل الذي تكوّن رغماً عن إرادته، والذي كانت صوفيّا ستخفيه عنه وتتكتّم عليه لولا أنّه تشاغل عنها وابتعد.

– ألا ترى أنّ ما بها هو العناد وليس الحبّ؟ –قاطع فاوستو–. لو لم أرفضها لما قرّرت أن تحبّني! هذه امرأة لا ترضى إلّا بأن تسير الأمور وفق أهوائها ونزواتها!

كان فاوستو في داخله مقتنعاً بأنّ خيرونيمو محقّ في بعض ما قاله، ولكن أغضبه منه جبنُه إذ رفض الاعتراف بأنّ الطفل الذي في بطن صوفيّا من صلبه، وسؤاله إن كان متأكّدا من أنّ صوفيّا لم تخرج مع غيره، لأنّه، من ناحيته، كان حريصاً على ألّا تحمل منه.

– قل لها ألّا تأتي إلى هنا، لأنّي لن أستقبلها، وقل لها أيضاً أن تكفّ عن الاتصال بي، فسكرتيرتي تكاد تجنّ من تلفوناتها.

– يا لكَ من جبان، خيرونيمو. الواجب يقتضي، على الأقل، أن تقول لها

ذلك بنفسك؛ أخبرها أنّ الابن ليس ابنك، أخبرها، إن كنتَ تمتلك الجرأة! أم إنّك جريء فقط ساعة استغلالها؟

– من استغل مَن، فاوستو؟ – ردّ خيرونيمو، ونهض لوداعه.

– لو رأيتما كيف كانت تعوي مثل ذئبة بائسة –قالت پترونا لإنغراثيا ودونيا كارمن–. رحنا أنا ودون فاوستو نحاول تهدئتها. تركتهما، بعد العشاء، يتحدثان بهدوء، لكنّ دون فاوستو أيقظني، منتصفَ الليل، لأمنعها من تكسير الأشياء ومن إيذاء نفسها. لا أعرف ما الذي قاله لها، وما الحقنة التي حقنها بها لتنويمها. بقيتُ حائرة، لا أدري ماذا أفعل. إنّها على هذه الحال منذ ثلاثة أشهر، تهزل وتتقيأ. مسكينة! كانت دائماً قويّة، لكنّها تبدو كأنّها مكسورة من الداخل. لا تكفّ عن الكلام عن أنّها تحبّ دون خيرونيمو، وإن بدا لي أنّها ما كانت مهتمّة بهذا الأمر كثيراً! لقد أرسلتُ في طلبكما لأنّي أحتاج أحداً معي حين تستيقظ. دون فاوستو ذهب ليشتري الحقن، وليستشير الطبيب إن كان لها تأثير على الحمل.

حرصت دونيا كارمن ودونيا إنغراثيا على تهدئة أعصابهما، بقدحٍ من الشاي المخلوط بورق الإيوكاليبتوس وورق الليمون، وليزيلا توترهما ممّا يحدث في (الإنكانتو) من عجائب وغرائب. إنّهما لا تفهمان سلوكَ صوفيّا، حتّى دونيا كارمن، الواثقة من أعشابها وكارتات التاروت، لا تعرف سبب تلك المصائب. حين سمعتْ بما حصل لصوفيّا في الليلة البارحة، بعثت في طلب صاموئيل وشينتال لكي يجتمعوا، حال اكتمال القمر. واجتمعوا، وأجمعوا على الحاجة إلى اللجوء إلى أقوى ما لديهم من الطقوس، لكنّهم راحوا يؤجلون الموعد بانتظار أن تفعل العلاجات المنزلية فعلها.

أطلّت دونيا كارمن، بعد أن سارت على رؤوس أصابعها، على صوفيا، القابعة في غرفتها المظلمة، فوجدتها مستلقية، تتقلّب غارقة في أحلام مزعجة. بحسب نظرية دونيا كارمن، ليس في مقدور أحد أن يصبر على إهمال بعد إهمال. فكثرة الذبذبات السالبة تؤثر، في نهاية المطاف، على عقل الأشخاص. ما زالت تذكر تلك المرأة التي انتهت، قبل سنوات، مجنونة، في مصح الأمراض العقليّة، بعد أن اتهموها بأنّ شيطاناً تلبسها. ولا

شكّ أنّ صوفيا، العنيدة المعتدة بنفسها، لم توافق على أن يخضعها الأب پيو لطقوس طرد الأرواح الشريرة، إلّا لأنّها شعرت بأنّها باتت وحيدة وبائسة. ليس صحيحاً أنّ الإنسان حرٌ، يستطيع أن يفعل ما يشاء في الحياة، ولطالما اضطر الواحد إلى تسديد الفاتورة، وما كلّ من غامر يمتلك الرصيد الكافي لتسديد تلك الفاتورة. قد تكون صوفيا عنيدة ومتمرّدة، ولكن، لو فكّرنا في وضعها، لاكتشفنا سلسلة مصائبها: تخلّت عنها أمّها، وحبسها زوجُها، وأساءت البلدةُ معاملتها، وحين قرّرت أن ترتّب أوضاعها معهم، اهتزّت الأرض، وحين اكتشفت أنّها تحبّ، رفضها الحبيبُ، بعد أن زرع طفلاً في أحشائها! صحيح أيضاً أنّ قلة من الناس حظوا بما حظيت به من كرم دون رامون وإيولاليا ودلالهما، لكنّها تلقّت الرفض حتى من الراهبات، اللاتي لم يرغبن في تعليمها... حتّى هي ما عادت ترغب في قراءة طالعها، فلطالما أنبأت الكارتات عن خسارة ثمين أو عزيز. وقد يكون هذا العزيز خيرونيمو. ربّما هي مغرمة حقاً، وفي حاجة إلى ما يزيل عنها مرض الحب، إلى شيء قوي، فعّال، من شأنه أن يشفيها شفاءً تامّا.

– مَن هناك؟ سألت صوفيا. ومن بين كوابيسها، ميّزت خيالَ دونيا كارمن، يطلّ من الباب، فاستوت على السرير، خائفة.

– أنا كارمن، يا ابنتي. لا تقلقي – قالت المرأة، واقتربت، وهي تمدّ يدها لتلمس جبهتها.

– أين فاوستو؟ أريد فاوستو! أريد أن أكلمه. أنا لا أصدّق ما قاله لي البارحة. لا بدّ أنّه يكذب. حكى لي ما جنّني. لا أصدّق ما قاله. لا شكّ أنّه قال ما قال ظناً منه أنّ ذلك سيجعلني أنسى خيرونيمو. أنتم لا تفهمون أنّي أحبّ خيرونيمو، دونيا كارمن، لا أحدَ منكم يصدقني؛ ولا حتى هو.

– وماذا قال لك فاوستو؟

حكت لها صوفيّا أنّ فاوستو نقل لها، بعد أن استجمع شجاعته، ما دار بينه وبين خيرونيمو من كلام. كان حائراً بين أن يصارحها أو أن يكذب عليها. راحت دونيا كارمن تصغي إلى صوفيّا وتحلّل كلّ عبارة تقولها عن جُبن خيرونيمو ووقاحته، محاولة أن تشخّص فيها أعراض الحبّ الدفين:

الزفرة المعهودة التي ينفثها العاشق المولّه ليخفف ممّا يعتمل في صدره من ظلم الحبيب. لكنّ صوفيا كانت تتحدث بهدوء. لا شكّ أنّها تعاني. بدت بشرتها الزيتونية والبرّاقة في العادة، رماديّة شاحبة؛ وانتفخت عيناها من كثرة ما ذرفت من دموع وما رأت من كوابيس، لكن كلامها كان يحمل في طياته شفقة على النفس أكثر من الحزن على ما ضاع. وها هي تعي أنّ حزنَها على الوحدة التي تعيشها يفوق حزنها على الرجل الذي فقدته. وما خيرونيمو إلّا الباب الذي أطلّت من خلاله على كمّ السواد الذي يلفّ العدم. اعتقدت دونيا كارمن، وهي تنظر إلى صوفيا، أنّها أمام شخص أعمى يتحسس هواء فارغاً من حوله.

– الحب وحده هو ما يستطيع أن يُخرجك من هذه الحال – قالت لها، ولكن، ليس حبّك لخيرونيمو، بل حبّك لنفسك.

لم تردّ صوفيّا المتعبة على الساحرة. كانت تشعر كأنّ الهواءَ من حولِها صار معدناً يثقل على ذراعيها وصدرها. وراحت رغبتها في الانتقام تتلاشى، فكأنّ الهواء المسموم الذي كان يتلف أمعاءها بدأ يخرج ليختلط بصرخاتها الليلة البارحة وكلماتها التي قالتها لدونيا كارمن. باتت تشعر كأنّ جسمها قد انكمش. ما عاد من شيء، في الواقع، يستحق أن تسأل فاوستو عنه. وما الفائدة؟ إنّها لا تريد أن تفكر، بعد الآن، في خيرونيمو، ولا في أيّ شيء. ها هي تشعر كأنّها شيء بلا شكل، وكأنّها غلافُ كائنٍ غريب لا تعرف لماذا يسكن في داخلها، كائن يستنفد كلّ طاقتها. إنّها تريد أن تنام، بلا أحلام، بلا حراك. تريد أن تظلّ ساكنة.

– دونيا كارمن، احضري لي شاياً بالزيزفون، أو أيّ شيء ينيمني، بلا أحلام. أريد أن أنام، فأنا منهكة – قالت، وانقلبت في السرير، صوب جانب الغرفة الأكثر عتمة.

-32-

في أعلى الـ (موماچو)، يعلو صراخ القرد العوّاء كأنّه نواحُ روح تتألم. يلوح البدرُ في أفقٍ تخترقه سحابة، ويبدو، من البركان، مستديراً وكبيراً ومواتياً للصلوات والطقوس. انتهى صاموئيل ودونيا كارمن من عشائهما في كوخ شينتال: وجبة من خليط الرز والعدس وجبن وتورتيّا. حرّكت شينتال القهوة على النار ففاحت رائحة القرفة الممزوجة بحبوب البُن السود، التي اعتادت شينتال أن تجففها وتطحنها بنفسها. غمرت تلك الرائحة الأجواء بعطر صحّي لطيف، بعد أن أثقلتها، الليلة البارحة، أحزانُ صوفيّا. كان على كلّ واحدٍ منهم أن يُطهّر نفسَه من أحزان الآخرين التي النصقت بجلده، لكي يستطيع النظرَ إليها من بعيد والعثور لها على علاج.

لا داعي للعجلة. فما زال أمام القمر بضعُ ساعات قبل أن يتوسط السماء. جلسوا، ثلاثتهم، على طابوريّات المطبخ، حول الطاولة الخشبية، وأخرجوا سجائر التبغ الأسود اللاذع، وراحوا ينفثون أبراجاً من الدخان، سرعان ما كانت تتبدّد وتزول. قدّمت شينتال لهم القهوة في الفناجين الصغيرة، وحكت لهم عن مياه البركة العكرة، حيث رأت صوفيّا تقترب من الباب السحري في وسط بحيرة (أپويّو)؛ كان الباب يشتعل، وهذا يعني أنّها ستحترق قبل أن تتمكن من عبور العتبة والوصول إلى المرآة التي ستعيد صورتها لها، في النهاية.

– التاروت يقول نفس الشيء –قالت دونيا كارمن–: كارت صوفيّا هو البرج المشتعل؛ التطهير بالنار.

– لكنكِ أخبرتِني أنّ ما ظهر لها هو كارت **العالَم** –تدخّل صاموئيل–. وهو كارت إيجابيّ...

الكارت الذي يظهر فيه **العالَم** هو كارت الوجاهة والنباهة، وهو رمز الانتقال، آخر **الأسرار العظمى**، وهو أفضل الكارتات؛ يعلن عن نهاية الطريق، والوصول إلى مركز الكائن، واكتشاف الفضاء، حيث يمكن للهواء الداخلي أن يتحرّك دون شعور بالضيق، ويفرح في مجال طاقته، متمتعاً بحماية دوائر القوة. إنّه تناغمُ النور والظلمة: تصالح القطبين المتنازعين اللذين يمكنهما أن يمزقا الجسد والروح. نعم، قالت دونيا كارمن، في القراءة الأخيرة، خرج لصوفيّا كارت **العالم**، ولكن، خرجت أيضاً كارتات **الشيطان والبرج والناسك**. عليهم استدعاء عمود الضوء حتّى تتمكّن صوفيّا من الخروج من الحقول المظلمة ورؤية صورتها؛ عليهم أن ينادوا **الأم القديمة** حتّى تتمكّن صوفيّا من معرفة مكان دفن سُرتها، ولكي لا تظلّ تدور في فراغ حيرتها.

– لم تكن أمّ صوفيّا من الغجر –قالت شينتال–. كانت غريبة بينهم، أمّا ابنتها، فلم تكن يوماً ابنتها. أنا رأيتُها تعاني وتشقى في بلدٍ خراب.

– المرأة بلا أمّ روحٌ معذّبة – قال صاموئيل.

–... إلى أن تنجب بنتاً –قالت دونيا كارمن–. هذا إذا بطل السحرُ ولم تفقدها.

– وحُبّ خيرونيمو؟ – سأل صاموئيل.

– أعوذ بالله! –قالت شينتال–. هذا ليس حبّاً، بل حاجة. إن استطعنا استحضار **الأم القديمة**، فلن يكون حبّ خيرونيمو ضروريّاً.

– علينا أن نجد أمّاً لصوفيّا.

– علينا أن نحلّ عُقدَ قلبها.

– علينا أن نستحضر روحَ إيولاليا، مرة أخرى.

يضجّ ليلُ (موماچو) بالحياة. صخبُ الهوام وحفيفُ الأشجار، وهي تستعدّ للنوم؛ إنّه شباط، وقتَ تحوّل الريحُ إلى بحرٍ ترتطم أمواجُه بأشجار الموز والغار وشجيرات الصبّار المزهرة. الطقسُ بارد. سوّت دونيا كارمن شالها على كتفيها ونهضت لمساعدة شينتال في تحضير الماء والملح والشموع وقارورات الوحل الأسود، استعداداً لإجراء الطقوس. قطع صاموئيل ثلاثاً من أزهار الفلوريپون ووضعها في الماء المغلي. كان الساحر،

والساحرتان معه، يتحركون في صمت، فقد اقتربت ساعة الصعود إلى حيث إتمام الطقوس. حين بات شاي الفلوريبون جاهزاً، صبّه صاموئيل في طنجرة، ثمّ غطى الطنجرة بالطين. حين انتهوا من التحضيرات، غادر الثلاثة كوخ شينتال. ساروا ببطء نحو التلّة التي تحتفظ، منذ أزمنة سحيقة، بمغناطيسيّة تجذب عمود الضوء، على امتداد الطريق، انطلاقاً من بحيرة (أبويّو). التلّة مخروطٌ مقطوعُ الرأس، في أعلاها دائرة من أشجار تنمو متقاربة بعضها من بعض. لا يجرؤ الفلاحون على الاقتراب من التلّة، إذ يُشاع أنّ ثعابين (موماچو) تخرج من ذلك المكان. وتعلم شينتال أن الحكاية غير صحيحة، لأنّها هي من لفّقها وأشاعها. الواقع هو أنّهم لن يعثروا إلّا على أفعى مسالمة وكسولة، تعيش في جذع شجرة سايبو عظيمة. راحوا يصعدون، فتفزع لمرورهم طيور (البوكويا) الليليّة. في ضياء القمر المشعّ، تبرق عيون صُفرٌ هي عيون البوم، مردّدة ترانيمها العميقة والحزينة. سار الثلاثة في الدرب الضيق متقاطرين، وبعد أن اجتازوا مستعمرة سراخس عملاقة، نمت متراصّة حتى بلغت مستوى الرأس، بلغوا فضاءً لا تهبّ فيه نسمة من هواء، لأنّ كثافة الأشجار التي تحيط بالدائرة السحرية تحجز تياراته وتنشئ فضاءً مدوّراً من الهدوء والصمت.

عبرت شينتال الدائرة المغطاة بالعشب البري ونظرت، من الأسفل، إلى الأفعى الضخمة الملتفة على نفسها في جذع شجرة (السايبو)، نائمة، كدأبها، تهضم بالتأكيد جاغواراً تائها فتكت به. أنزل صاموئيل ودونيا كارمن حملهما على الأرض، وسرعان ما شمّر الثلاثة عن سواعدهم. بوحل (سان خوان دي أورينته) الأسود والعصا، رسم صاموئيل دائرة سوداء تغطي الفضاء كلّه تقريباً؛ وبدأت دونيا كارمن ترشّ الملحَ فوق الدائرة، بينما رشتها شينتال بمشروب قصب السكر. حين انتهوا، لطّخوا وجوههم بالوحل الأسود، طلوا به الحاجبين والجفنين والوجه كلّه لكي لا يبهرهم الضوء، ولكي لا تتعرّف الأرواحُ عليهم، فتأتي، من بعد، طالبة معروفهم. حين انتهوا من صبغ وجوههم، أمسكوا بعضهم بأيدي بعض، ودخلوا في الدائرة السوداء، ثمّ صنعوا، في وسط الدائرة، دائرة أخرى من شموع الشحم المبرّد. جلسوا في الدائرة الخالية، خلف الشموع. أخرج صاموئيل زمزميّة شاي الفلوريبون،

وراح الثلاثة يعبّون الشاي حتى أفرغوا الزمزميّة، وهم جلوسٌ بسيقان معقودة. حين شعروا بالاسترخاء، أغمضوا أعينهم ودخلوا في اتصالٍ مع القوة الداخلية التي راحت تتراقص في بطن كلّ منهم ومعدته ورئتيه، منتشية ممّا تشعر به من حرّيّة وانطلاق. وقفوا على أقدامهم، وبدأوا بالتحرّك في خطوات لطيفة، من رقصات قديمة. حين فتحوا أعينهم، كانوا قادرين على رؤية عيون الأشجار، عيون كثيرة، عميقة الخضرة، تحييهم وتغنّي لهم، فيسرعون الرقص، ويوقظون برقصهم الطيور الزرق التي اصطفت وطارت في حلقة فوق الدائرة التي رسمها صاموئيل بعصاه. وسرعان ما بدأت الحشرات وفراشات الليل والبومات تطوف حول ضوء الشموع. استقرّ القمرُ فوق دائرة الشموع، وأدّت شينتال آخر خطوات الرقص، ثمّ توقف الثلاثة، وراحت تترنّم بنداء **الأم القديمة**:

– باركينا، أمّاه، فنحنُ مخلوقاتك.

• بارِكي أعينَنا لنرى بهما جمالك الخفيّ.

• باركي أنوفَنا لنشمّ بها عطرك.

• باركي أفواهَنا لننطق بها الكلمات السحريّة.

• باركي صدورَنا، لتنبض قلوبنا متناغمة مع النباتات.

• باركي أرجلنا، باركي أعضاءَنا، التي تخلق الحياة.

• باركي أقدامَنا لترقص على وقع فرح الدغدغات.

• باركي هذه الليلة ليأتينا النورُ فتعثر المحرومة من أمّها على سُرّتها.»

ضمّ صاموئيل ودونيا كارمن أذرعهما إلى ذراعي شينتال المرفوعتين، ولاصقوا جباههم، ليشكلوا حلقة داخل دائرة الشموع، وراحوا يفكرون في مركز البحيرة وينادون على عمود الضوء الذي يختبئ في مياهها.

داعب الكرى عيونَ رجال البلدات المجاورة ونسائها، ممّن يشكون الأرق والسهاد، فاستغرقوا في النوم. أمّا الذين اعتادوا النوم، فدخلوا في سبات عميق، لا يحلمون. حتّى الكلابُ والقطط، غطّت، بلا حراك، في النوم.

ظلّت البحيرة ساكنة، وسكنت الريح، وانبثق، من وسط الماء، عمود رائع من ضوء. بدا، أوّلاً، كأنّه مصباحٌ أضاء أعماق البحيرة. أطلق حزمة من الضوء نحو السماء، ثمّ تحركت جزيئاتُه بقوة طردٍ مركزي لتشكل إعصاراً مضيئاً، ارتفع فوق الماء، وصعد إلى السماء وبدأ يتحرك ببطء، كأنّه يرقص باتجاه (موموباچو).

أنشدت شينتال ودونيا كارمن، وأنشد صاموئيل، مغمضي العيون، دون أن يتحركوا من مكانهم، ودون أن يتوقّفوا عن التفكير. وما لبثوا أن شعروا بالضوء يغمرهم، وحين فتحوا عيونهم، كان عمودُ الضوء يستقرّ فوقهم، وسط دائرة الشموع.

جلسوا على الأرض ممسكين بعضهم بأيدي بعض، وحنوا ظهورَهم حتّى تلامس رؤوسهم، ساعين إلى تركيز طاقة أفكارهم، لكي تصعد طلباتُهم، من خلال العمود، صوبَ بطن **الأم القديمة**.

– اتصلنا بكِ لنحدّثكِ عن امرأة بلا سُرة – قالت شينتال، دون أن تفتح فمها.

– جسدها يبرعمُ، لكنّه لن يثمر إذا ما استمر جسدها يسبح في الفراغ.

– إنّها تحتاج إلى أمّ لكي تعثر على صورتها في المرآة – قالت دونيا كارمن.

– تحتاج إلى الحبّ لتزول قيودُ قلبها – قالت شينتال.

انفتح أعلى عمود الضوء، وشكّل مخروطاً مضيئاً في وسط مساحة الأرض الخالية.

تتفتّح أذهانُ كارمن وشينتال وصاموئيل، حتّى تتواصل أفكار كلّ منهم بأفكار الآخرَيْن، بل لقد تفتّحت على أفكار الطيور والفراشات. ورأى ثلاثتهم إيولاليا تخرج من حيث دخل مخروط الضوء في الأرض، فتصل إلى السرير الذي نامت صوفيّا عليه، مكوّرة، في وضع الجنين، مستغرقة في ذلك النوم الثقيل الذي أنزله عمودُ الضوء على سكان المنطقة، في تلك الليلة. دخلت إيولاليا إلى الغرفة وأخذت صوفيّا بين ذراعيها، فكأنّها طفلة صغيرة. حملتها إلى كرسي هزّاز، وراحت، والطفلة بين ذراعيها، تتأرجح

بها وتهدهدها. ضمّت إيولاليا صوفيّا إلى صدرها، داعبتْ رأسها، وراحت تدلّك صدرها، حتى بدأ ضوءٌ خافتٌ بالظهور من بين ضلوع الفتاة، ثمّ راح يتركز ليكوّن حبلاً من ضوء يمتدّ من قلبها إلى سرّتها. ورأت شينتال قلبَ صوفيّا وقد تحوّل إلى طائر ذي ريش ملوّن، بينما تحوّل الحبلُ المضيء إلى ثعبان التفّ حول الجاغوار الذي خرج من سُرّتها. لم يتلقّ صاموئيل إلّا رؤى المرأتين، لأنّه رجلٌ. وساوره إحساسٌ غامض، راح معه يحرّك شفتيه، فكأنّه طفلٌ يرضع.

ظلّت إيولاليا تهزّ صوفيّا وتهدهدها، وانضمّت إلى صوتها أصواتُ دونيا كارمن وشينتال، اللتين بدأتا تشعران بألم المخاض في بطنيهما. أدركت شينتال أنّ **الأم القديمة** تحبلهما لكي تلدا صوفيّا من جديد، فتستطيع هذه، هكذا، أن تولد بقلب جديد هو ثمرة اتحاد الحيّة والجاغوار والعصفور.

ظلوا ثلاثتهم، عدّة ساعات، برفقة إيولاليا، حتى أعادت صوفيّا إلى سريرها، ثمّ رأوها تظهر ثانية في مخروط الضوء وتختفي في الأرض باتجاه المنطقة التي تسكنها الأرواح التي توصل الأحياء بالأموات. حين تلاشى شبح إيولاليا، انغلق مخروط الضوء، مرة أخرى، في حزمة مستقيمة. وقف الثلاثة على أقدامهم وتعانقوا وشعروا بقوّة الضوء تحت أقدامهم، يصعد كالنافورة فيحملهم نحو الأعلى، نحو ثقب السماء من حيث يمكنهم النظر إلى المطلق والانصهار في الزمان، وحيث يوجد كلّ شيء في وقت واحد. كانت شينتال أوّل من صحا. جلست ورأت دونيا كارمن وصاموئيل إلى جانبها، نائمين بالقرب من الشموع التي ذابت والأواني التي فرغت ممّا كان فيها من وحل أسود وشاي. على ضوء الشمس البازغة، بدأت تلّة (موماچو) تستعيد مظهرها البركاني المهيب. ما عاد يُسمع عواءُ القرود، وما عاد يحلّق غيرُ عدد قليل من الطيور الزرق فوق الدائرة السحرية، حيث أطلّ الثلاثة، في الليلة البارحة، على باب **الكون** ورأوا إيولاليا تخرج من الأرض وتهزّ صوفيّا، إلى أن استطاعت أن تضمّ إلى ذاكرتها ذكرى محبّة الأم. وفكّرت شينتال أنّ صوفيّا ستشعر بالهدوء. سيصبح جسدُها شرنقة، وسيكون في مقدورها، حين ينضج الجاغوار والحيّة والعصفور، أن تولد من جديد وتعثر على مركزها.

-33-

استيقظت صوفيّا منتصفَ النهار تقريباً. لم تكن ترغب في النهوض من فراشها، لأنّها خشيت أن يسلبها الواقعُ الراحة التي نعمت بها، طوالَ الليل. لقد حلمت، لأوّل مرّة، بأمّها. رأتْ ملامحها واضحة. بدت لها شبيهة بملامحها هي. رأتها تهدهدها وتلاعبها في حقل واسع، مليء بالأقحوان وشقائق النعمان والبنفسج. وحين صحت، كانت تلك الصورة ما زالت عالقة في ذهنها، وكانت، من قبلُ، تراها مشوشة وبعيدة. راحت تنتقي، وهي في سريرها، فصولاً ومشاهد من طفولتها. تغمض عينيها وتحدّق في المرأة التي طالما رأتها وهي تنظر إلى نفسها في المرآة، ثمّ تعود لتفقدها. وبكت صوفيّا، وقد أذهلتها تلك الذكريات، التي تطيل عمرَ سؤالها حتّى تحيله أبدياً: لماذا تخلّت عنّي أمّي؟ ما الذي جعل أمّها تتركها وحيدة يتيمة، في (ديريّا)، في ليلة بعيدة في زمنها، مشوشة في ذكراها؟ ماذا عسى الطفلة الصغيرة أن تكون قد فعلت حتى تعاملها بهذه القسوة؟ هل لأنّهما، هي وأمّها، لم تكونا غجريتين نقيتين؟ هل كان الأبُ هو سبب المصيبة التي ما زالت تعيشها؟ وكم سألت صوفيّا التاروت، وكم تغيّرت وضعيّة كارت **العشّاق**، في كلّ قراءة. لم تفهم ذلك قط. وما علاقة العشّاق بتخلّي أمّها عنها؟

أمضت وقتاً وهي ساكنة، فقد كانت تخشى أن تضيّع صورةَ أمّها إن هي تحرّكت. لكنّ مثانتها ممتلئة، وإن لم تنهض، فستبلل فراشها كما يبلّل الطفلُ فراشه، وهكذا حاولت الجلوسَ من دون أن تفتح عينيها. تفتحهما قليلاً ثمّ تغلقهما، وهكذا تستمرّ الرؤيا، ولا تتلاشى، كما تتلاشى الأحلام. أخرجت ساقيها من الملاءات، بحثت عن نعليها، ووضعت قدميها على الأرض. ثم سارت نحو الحمّام تتلمّس طريقها كالعمياء، لكنّها رأت، وهي في منتصف

الطريق، أنّ ما تفعله مضحك، فليس في مقدورها أن تمضي حياتها هكذا. فتحت عينيها ووصلت إلى الحمّام. وهي في المرحاض، أغمضت عينيها، ثانية، وحين أوصلها ذهنُها بالصورة، علمت أنّها لن تفقدها بعد الآن، وأنّها استعادت، على الأقل، ذكرى أمّها، وإن لم تستطع فكّ لغز حياتها.

لم تصدق پترونا عينيها إذ رأت صوفيّا في المطبخ تطلب منها طعاماً لأنها «ميتة من الجوع».

جلست صوفيّا، كما اعتادت أن تفعل، على طابوريّة القوائم الثلاث، إلى جوار الطاولة حيث اعتادت پترونا أن تجلس لتنظّف الرز، وراحت تتكلّم وتسأل عن شؤون المنزل، كأنّها عادت من رحلة دامت شهوراً.

– حضرتكِ تبدين أحسنَ حالاً – قالت لها الخادمة. فعلاً، قالت، فهي تشعر بتحسن كبير. لقد نامت كالصخرة، ولم تشكُ من ألمٍ ولا من دوار، وها هي تشعر بالجوع للمرة الأولى منذ أشهر.

– عليكِ أن تبدأي بشيء خفيف –نبّهتها پترونا–. لا تسرفي في الطعام، فقد يضرّك، بعد ما كنتِ لا تأكلين إلّا ما يأكله العصفور الصغير. سأعدّ لك حساء خضروات لتبدأي به. فعليك أن تتعافي، وإلّا خرج طفلك نحيفاً.

– نحيفة –صحّحت لها صوفيّا–. قلتُ لك ألفَ مرّة إنّي سألدُ أنثى.

شعر فاوستو، وهو بعدُ عند الباب، بأنّ شيئاً في أجواء المنزل الداخليّة قد تغيّر. لقد استيقظ باكراً، كعادته منذ بدأ العمّال يتركون العمل، ليوزّع المسؤوليات على القلائل الذين بقوا، وأولئك الذين جاء بهم من ماناغوا لقاء رواتب مغرية. إنّه يشعر بالراحة، بعد أن نام نوماً عميقاً، ويشعر بالسعادة لأنّه نجح في تجنيد خمسة من شبان المناطق القريبة، بعد أن كانوا يرفضون، بسبب الزلزال. دخل، فحمله أنفه مباشرة إلى غرفة الطعام، من حيث كانت تنبعث روائحُ الطبيخ اللذيذ الساخن. فمنذ أن توعّكت صوفيّا، تعكّر مزاجُ پترونا، واضطرّ هو إلى أن يأكل أطباقاً ماسخة. وفوجئ فاوستو حين رأى صوفيّا، تجلس على الطاولة، وتزدرد الحساء ازدراداً.

– مباركة العيون التي تراك! – هتف.

– أهلاً –ردّت صوفيّا وهي تبتسم، وكأن شيئاً لم يحدث– جئت في وقتكَ لتتغدّى معي.

جلس فاوستو، وراح يعلّق، دون أن يرفع عينيه عنها، راضياً عن حالتها ونظرتها، التي عادت برّاقة مشرقة، بعد أن كان عازماً، قال لها، على إدخالها المستشفى في ماناغوا.

– لقد تعافيتُ –أجابته–. أشعر بأنّي على ما يرام. نمتُ كالطفل الرضيع. لا أذكر أنّي نعمتُ بمثل هذا النوم العميق. تصوّر أنّي حلمتُ بوجه أمي، وما زلت أراه بوضوح.

– المهم أنّك تشعرين بخير – قال فاوستو، وهو لا يريد الإطالة في الكلام عن الموضوع، خشية أن يذوب وجهُ صوفيّا المتعافى مثل فقاعة الصابون. انتقل بالحديث عن المزرعة، وسألته هي مطوّلاً، وحين كانت توشك على الانتهاء من طبق الحساء قالت له، وهي تركز نظرتها في عينيه إنّ الوقت قد حان لكي يبحثا عن محام جديد.

– ابحثْ لنا عن محامٍ كبير في السن –قالت له–. ربّما يناسبنا أن نعود إلى دون پروديثيو.

يا لهذه المرأة التي لا تنفكّ تفاجئه! قال فاوستو لنفسه، وهو ينظر إلى صوفيّا، وقد بدت مهتمة بالخسائر التي تكبدوها في إنتاج الزهور، وبالانتعاش البطيء لشجيرات الورد، وبالعقود الجديدة التي أبرمها مع باعة الزهور لتزويدهم بحاجتهم من المنتوج يوميّاً، وباستخلاص الكاكاو المخصص للتصدير إلى كوستاريكا. وهكذا، بدا كأنّها استعادت نشاطها، وبدت هادئة مطمئنّة، كما هو واجب على امرأة في مرحلة متقدمة من الحمل. لقد بدا التعافي واضحاً على هيئتها وجسمها، فما عادت تلك المرأة النحيفة التي شبهها فاوستو، ذات مرّة، بـ «زوجة پوپاي المصابة بالديدان»، فقد استعادت وزنها، ولا شكّ أنّها ستعود، في أسابيع قليلة، إلى سابق جمالها وحيويتها، كما كانت في أشهر الحمل الأولى. ما عادت صوفيّا آسفة على علاقات حبّ مزيّفة، بل إنّ فاوستو لاحظ، في المرات القليلة التي ذكرت فيها خيرونيمو، نبرة من سخرية ورغبة خفية في الانتقام، وهو ما أثار قلقه، لأنّ معنى ذلك هو أنّ قضيتها مع المحامي لم تغلق بعد. أمّا علاقتها بأهل البلدة، فبدا له أنّها تحاول إصلاحها: فقد صارت تحضر، يوميّاً، قداس الساعة الخامسة؛

وأرسلت إلى خيرترودِس سلة من الورود، مع بطاقة تهنئة بمناسبة زواجها، وكأنّ الذي جرى في حفل الزفاف ما جرى.

حضرت دونيا كارمن وشينتال، ومعهما صاموئيل، لزيارة صوفيّا. وبدا لفاوستو أنّ الغرض من الزيارة كان التحقق من بعض الأمور، فقد سمعهم يتهامسون بعباراتٍ غريبة أثارت قلقه: «بات عندها سرّة»، قالت شينتال، «علينا أن ننتظر أن تُحلّ عقدُ قلبها»، ردّت عليه دونيا كارمن.

كانت الإشارة الوحيدة التي لديه هو ما خصّته صوفيّا به، ذات ليلة، حين حكت له عن الحنان الذي غمرها في الحلم الذي رأت فيه أمّها. وما أقلّ ما رأى فاوستو صوفيّا حنونة رقيقة، كما رآها، حين كلّمته، وهي جالسة على الكرسي الهزاز في الممرّ، عن وجه أمّها الجميل، التي لعبت معها، وعانقتها عناقاً قوياً، وهدهدتها، وهزّت سريرها حتى نامت. لقد باتت، أخبرته، قادرة على استحضار روحها، دون أيّة صعوبة، وما عادت تشعر بأنّها تركتها، فهي معها، ترافقها.

– لكنّي ما زلتُ لا أفهم لماذا تركتْني. ولن أفهمه أبداً. أما وقد صرتُ أتذكرها وأشعر بقربها، فقد زادت حيرتي وعظم السؤال في رأسي... بدا لي أنّها تحبني كثيراً، بل إنّها لا تكفّ عن قول إنّها تحبّني كثيراً...

ورأت صوفيّا أنّ ما حدث لها مع أمّها شبيهٌ بما حدث لها مع خيرونيمو. فقد أحبّها خيرونيمو ثمّ تركها. فكأنّ فيها شيئاً، رائحة أو إشعاعاً أو سحراً، يجعل من يحبّها يتركها. مع ذلك، فمنذ أن استردّت صورة أمّها، بدأت تشعر بالقوة. وربّما استطاعت، إن هي استردّت خيرونيمو، أن تكسر دائرة الهجر والفراق، التي هي، ربّما، نفس الدائرة التي طالما ذكرتها الساحرات، والتي أعلنت لها عن ظهور إيولاليا. فهل الأمرُ يتصل بشيء منفّر فيها، أو بقرابة غامضة تربطها بالمشردين أو بالشياطين الذين تدعي پاتروثينيو أنّهم أرضعوها، أم إنّ المشكلة هي مشكلة خيرونيمو وجُبنه؟ وهل ستقضي عمرها في الشكّ بنفسها وملامتها؟ وهكذا قرّرت أن تذهب إلى ماناغوا للقاء خيرونيمو. ستذهب للقائه، بلا خوف، وإن رآها بنفس منكسرة وبطن مكوّرة.

هدأت نفسُ صوفيّا، وهيأ لها الأمان، الذي شعرت به في حضن أمّها القديم، الاستمتاع بصحبة الآخرين وانتظار ولادة ابنتها.

– إنّها كالقهوة المُرّة الخفيفة –قالت پترونا لفاوستو–. سألتني، قبل أيام، متى أخذتُ آخر إجازة لي... مرّ وقتٌ طويل وهي لا تهتمّ لأمري...

راح فاوستو يراقب، من بعيد، تعافي صوفيّا وهدوءها المستجدّ. وأحسّ بالارتياح إذ رآها تمشي، عصراً، مسافاتٍ طويلة، عبر المزرعة، تتوقف للتحدّث مع العمال الجدد، الذين ما كانوا يعرفون أسباب الضجة التي تثار حول هذه السيدة اللطيفة الهادئة، التي تنوء بحملٍ عمره سبعة أشهر. مع ذلك، فما كان يقلق فاوستو هو أن يكون هدوؤها عابراً، ومقدمة لعواصفَ أعتى وأشدّ تدميراً. إنّه لا يرى في ما تقوله صوفيّا وتؤكّده من أنّها حلمت بأمّها، ما يفسرُ سلوكها الجديد. وتثير اهتمامَه ثقتها في أنّ الصورة التي رأتها هي صورة أمّها.

أنّى لها أن تعرف أنّ المرأة التي حلمت بها هي أمّها؟ وهل الأحلامُ إلّا أضغاث؟ أمّا أغرب ما في الأمر فهو أنّ صوفيّا تخلط الأحلام بالذكريات، حتّى ما عاد يعرف متى تشير إلى هذه ومتى تشير إلى تلك.

يعلمُ فاوستو كم هو تأثير علاقة المرء بأمّه، مع ذلك، وعلى الرغم من رؤيته الثاقبة، القادرة على التوغّل في عوالم صوفيّا المتشابكة، فقد اصطدم، هذه المرة، بمصدات تخصّه، ويا لها من مصدات مستحكمة، إذ راح يرسم لأمّه صورة يجلّها ويكرهها، في آنٍ معاً. ولطالما غبط صوفيّا، في داخله، على أنّها لم تضطرّ إلى أن تتعامل مع امرأة مثل أمّه، التي كانت تكتم أنفاسه تقريباً وتراقبه في حركاته وسكناته. صحيح أنّه بكاها بكاءً مرّاً، حين ماتت، لكنّه شعر بأنّ ثقلاً كبيراً انزاح من صدره. إنّه لا يفهم أن تشعر صوفيّا بالفرح والأمان لاستحضار روح مَن تخلّت عن طفلة لا تتجاوز السابعة، وتركتها، إلى غير رجعة. لذلك كلّه، كان فاوستو يخشى أن تعود صوفيّا إلى هوسها بخيرونيمو واكتئابها الغريب، وهو ما كان يراه حتمياً.

-34-

لم يبقَ على موعد الوضع غيرُ شهر واحـد. حظيت صوفيّا بعناية پترونا وإنغراثيا. أمّا إنغراثيا فصارت تحضر يومياً إلى (الإنكانتو) وتسلّي شيخوختها بحياكة أحذية من خيوط المكرامي. انكبّت النساءُ الثلاث على التحضير للولادة، يساعدهنّ فاوستو، الذي صمّم جهازَ الوليد المنتظر، وكلّف من يصنعه في ماناغوا. عقّموا ست دزّينات من الحفاضات بالماء المغلي، كما تقتضي العادة، وتأكدوا من أنّ ملابس المولود كلّها نظيفة ومعبأة في الأكياس.

وهكذا انصرفت النساء، في جوّ هادئ، إلى حرفتهنّ القديمة، حرفة صنع الحياة، إلى عالم من شرائط التول وناموسيات الدانتيل. لكنّ صوفيّا كانت، في سرّها، تبكي، وإن لم تكن تميّز أصلَ ألمها، أهو ضغطُ البطن على رئتيها، أم هو القلقُ الذي طالما أقضّ مضجعها.

تطلق صوفيّا، الوحيدة في غرفتها، العنان لقلقٍ مردّه التفكيرُ في أنّ خيرونيمو قد يرفضها ويردّها خائبة. تبكي، وهي تطوّق بطنَها بيديها، وتقسم لابنتها أنّها لن تتخلى عنها، لن تتركها، ولن تقسوَ عليها. ثم تنهض وتمسح دموعها وترتدي ثوبَها ونعليها وتخرج، في موعدها، لتوهم الآخرين براحة لا تشعر بها.

وفي غمرة انشغالها بالتحضير للولادة وشؤون البيت والمزرعة، تشغل خيالها أيضاً، فتضع الخطط وتتراجع عنها. خطط للدخول على خيرونيمو، تؤلّف حديثاً يقود إلى الصلح، وتتخيّل خيرونيمو وهو يقف إلى جنبها ساعة الوضع، ثمّ تستبعد الفكرة، فتغضب من ضعفها، وتقول لنفسها إنّ صدّه لن

يغيّر من الأمر شيئاً، لأنّها ليست محتاجة إليه؛ فهو جبان، ولا يستحق أن يرى ابنته، بل لا يستحق أن ينال ذرّة من حبّها.

يقلق فاوستو. فقد أكّدت له پترونا وإنغراثيا أنّ انتفاخ عيني صوفيّا سببه أرق الشهر الماضي، ثمّ لأنّ الحوامل يمتلئن، في العادة، بالماء؛ لكنّه لم يكن يرى رأيهما؛ إنّه يحسّها مقهورة وشاردة، كما يحدث لها وقت الأزمات الكبيرة. إنّ ما يراه الآخرون هدوءاً يراه هو الهدوء الذي يسبق العاصفة. راح يراقبها، فيترك عمله في المزرعة ويعود إلى البيت، عدة مرات في اليوم، بحجّة قسوة شمس آذار. وتشعر صوفيّا بقلقه فتحاول أن تبدو أمامَه هادئة سعيدة ومهتمة بكلّ ما يحدث حولها. تحاول تضليله كي لا يفسد خططها التي راحت تتبلور وتحدّد، يوماً بعد يوم.

من حين لآخر، يتذكّر خيرونيمو صوفيّا، فليس من السهل نسيانُ طيش الشباب ومغامراته المتأخرة. مع ذلك، فقد كسب الكثير. فبعد سنواتٍ من السخط والتذمّر، تعلّم كيف يكتشف حسنات تلك الحالة ويقدّر ما كان يبدو له روتيناً ممّلاً. أمّا في مجال العمل، فقد استعاد الاستقرار، وهو ما قامت عليه سمعته دائماً. وهكذا بدت حياته المهنية والاجتماعية والعائلية أنشودة من تناغم وسلام روحي، لا تفسد إيقاعها إلا أحلام جنسيّة غالباً ما تكون صوفيّا بطلتها، وإن حسب تلك الأحلام لطيفة ممتعة؛ وأيّ ضير في استرجاع لهو الماضي وعربدته. مع ذلك، فقد ظلّ حملُ صوفيّا يقلقه، لأنّه يفترض ولداً من صُلبه يأتي إلى هذه الدنيا. مع ذلك، فهو مصمّمٌ على ألّا يرى الطفل. وما لا تراه العين لا يشعر به القلب. فلا داعي، إذاً، لخوفه من مشاعر آنيّة أو دوافع نبيلة، إن انساق وراءها الآن، فسيندم عليها غداً.

على مكتبه الأنيق، مكتب المحامي الناجح، وضع صورة زوجته المبتسمة. ما كان أبعد تفكير خيرونيمو، وهو يوقّع العقودَ ويدوّن المواعيدَ، عن صوفيّا، التي كانت، لحظتها، تخرج من سيارة *الجيب*، التي توقّفت للتو أمام المكتب.

في ذلك الصباح، شعرت بحاجة ملحّة لرؤية خيرونيمو، بعد أسابيع من إحساسٍ بضيق يطاردُها طوال اليوم. لقد اقتنعت أنّ مواجهة خيرونيمو كفيلة

بالتخفيف من الغضب الذي ينمو في داخلها، ممزوجاً بألم، حيث تتشكّل صورة خيرونيمو وصورة أمّها، مثل قنطور أسطوري يهدّدها بسهامه.

أمّا أشدّ ما كان يبعث اليأسَ في نفسها، فهو عجزُها عن وصف مشاعرها وتحديدها. تنتقلُ من الحبّ إلى الكراهية، بسرعة شريط الصور الذي يمرّ تباعاً في ذهنها. تختلط ذكرى أمّها القديمة بعجزها عن تفسير السبب الذي دفع هذه إلى تركها؛ وتختلط صورة الوجه الباسم الذي يحتضنها بين الزهور، بصورة المرأة القاسية التي لم تكلّف نفسها أن تعود لتعرفَ ما آل إليه مصيرُ ابنتها الصغيرة. لم تستطع أيضاً أن توالف صورة خيرونيمو الضحوك، صاحب الحركات البهلوانيّة في الفراش، العفريت العاري في مخابئ العشاق السرّيين، الذي ينظر إليها بطرف عينه بحنانٍ واضح، بصورة الشخص الذي رفض مكالماتها وأكّد لفاوستو أنّ الطفل الذي تنتظره ليس طفله، وأنّها هي من لفّق له قصة حبوب منع الحمل، في قلبٍ واضح لتصرفها مع رينيه. إنّها لا تفهم كيف يدير لها خيرونيمو ظهره وينساها؛ وينسى كلّ ما فعلته من أجله، وينسى بشرتها التي وصفها بالطريّة الناعمة، وأحاديثه عن خوفه من الحبّ، حين يكون الحبُّ من طرفٍ واحد. لقد باتت حياتها كلّها غموضاً في غموض، بسبب قصّة الهجر والفراق التي لا تجد لها تفسيراً. من هي المرأة التي ستراها ابنتها حين ولادتها؟ سألت نفسها؛ مَن والداها؟ من زوجُها؟ وأيّ بلدٍ بلدُها؟

سافرت في *الجيب* وهي تشعر بحرارة، واحمرّ خدّاها من غضب لا تجد له متنفّساً. غادرت العزبة محتجّة بزيارة شينتال، ولكن، ما إن بلغت الطريق العام حتّى أمرت السائق بالتوجه نحو ماناغوا. تنعكس حرارة الصيف المداري على الإسفلت، بينما يغطّي الترابُ المثار باللون الأصفر النباتاتِ الممتدّة على جانبي الطريق. وتشتدّ الحرارة في المدينة المزدحمة بالسيارات. حين اقتربت من مكتب خيرونيمو، كانت تسبح في عرقها، وكانت ضلوعُها تؤلمها بسبب نموّ بطنها والشدّ الذي يعاني منه جلدها. أمّا الجنين، المحمي من الحرارة ومن حركة السيارة، فهو الوحيد الذي لم يتوقّف عن إرسال إشاراته القويّة، وهو قابع في قراره المكين، من خليط الماء والسكون.

توقفت *الجيب* قبالة مكتب خيرونيمو، وخرجت صوفيّا بمساعدة السائق. على الرصيف، وقبل الدخول، أخرجت منديلاً نظيفاً أبيض، وجفّفت عرقها. وعند باب السيارة، أصلحت شعرها، ثمّ سارت، على مهلها، تستعرض بفخر دليلَ حملها. دخلت غرفة الاستقبال في المكتب وهي تبتسم للسكرتيرة المذهولة، التي لم يبدُ عليها الحماسُ للترحيب بها.

– أخبري الدكتور أنّي هنا وأنّي لن أنصرف قبل أن أقابله – قالت صوفيّا، وهي تعالج لترسم ابتسامة على وجهها.

لم تتحرّك المرأة، الجالسة أمام الآلة الكاتبة، بل نظرت إليها وهزّت برأسها وتظاهرت بترتيب الأوراق على المكتب. كانت تفكر في السبيل إلى إنقاذ مستخدِمها من تلك الزيارة المفاجئة.

نهض خيرونيمو، في تلك اللحظة، من مكتبه، وخرج لتوجيه سكرتيرته بشأن بعض الأمور، غير عالمٍ بما ينتظره في غرفة الاستقبال.

فتح الباب، فتسمّر إذ رأى صوفيّا، التي استغلّت وقع المفاجأة عليه، لتتحرّك نحوه وتمرّ من جانبه وتدخل في مكتبه.

– جئتُ لأنّ علينا أن نتحدث – قالت له.

تبعها خيرونيمو وأغلق الباب، وقد أذهلته الزيارة المفاجئة والزهوُ الذي شعر به، رغماً عنه، لمجرّد التفكير في أنّ ولداً من صلبه يقبع في جسم تلك المرأة.

– اجلسْ – واصلت إصـدارَ أوامرها، وهي تجلس على الكرسي الجلدي.

حاول خيرونيمو الغوصَ في أعماقه علّه يجدُ التصرّف المناسب، بعد أن وطّن نفسه، منذ وقت، على فكرة أنّ صوفيّا لن تعاود الظهور إلّا في الأحلام. لكنّها عاودت الظهور وفاجأته وهو أعزلُ من كلّ سلاح. ظلّ حائراً. لاذ بالصمت واكتفى بالنظر، مذهولاً يتأمّل البطن العظيمة.

– جئتُ لأستطلع أمركَ –قالت صوفيّا–. لم تردّ على مكالماتي، وتبرّأتَ، أمام فاوستو، من طفلنا، وألمحتَ إلى أنّه قد يكون من صلب شخصٍ آخر... يا لكَ من جبان. ألا تخجل من التصرف هكذا مع من ستنجب ابنتك؟

– هل ستكون بنتاً؟ – سأل خيرونيمو.

– وماذا يهمّك، إن كنتَ ستتخلى عنها، على أيّة حال؟

– اسمعي، صوفيّا –قال خيرونيمو، وقد نهض بعصبيّة واتجه إلى مكتبه لجلب سيجارة– الحملُ كان قرارَك. لا نخدعنّ أنفسنا؛ أنتِ أكدّتِ لي أنّكِ تأخذين الحبوب. ما وقع بيننا كان جنساً صرفاً.. فلا تكلميني الآن عن مسؤوليات...

– جنس؟ – كادت صوفيّا تصرخ، ونهضت هي أيضاً. كيف لا يذكر المرّات التي كلّمته فيها عن الحبّ؟ وكيف يفكّر أنّ كلّ همّها كان النوم معه، كأنّه ليس في العالم رجل، بل رجال، غيره تستطيع أن تعاشرهم. هي كانت تحبّه، قالت له، وما زالت؛ المشكلة هي أنّه متحامل عليها، كالآخرين، ويعتقد أنّها غير قادرة على أن تحبّ، ويكرهها لأنّها غجرية، ولأنّها غريبة.

– أنتِ مخطئة –ردّ عليها خيرونيمو، وهو يعاود الجلوس ويحاول أن يخفض صوته كي لا يخرج الصراخُ والنقاش من جدران مكتبه–. اجلسي ودعينا نناقش الأمر بهدوء. أنا لا أعرف رأي الآخرين في الموضوع، أمّا أنا فلا يهمّني إن كنتِ غجرية أم لا. أمّا ما أراه حقاً، وهو ما عليكِ أن تأخذيه في الحسبان، هو أنّكِ أنانيّة؛ نعم، لا تعرفين الحبّ، أنتِ تحبّين نفسك فحسب. أراكِ الآن مستاءة، ولكن، لو فكّرتِ قليلاً لوجدْتِ أنّك المسؤولة عن كلّ ما أنتِ فيه، لأنّك أنتِ من خطط، ولأنّكِ لم تضعيني في خططك. أمّا سببُ مجيئك الآن فهو لأنّي رفضتكِ، لأنّي لم أردّ على مكالماتك... مشكلتكِ هي أنّك هوائيّة، صاحبة نزوة – قال لها، وهو يخفض صوته تدريجياً، وبنبرة مستسلمة.

– أنتَ تريد أن ترمي عليّ بالذنب كلّه –صرخت صوفيّا، رافضة الكرسي الذي أشار إليها بالجلوس عليه–. الأناني هو أنتَ، أنتَ من يريد أن أتحمّل مسؤوليّة هذه الطفلة وحدي؛ ولا يهمّه أن تولد بلا أب!

– القرارُ كان قرارَكِ – كرّر خيرونيمو. وذكّرها بأنّها طالما أكّدت له وطمأنته أنّها لن تحمل منه. أمّا ما بات يثير مخاوفه حقاً فهو أنّها تتصرف تصرّف عاشقة هامت حبّاً، لسنوات وسنوات، برجل، يهجرها الآن، بلا سبب غير أنّها حملت منه.

وصرخت صوفيّا، وأومأت، وكرّرت القولَ إنّها أحبته. إنّها تحبّه فعلاً، وهي لا تكذب عليه، كلّ ما في الأمر هو أنّها خافت، قالت لنفسها، لكنّها تدرك الآن، وهي تقف قبالته، أنّه الرجلُ الوحيد الذي أحبّته في حياتها. وإلا، فكيف تفسّر أنّها سلّمت نفسها إليه، وكيف تفسّر الجنون الذي أصابها طيلة أيام الحبّ الجامح ذاك.

- لقد أحببتكَ، خيرونيمو -قالت له، بعد أن جلستْ قبالته، وراحتْ تنظر إلى عينيه-. صدّقني. دعكَ من الطفلة. أعترفُ بأنّ القرارَ كان قراري؛ لكنّي فعلتُ ذلك لأنّي وقعتُ في حبّك. أقسمُ لك - قالت له، وبدأت بالبكاء، وغطت وجهها بيديها.

عصفت الحيرة برأس خيرونيمو. بدا له أنّه في حضرة ممثلة محترفة تحاول كسب عطفه وشفقته، مع ذلك، فقد شعر بأنّ صوفيّا ضحيّة دوافع غامضة، ربّما لا تستطيع، حتّى هي، فهمها. لكنّ مسؤولية كشف ذلك الغموض وتفسيره لا تقع عليه. إنّ كلّ ما يريده هو أن تذهب بعيداً عنه. إنّه لا يفهم معنى أن تجلس أمامه تنتحب، وتخوض في حديثٍ تحرّفه قاصدة أغراضاً لا يعلم بها إلا الله.

- لكنّي متزوّج، صوفيّا -قال لها بنبرة من يكلّم طفلاً-. فبعد ما حدث بيننا، غيّرت زوجتي تعاملها معي، وتحسنت علاقتنا. أنا أحبّكِ، لكنّي لا أستطيع أن أتخلّى عن زوجتي؛ لا يمكنّني أن أتكفّل بالصبيّ، أو بالبنت، كما قلتِ. أريد أن أعرف ما الذي ترمين إليه من وراء هذه المسرحيّة.

- أنتَ جبان -قالت صوفيّا، وهي ترفع وجهها وتنظر إليه من بين دموعها-، ولا تمتلك الجرأة حتّى للاعتراف بأنكَ تحبّني. لقد آثرتَ الاستقرار مع زوجتك وإضاعة فرصتك الوحيدة في الحياة للظفر بحبّ حقيقي...

هزّ خيرونيمو كتفيه، وقال لها، وهو يحاول تهدئتها، هذه هي الحياة؛ هناك التزامات، وعلى الأفراد الوفاءُ بها. إنّه متزوج منذ ما يقرب من سبع سنوات وزوجته امرأة رائعة. ثمّ إنّ علاقته بها لا مستقبلَ لها، لا سابقاً ولا الآن. إنّه ليشكر الربّ، قال في نفسه، على أنّه لم يقع في حبها، ويشكره على

أنّه امتلك من التعقل ما جعله يدرك أنّ ما جرى بينهما كان لعبة خطِرة للغاية. إنّ صوفيّا تخطئ إذ تظنّ أنّه يرى في حبّها «فرصة» لحبّ حقيقي؛ لكنّه يفضّل ألّا يطيل الكلام عن هذا الموضوع كي لا يزيد في غضبها.

– لن تنجبَ لكَ امرأتُك أبداً. سترى، سترى –صاحت صوفيّا، وهي تنهضُ وتشدّ ثوبها على بطنها كي تُريَ خيرونيمو عِظمَ حملها–. أمّا أنا، فأحمل بابنة من صلبك؛ وهذا يحمّلك مسؤولية أكبر نحوي. لا يمكنكَ التخلّي عن هذه البنت! لا يمكنك التخلّي عنها!

– صوفيّا، لا تقلبيها مندبة –قال خيرونيمو–. تلك البنتُ مسؤوليتُك وحدك. أنت وحدكِ قرّرتِ الحملَ بها. لم تقولي لي شيئاً حتّى خطر ببالك أن تخترعي قصّة غرامك بي، بعد أشهر من ذلك. وتذكري أنكِ أنتِ من بدأ برفض الردّ على الهاتف...

– هذا ليس صحيحاً –نهضت صوفيّا–. لم يخبرني أحد بأنّك اتصلتَ بي. خفتُ، في البداية، من ردّة فعلك. كنتُ خائفة من أن يقع هذا الذي يقع الآن. لهذا لم أتصل، ولم أخبرك. اعتقدتُ أنّ في مقدوري أن أمشي المشوار وحدي وأعتمد على نفسي، لكنّي بدأتُ أفتقدك، وأدرك أنّي أحبّك...

زاد استغرابُ خيرونيمو وتعاظم غضبُه وهو يستمع إلى ما كانت صوفيا تسوقه من أكاذيب. نهض وأمسك بكتفيها وراح يهزّها هزّاً، ناسياً المكتب والموظفين:

– أنتِ لا تحبّين أحداً. ألا تدركين ذلك؟ بل إنّكِ لا تحبّين ابنتك. أنتِ تستخدمينها. أنتِ مريضة. اصحي وفكّري ولو مرّة واحدة بحياتك. دعكِ من الأوهام ولا تستخفّي بي، فأنتِ تكذبين عليّ وتعاملينني كأنّي غبيّ!

ظلّت صوفيّا ساكنة. ذهولٌ غامض ومُقلقٌ يسري في كيانها، بينما ظلّ خيرونيمو أمامَها، يومئ ويتكلّم، لا هو يتوقف عن الكلام ولا هي تسمعه. ما أقبحَ خيرونيمو، فكّرتْ. كلّ ما فيه باهتٌ وشاحب، بالشارب الغريب والجسم الأملط النحيف. وكيف حسبته، يوماً مّا، رجلاً، وهو مجرّد دمية، شخص باردٌ بزيّ مغامر، لا يريد إلّا امرأة خانعة ترضى بمغامرات النجم السينمائي. إنّه لا يستحق أن يكون والد ابنتها، ولا يستأهل ما تحسّ به من

ألم بين ضلوعها، لمجرّد أنّه استحوذ عليها، ولمس جسدها العاري، ودخل فيها حتّى لقّحها. يا له من مسكين! فهي مضطرة إلى أن تفارقه، أن تتركه، في مكتبه، لمصيره، مصير المحامي الذي لا تشوب سمعته شائبة. فإن لم تكن هي تعرف من تكون، فهو أيضاً لا يعرفها. إنّه يحبّها، لكنّه رفض كالأبله؛ لم يفهم معنى أن تحمل نفسها إلى هناك، لتخبره بما يشعر به قلبها. فتحت له، وهي المتكبرة، البابَ لكي يصبح شيئاً آخر، لكنّه رفضها وصرخ وفقدَ أعصابه وبدا الخوف على كلّ كلمة من كلماته. سيندم، ذات يوم، وحين تولد ابنته، وتحملها هي له ليراها، سيأسف أسفاً شديداً لتخليه عنها، لأنّ الفتاة ستكون جميلة، وستحمل بعضاً من صفاته، لكنّها لن تكون مهزوزة ضعيفة مثله، بل ستكون قويّة يجري دم أمّها في عروقها.

– أنا منصرفة – قالت صوفيّا قاطعة خطاب خيرونيمو، الذي كان يحاول جاهداً إقناعها كي لا تزحزح بجنونها حالة الانسجام التي نجح في بنائها، في الأشهر الأخيرة. أبعدت يديه عن كتفيها، ومرّرت يدها على شعرها، وخرجت بالاندفاع نفسه الذي دخلت به، ببطن بارزة وجبهة عالية. خرجت من المكتب مروراً بالسكرتيرة الشاحبة التي تظاهرت بالانشغال.

في منتصف الطريق بين ماناغوا والعزبة، راجعت صوفيّا ما سمعته من خيرونيمو، فغمرها شعور بالمذلّة والوحدة، وأجهشت بالبكاء، غير عابئة بالسائق، الذي راح يسترق النظر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-35-

- الغجريّة على وشك أن تلد. الطفْ بنا، يا يسوع المسيح، كيلا يولد الطفلُ بقرون وذيل!

تقول پاتروڤينيو لصاحبة الحانوت الكائن قرب حانتها، وهي تنتظر أن تلبّي لها هذه طلبها وتزن لها أرطال الرزّ والسكر.

- وهل من أخبار عن حمل خيرترودِس؟ ألا يبدو الأمرُ غريباً؟ فرينيه،إذاً، ليس عقيماً، ولا صوفيّا عاقراً. يبدو أنّهما لم يتوافقا حتى في الدمّ.

- وكيف للمسكين رينيه أن يتوافق، وهو الرجل الطيب، مع تلك المرأة الشريرة. لطف الله به أن حال دون أن تحمل منه. كانت معجزة! من يدري أيّ نوع من الأولاد كانا سيرزقان بهم! لقد نذرتُ لـ **الثالوث الأقدس** صلاة ثلاثيّة لينقذنا من **المسيح الدجال**، لأنّي لا أكفّ عن التفكير في أنّ هذه المرأة ستجلب المصائب على (ديريا).

- يا سيدة پاتروڤينيو، كم تشغلين نفسك بهذه الحكاية. أمّا أنا، فأرثي لحال صوفيّا. لا أحدَ يحبّها، وأظنّ أنّها أيضاً لا تحّب أحداً. ربّما ستهدأ نفسها وتعود طبيعيّة حين يولد الطفل. رأيتها، قبل أيام، في الكنيسة... كانت شاحبة.

- ما أقصر ذاكرتكم! هل نسيتم الرعبَ الذي أصابنا يوم اهتزّت الأرض.

- يقولون إنّ دونيا كارمن وشينتال سيولّدانها...

- طبعا... فهذا المخلوق لن يولد إلّا على يد ساحرات...

- لكنّ دونيا كارمن ولّدت أكثرَ نساء (ديريّا) و(كاتارينا).

تفرّقت آراءُ البلدة. لقد أقنع حملُ صوفيّا المنفرد وظهورُها المكرّر في الكنيسة، أكثر من شخص بأنّها لا تختلف عن العديد من النساء اللواتي هجرهنّ رجالهنّ بمجرد أن انتفخت بطونهنّ.

ولما كان مُصاب صوفيّا هو مُصابَ الكثيرات، فقد أشفقت عليها بعضهنّ وحسبنها واحدة منهنّ، بينما راحت پاتروثينيو وأخريات يترقبن الحدث، متشائمات متطيرات، يُذكّرن بالهزّة وبفضيحتها مع المحامي، ويغضبن إذ يرين أنّ حملَها بات ظرفاً مخففاً عن جرائمها. أمّا الموقفُ الأغرب فهو موقفُ خيرترودِس، وهي حاملٌ أيضاً، التي صارت تدافع عن صوفيّا ولا تكفّ عن تذكيرهنّ، بحماس القديسة وورعها، بالوصية التي تقضي بحبّ الآخر، وتوبيخهن على ما يحملن من ضغينة لـ «المسكينة» صوفيّا. حتى رينيه، وقد زالتْ عنه وصمة العُقم، بدا متعاطفاً معها، ميّالاً إلى الصفح عنها والرحمة بها، فالمحنة التي أصابت زوجته السابقة أصابت سواها الكثيرات، وهو ما يضعها على قدم المساواة مع بقية البشر.

في القداس، لم تفارق إنغراثيا صوفيّا. قرأ الأب پيو فقراتٍ من ميلاد يسوع، لا تتناسب وموسم **صوم الأربعين**. ولمّا كان يعي مخاوفَ رعيته، فقد حاول تبديد تأثير خطابات پاتروثينيو السيئ عليهم، واجتهد كي لا يُنظر إلى تلك الولادة على أنّها نذير شرّ، بل هي نعمة من نِعم الربّ. فصوفيّا، التي كبرت وحملت، والتي تقف هناك، ترسم على صدرها علامة الصليب بخشوع، ليست هي، في نظره، على الأقل، تلك الفتاة المتهورة المتمردة التي عرفها قبل بضعة أشهر؛ وها هو قطيعه ينعم بالسلام، بعد أن عاد إلى حظيرته أبناؤه الضالّون.

لم يلاحظ أحدٌ من سكّان البلدة غيابَ صوفيّا، ولم يعرف فاوستو بسفرتها إلى ماناغوا. فقد امتنع السائق، خلافاً لعادة السوّاق، عن أيّ تعليق، لأنّه تعلّم التكتّم من وظيفته السابقة، ولطالما تواطأ مع مخدوميه وتكتّم على خيانة هذا وتلك بعضهما لبعض.

مع المهارة التي اكتسبتها صوفيّا أثناء الحمل، في الانفصال عن الواقع والنظر إلى الداخل، راحت تقلّب أفكارها وتلهو عن العالم الذي يترقّب

ولادة ابنتها. كان فاوستو الوحيد الذي يضايقه الصمتُ المحيط بها، وهو، عند النساء، مؤشرٌ على اقتراب ساعة الولادة. أمّا إنغرائيا وبترونا فقد حرصتا على هدوء المنزل، كي لا تفسدا المرحلة الأخيرة من العلاقة الحميمة التي تربط الأمّ بابنتها، قبل أن تلتقيا، يوم الولادة، وجهاً لوجه، بعد انفصال هذه عن تلك، وإلى الأبد.

من أين يأتي الهجرُ والفراق؟ فكّرت صوفيّا. وممّ هو مصنوع؟ حتى في جنة الأرض، حيث كلّ شيء تام وكلّ مخلوق سعيد، تخلى الربّ عن آدم وحواء؛ تركهما عراة وحيدَيْن، أخرجهما من حضن جنّته الدافئ، نصب لهما فخاً، بل أفخاخاً، لكي يعضا التفاحة. ثم قتل قابيلُ هابيل. وتخلى والدا موسى عنه. تركاه في النيل، بدعوى إنقاذه من الموت. وهكذا هم البشر، يترك بعضُهم بعضاً، ويهجرون بعضهم بعضاً، عن حبٍ أو كراهيةٍ أو جُبنٍ أو شجاعةٍ مفرطة. كان الرجالُ يذهبون إلى الحرب ويتركون نساءهم، أو يقعون في حبّ أخريات؛ وتترك النساءُ رجالَهنّ الضعفاء، ويركضن وراء الأشدّاء الأقوياء.

تردّد صوفيّا أسماءَ الأشخاص الذين تعتقد أنّها أحبتهم. وتستعيد ذكريات طفولتها الهادئة في (الإنكانتو)، وتتذكر الاتفاق الذي أسّس لعلاقة بين إيولاليا ودون رامون، قوامها أن يكونا والديها دون أن يعيشا تحت سقف واحد، ودون أن يتخلّيا عن اختلافات نشأتهما وأصلهما. لم تفهم تلك الحالة قط: كانا بعيدَيْن بعضهما عن بعض، لكنّهما كانا متعلقين بعضهما ببعض، ولم يقلقني ذلك قطّ، فكّرتْ. لم تكن تنظر إليهما في شخصهما، ولم تلاحظهما إلّا بقدر ما يتعلق الأمرُ بها. فعلتْ وسعها لتبقيهما تحت تأثير دلعها الطفولي، منقادَيْن إليها، مسرورين بشقاوتها وعفرتتها، ينفّذان رغباتها ويستجيبان لنزواتها. لكنّها أحبتهما، قالت لنفسها. ألم تتحمّل رينيه إكراماً لهما؟ ألم تحرص على ألّا تجرح مشاعرهما وفضّلت الانتظار حتّى يأخذهما الموتُ بصمت وهدوء؟ نعم، لقد أحبتهما، ردّدت مع نفسها، رغم كلّ ما احتالت به لخداعهما والحيلولة دون أن يطلعا على دواخلها؛ لكنّ ذلك سلوكٌ عامّ بين الأولاد. هي الآن أيضاً لا تعرف ابنتها، التي تتنفّس من خلال الماء الذي في أحشائها. ولا أمّها كانت تعرفها. فما الغرابة،

إذاً، في أنّهما لم يكتشفا الحيل التي استخدمتها لكي يُخرجاها، على سبيل المثال، من المدرسة في غرناطة؛ أو لكي لا تصرّح بالمهانة والسخط اللذين تحملتهما مع رينيه؟

ثمّ إنّ ماما إيولاليا وبابا رامون تخلّيا عنها أيضاً، وعلى طريقتهما، حين ماتا فجأة، وإن كانا، في حياتهما، مستقرين ثابتين، مثلهما مثل فاوستو وشينتال ودونيا كارمن. كانا مستقرين، مع ذلك، لم تكن تضمن رحيلهما، يوماً مّا. ابنتها فقط هي حبّها المضمون. وستتكفّل هي بذلك. ستكون معها كائنين لا ينفصلان، وستمنح البنت كلّ شيء، كلّ شيء، لكي تكون سعيدة فلا تتركها أبداً، حتى بعد أن تتزوج ويصبح عندها أولاد. فبعد أن عجزت عن العثور على ما يضمن لها الغلبة على الهجر، صنعت لنفسها تعويذتها الحامية، ورفقتها الباقية. لا يهمّ ألّا يكون لفتاة أبٌ والد، يكفيها أن يكون لها أمّ، بل إنّ ذلك أفضل؛ فهي لن تكسب شيئاً مع أب من شاكلة خيرونيمو - الذي صارت تشعر نحوه بحقد شديد يجعلها ترفض فكرة أن تتورّط ثانية وتحبّ كائناً آخر من الرجال.

- سخّني الماء -أمرت دونيا كارمن پترونا، فأخرجت هذه الطنجرة التي اشتروها خصيصاً لتلك المناسبة، ووضعتها على النار-. واعملي لنا قهوة أيضاً، فهذه الليلة ستكون طويلة.

- يا إلهي، دونيا كارمن، كم أنا متوترة -قالت پترونا-. كيف ترين حضرتك الحالة؟ هل تعتقدين أن كلّ شيء سيتمّ على ما يرام؟

- ما من شيء يمنع ذلك -ردّت المرأة-. صوفيّا قوية وشابة، ويبدو لي أنّ وركيها سينفتحان دون صعوبة. لا داعي للتوتر. يكفي توترها هي.

- وشينتال؟

- هي في طريقها إلينا - قالت دونيا كارمن، وخرجت من المطبخ.

راحت صوفيّا تتمشّى في الممر، جيئة وذهاباً، وهي تمسك بطنها. في الساعة الخامسة، وبينما كانت تسقي النبات، أحسّت بسائل ينزل منها. إنّها بدايات المخاض. أرسلت في طلب دونيا كارمن وشينتال، فتحت نوافذ غرفتها، وخلعت بنطالها المبلول وارتدت ثوباً أبيض، ولبست نعالها

المطاطية المريحة. كانت جالسة في الممرّ، شاحبة، والهالات السود تحيط بعينيها، حين رآها فاوستو.

- البنتُ ستُشرّف اليوم - بادرته صوفيّا القول.

لم يشهد فاوستو، من قبل، مخاضاً، لذلك ولّد حضوره في نفسه شعوراً جميلاً، وإن كان مشوباً بالخوف. لقد ألحّ على صوفيّا أن ينقلوها إلى المستشفى حين تحين الساعة، لكنّ صوفيّا أرادت أن يولد الطفل في البيت، بإشراف صديقاتها اللاتي قالت إنّهنّ «يعرفن في هذه الأمور أكثر من أيّ طبيب». جلس فاوستو في الممرّ، وبقربه زجاجة الرون، يراقب صوفيّا، وهي تتمشى، من جانب إلى آخر، ومعه دفتر صغير يسجّل فيها عدد الطلقات التي تبلّغه بها صوفيّا. في تلك الأثناء، كانت دونيا كارمن تتحرّك، جيئة وذهاباً، بين المطبخ وغرفة النوم، حيث جهّزت طاولة بجانب السرير لتضع عليها المقص الذي ستقصّ به الحبل السرّي، والقطن، والمناشف، وأوراق الحرمل، لإيقاف النزيف. من الممرّ، راح فاوستو يراقب حركة النساء. بدت كلّ واحدة منهنّ عارفة بمهمتها. وباستثناء بترونا، التي كان توتر أعصابها ينعكس على فرقعة الطناجر التي تُسمع من المطبخ، فقد كانت صوفيّا ودونيا كارمن تتصرفان بهدوء وتركيز. أمّا هو فلم يكن أمامه غير مراقبة الوقت والتحكّم بعلم الإحصاء، من خلال التسجيل الدقيق لعدد الطلقات التي تبلغه بها صوفيّا، وهي تقول له، وقد ارتسم على وجهها تعبيرٌ ينمّ عن ترقّب وتركيز عميق: «أخرى قادمة».

يشتدّ الحرّ في ليل نيسان، ويعلو غناءُ الزيزان، داعية بعضها بعضاً إلى التزاوج. القمر بدرٌ. تهتزّ أوراقُ النباتات متلألئة، في الباحة الداخليّة، بفعل النسمات العليلة المفاجئة، الذي تفسح لوقت طويل من السكون، يبدو الوقتُ، أثناءها، كأنّه توقف.

لم يشتدّ الطلق بعدُ، ونوباته ما زالت متباعدة؛ مع ذلك، فقد كان في مقدور صوفيّا، في هدأة الليل، وسكون هوائه، أن تجرّب آلية جسمها، وهو يضبط إيقاع احتفاليّة الحياة. فالبطن تختبر مطاطيتها وتتصلّب لدفع الجنين. «مسكينة»، تفكّر صوفيّا، وهي تتخيل تفكير الجنين الناشئ، يستغرب

أن يُدفع به دفعاً إلى خارج البيضة الواقية التي وفّرت له المأوى والدفء والغذاء، على مدى تسعة أشهر. تحدّثُ صوفيّا ابنتها، لتهدئتها، إذ تتصوّرها خائفة، لكنّها تنساها وتلتفت إلى نفسها وإلى دعوة دونيا كارمن لها بالتنفس عميقاً، حين يأتيها الطلقُ ويعتادها الألمُ في أسفل ظهرها، فكأنّه كماشة عملاقة تفتح عظامها.

– لا تتوقفي –تقول لها دونيا كارمن حين تخرج إلى الممرّ وتراها واقفة، تنظر إلى الحديقة الداخلية وتدعك أسفل ظهرها بيدها–. كلّما مشيتِ أكثر وتشجّعتِ، كانت الولادة أسرع وأسهل. تذكري أنّكِ في البداية. كيف يسير الطلق؟ – التفتت نحو فاوستو:

– نوبة كلّ عشر دقائق أو ثمانٍ وتدوم دقيقة تقريباً.

– ما زال الوقتُ مبكراً –قالت دونيا كارمن، وهي تنظر إلى صوفيّا، التي عادت إلى المشي، ذهاباً وإياباً، في الممرّ–. بقليل من الحظ، سنشهد الولادة عند الفجر، فلا تقلقوا.

– الألمُ في أسفل ظهري يشتدّ – قالت صوفيّا.

– صحيح، يا ابنتي. لا بدّ أن تنفتح عظامُك حتى يمرّ رأسُ الطفل. هذا طبيعي. لا تقلقي.

تتأرجح دونيا كارمن على كرسيها، وترتشف القهوة التي أتت بها من المطبخ.

– صدقت توقعاتي –قالت–. الليلة الماضية، حين رأيتُ القمر، فكّرتُ أنّ البنت ستولد اليوم. ولذلك كنتُ، حين جاء السائق ليحضرني، قد جهّزت نفسي.

– ألا ترين حضرتك ضرورة لنقلها إلى المستشفى؟ – قال فاوستو، ونظراتُ صوفيّا تلومه على إلحاحه.

– ولماذا المستشفى؟ –قالت دونيا كارمن. ثمّ راحت تعدد حسنات أن يولد الطفل من دون الاستعانة بالكثير من الأدوات والأجهزة؛ وتستغرب أن يفكّر فاوستو في المستشفى على الرغم من أنّ الولادة عمليّة طبيعية تماماً، وأنّ في الجسم من الحكمة ما يغني عن أيّ تدخلٍ في آليّة الطبيعة. لو كانت

صوفيّا نحيلة وهزيلة، وقدّروا أنّها تحتاج إلى عملية قيصرية، لكانت هي نفسها أوصت بذلك-. ولكن انظرْ، فاوستو، إلى هذه المرأة -أضافت، وهي تشير إلى صوفيّا-. أوَتظنّ أنّها ستواجه مشاكل؟... خير للطفل أيضاً أن يولد في المنزل. الأطفال الذين يولدون في البيت أكثر سعادة من المساكين الذين لا يرون، حين خروجهم إلى العالم، إلّا أشخاصاً مقنعين ومصابيح ضخمة. لا تقلق، فاوستو، فليس بيننا من لا تعرف مسؤوليتها. وإن اضطررنا إلى نقلها إلى المستشفى، وهو ما لا أعتقده، فلدينا من الوقت ما يكفي.

يكاد الحديث بين دونيا كارمن وفاوستو لا يبلغ مسامع صوفيّا، التي كانت تشعر بأنّها في عالمٍ آخر، عالمِها، حيث تختلط أفكارُها بأفكار ابنتها، التي تتحرك في داخلها، بصعوبة، بالتأكيد، من الزحمة. إنها تخشى أن يبلغ ألمها حدّاً لا يطاق. تؤلمها بطنها، كما حين تشتدّ عليها الدورة الشهرية، مع ذلك، تكرّر دونيا كارمن القول إنّ الوقت ما زال مبكراً. خذي نفساً عميقاً وواصلي المشي.

بعد قليلٍ وصلت شيتال. في المطبخ، أعدّوا عشاءً خفيفاً من التورتيّا والجبن والفاصوليا. كانت صوفيّا تسمعهم وهي في الممر فتسعد لوجودهم معها، يرافقونها ويساعدونها.

عند الحادية عشرة ليلاً، شعرت صوفيّا بأنّها ما عادت قادرة على الوقوف على قدميها. أرادت أن تستلقي في الفراش: فالآلام باتت قوية، والطلق بات يقع كلّ دقيقتين.

- أشعر أنّها قادمة -قالت، وقد تغضّن وجهها-. أشعرُ بالثقل ينزل أكثر فأكثر.

سارت إلى غرفتها ببطء، مستندة إلى فاوستو. منذ وقتٍ والرجل لا يتكلم. إنّه لا يستطيع السيطرة على الانقباض الذي يشعر به في معدته وهو يرى وجهَ صوفيّا منقبضاً من الألم. المرأة لا تشتكي، لكنّها تُصدر صوتاً غريباً يرافق شهيقها وزفيرها لحظة الطلق. واضح أنّها تعاني. حين وضع فاوستو يده على جبينها وجده بارداً ومتعرقاً. في تلك اللحظة، فرح فاوستو من أنه لم يُخلق امرأة. صحيح أنّه يثمّن في المرأة قدرتها على أن تَهِب الحياة، لكنّه

يتخيّل مقدار الألم الذي يعنيه خروج جسم بذلك الحجم من فتحة بالغة الصغر. إنّ مجرّد تفكيره في الأمر، يجعل عضلته العاصرة تنقبض.

ظلّت دونيا كارمن وشينتال هادئتين كما هما منذ البداية. تقترب إحداهما، من وقت لآخر، من صوفيّا، لتتلمّس جبهتها أو لتعصر يدها، في تصرّف العارف المجرّب، الذي يحمل في طياته تميّز الخبير على الغشيم. يزعج الإجراءُ فاوستو، لكنّه يطمئن صوفيّا.

طرحنها على السرير، وأخرجن فاوستو من الغرفة، لأنّ دونيا كارمن كانت تستعد لـ «فحص» صوفيّا. بعد برهة، خرجت پترونا من الغرفة لتأتي بطشت الماء المغلي، فأخبرته بأنّ الولادة لن تتأخّر طويلاً: «ظهر الرأس»، قالت له، أمّا هو، فقد اتّجه، بعد سماعه ما قالته الخادمة، إلى الطاولة، مرعوباً، ليصبّ لنفسه كأساً أخرى من الرون.

منذ برهة، وصوفيّا تكتم رغبتها في الصراخ. فالألم عميق، ومتواصل، فكأنّما جُنّ جنونُ جسمها، وراح يدمّر نفسَه بنفسه؛ العظام تنفتح وتسعى إلى لفظ هذا الجسم الضخم، الذي ما من سبيل، في ما يبدو، لخروجه من بين ساقيها. تعتريها رغبة في التغوط، في التبول. تنحني شينتال ودونيا كارمن وپترونا أمام ساقي صوفيّا المنفرجتين، ومن وقت لآخر، تمتدّ يدٌ، لا تعرف يد أيّة واحدة منهنّ، لسبر داخلها، ممّا يزيد في ألمها. تطلب منهنّ ألا يمسوها، فتردّ عليها شينتال بأنّهنّ يساعدنها على أن يكون رأس الجنين في الوضعيّة المناسبة للمرور من أضيق جزء. «لا تقلقي»، قالت لها القابلتان، «ادفعي». تقترب پترونا من رأسها وتسلمها منشفة لتعضّ عليها أو لتمسك بها، فصوفيّا لا تجد ما تتشبّث به. ضربت بيديها بقوّة فكأنّها تريد أن تتخلّص من القابلتين، أن تخرجهما من الغرفة، أن تقول لهما أن يتركاها، لكنّها لا تجدُ القوّة الكافية، فالألم لا يسمح لها حتّى بالانحناء. حين طلبت دونيا كارمن منها أن تدفع، شعرت كأنّ جسدها كلّه يطلب منها أن تلفظ، مرّة واحدة، ذلك الشيء الذي يعمل تقطيعاً وتكسيراً بأحشائها. إنّ ابنتها، التي طالما حلمت بها، تدمّرها؛ إنّها تمزّقُها لتُفسح لنفسها، غير معنيّة بما يحدث لأمها؛ فكلّ واحدة تسعى إلى البقاء بعد الأخرى. ترغب في البكاء، فلماذا كتب على البشر أن تتألم أمّهاتهم حين الولادة؟ ولماذا كتب عليهم

أن يمزّقوا أجسام أمّهاتهم؟ الألم فظيع. تتصبّب صوفيّا عرقاً، وتحرّك رأسَها على الوسادة، يائسة. وأخيراً، أمسكت بإحدى يدي بترونا، فراحت تضغط عليها وتنشب، ربّما، أظافرها فيها. وهنا سمعتْ، من مكان أسود، بدأت فيه تغيب عن نفسها، صوت شينتال وهي تقول «ها هو، ها هو»، وشعرت بذلك الجسم يخرج من أحشائها، فكأنّ سمكة خرجت من بين ساقيها، جسم ملطّخ ومثير للاشمئزاز، ثمّ شعرت برغبة في ضمّ ساقيها، بعد خروج السمكة. أغلقتْ عينيها، وودّت لو استطاعت أن تنغلق على نفسها تماماً، لكنّها سمعت دونيا كارمن تقول: «ها هي البنّوتة، تامّة وجميلة»، ثمّ سمعت صرخة الطفلة تكسر كونشيرتو الزيزان وصمتَ الليل، فلم تتمالك نفسها، فراحت تصرخ بكلّ قوّتها، وتنفث كلّ مكنونات صدرها، من يأس وفرح، فقد انتهى ذلك العذاب، وانتهت معاناتها الغريبة اللعينة تلك. تصرخ ثمّ تبكي وهي ترى الطفلة التي وضعتها دونيا كارمن على بطنها، وقد انعكس عليها ضوءُ الغرفة. تضمّها إليها، والطفلة ما تزال مربوطة بها، وتحتضنها بقوّة غريزيّة، ثمّ لا تلبث أن تخفّف من شدّة ضمّها حين تتحسّس وزن الجسم الصغير الدافئ، والأيدي الصغيرة التي تتحرك. وتشعر بالحياة التي تدبّ في ابنتها، وتميل برأسها لتعاين الوجهَ الصغير المغضّن والعينين المغلقتين والظهرَ والردفين الصغيرين.

ولزمت شينتال ودونيا كارمن وبترونا الصمت. وخفّ فاوستو مرتعباً، حال سماعه صراخ صوفيّا. ظلّ واقفاً عند الباب يتأمّل المشهد، غير قادرٍ على الكلام. لم ير وجه صوفيّا هادئاً مطمئناً كما رآه في تلك اللحظة. فكأنّها لم تخرج للتو من ذلك الجحيم الصغير. وكأنّها لم تكن هي من كانت تصرخ كالمجنونة.

- سأقطع الحبل السرّي -قالت دونيا كارمن-، فلن تلبث أن تخرج المشيمة.

- انتظري لحظة - قالت صوفيّا. رفعت البنتَ الصغيرة ووضعتْ خدّها على خدّ ابنتها، فكأنّها تودّعها.

أخذت دونيا كارمن المولودة، وقلبتها ثمّ قطعت، بحركة سريعة، الحبلَ

وعقدته. وأغمضت شينتال عينيها، فهذه اللحظة، عندها، أكثرُ لحظات الوجود دراماتيكية؛ إنها لحظة بداية عزلة الإنسان، عزلته التي لن يجد منها خلاصاً.

بادرت شينتال لتحميم الطفلة، بمساعدة پترونا، بينما راح فاوستو يراقب المشهد. أمّا دونيا كارمن فالتفتت إلى صوفيّا، التي تخلّصت من المشيمة، لتكمل تنظيفها.

حين انتهت شينتال من إلباس المولودة، حملتها إلى أمّها، ووضعتها في حضنها:

– البنت من برج الثور. والبنت الثور لا تستوعب أن تُفرض عليها الحياةُ فرضاً، وإن فرضت الحياة نفسها عليها بالقوة، انغلقت على نفسها، مثل الصدفة في البحر. إن أردتِ أن تعلّميها، فبالحب. يلزمها الكثير من الحبّ، وإلّا كانت صامتة ومزاجية، وربّما قاسية. عليكِ أن تحدّثيها بلطف وبمنطق، فهي تستطيع فهمك. تحبّ الأشياء الجميلة وتقدّرها. تتعرف على العالم من خلال حواسها، وتحب الألوان اللطيفة. تبحث عن تناغم الموسيقى، وفي مقدورها أن تكون سعيدة وأن تجعلكِ سعيدة معها، ما دامت لغة الحبّ هي لغتك. يعجبها أن تعمل الأشياء على طريقتها، وستجدينها عنيدة، منذ سنّ مبكرة، لكنّها، أكرّر عليك، لا تقاوم الحبّ.

أحاطت النسوة وفاوستو بالسرير، ونظروا جميعهم، ومعهم صوفيّا، إلى الوجه الأحمر المدوّر، معجبين بحُسن الطفلة وجمالها، ومندهشين من مقدار شبهها بأمّها. نظرت صوفيّا إلى ابنتها وابتسمت، غير قادرة على أن تحتوي السعادة التي حلت فيها، فجأة، محلّ الألم، وغمرتها بإحساس من الرضا والأمل.

-36-

ترى صوفيّا في حلمها مطابخ كبيرة، وترى نساءً يشبهن شينتال، ينقلن، على شاطئ البحر، قدوراً ينبعث منها البخار. وترى رجلاً يقول إنّ اسمه إستيبان، يأخذها لكي تعاين بركاناً أخضرَ تغطّيه الطحالب، ويشرف على بحيرة راكدة المياه داكنة الزرقة. إنّها بداية العالم، حيث المياه لم يمسسها بشر. إنّه زمنُ الطوفان. ألوان بدائيّة صارخة، لم ترَ في حياتها مثلَها. توقظها فكرة أنّها تقفُ على حافّة لغز عميق سحيق. في المسافة القصيرة بين الغفوة والصحوة، تطفو أحداثُ الليلة السابقة، تفور حتّى عيناها، اللتان تفتحهما، وهي تعلم أنّهما سيعيدانها إلى ابنتها الراقدة إلى جانبها على السرير.

عينا الصغيرة مفتوحتان. يبدو أنّها كانت تنظر، منذ وقت طويل، إلى أمّها. رأت صوفيّا في نظرة الطفلة حكمة لافتة. بدت لها نظرة من ارتاب في شخصٍ لوقت طويل وها هو يراه أخيراً. «ها هي»، فكّرت.

«ها هي، وهي تعرف ذلك»، تقول لنفسها، وهي تنظر إلى الصغيرة، مبتسمة، لتكسر حاجز الخوف من عاطفة لم تعرف لها مثيلاً، تجاه تلك المخلوقة، التي بالكاد تعرفها.

– مرحباً، بُنيّتي –قالت لها، ومرّرت سبابتها، برفق، على وجهها، لتلامس بشرتها البيضاء الناعمة–. مرحباً، فلابيا –قالت لها، وراحت تقلّب قبضتيها المغلقتين، لتنظر إلى أصابعها الصغيرة. ترفع الملاءة عنها، وتتفحّص ساقيها وقدميها وسوءتها وحلمتيها. ثمّ تقلبها، لتعاين أردافها–. أنتِ كاملة مكتملة، أيّتها المرأة الصغيرة. أنتِ تامّة صحيحة! –صرخت–، وتشبهينني، سوى أنّكِ بيضاء. مؤسفٌ أنّكِ أخذتِ لون جلد أبيك، لكنّ عينيك تشبه عينيّ،

وأنفك... حسناً، أنفكِ ما زال غير واضح، لكنّي أعتقدُ أنه يشبه أنفي، وكذلك فمك... فلابيا، أنتِ طلعتِ على أمك - قالت، وهي تُلبسها من جديد، حادبة على سريرها، بينما ظلّت عينا الفتاة مفتوحتين، وإن بدا أنّها حوّلت اهتمامها بأمّها، وراحت تنظر حولها وتحرك يديها ورجليها.

حملت صوفيّا الطفلة بين ذراعيها، قاصدة التغلّب على الخوف الذي توحي به هشاشة عظام المولودة. وتقرّب الرضيعة من ثدييها، فتحرّك هذه رأسَها نحو أقرب الحلمتين، مثيرة دهشة أمّها، المألومة من صدرها، الذي تضخم وامتلأ بالحليب بين عشيّة وضحاها.

- انظري، فلابيا، ما أضخمهما! أنتِ تعرفين ما هما، أليس كذلك؟ فأنتِ لستِ غبيّة - قالت، وكشفت عن صدرها، وأخرجت أحدَ ثدييها وقرّبته من فم الصغيرة، كما تفعل الأمّهات. بحثت الطفلة، بوجهها الصغير، عن الحلمة. وما إن وجدتها، بتوجيه من صوفيا، حتّى تمسّكت بها وراحت تمصّ منها وتمصّ، أمام نظرات أمّها الذاهلة المتعجّبة.

- هل ترضع؟ -صاحت دونيا كارمن، وهي تدخل إلى الغرفة، بعد أن استحمّت-. أراكما لا تضيّعان وقتاً، وقد ظننتُ أنّي سأجدكما نائمتين! - قالت وهي ترسم على فمها ابتسامة عريضة.

- وجدتْ طريقها، وحدها، دونيا كارمن. لا أفهم كيف فعلت ذلك، وهي ابنة ساعات. يبدو أنّها ستكون جريئة مثلي.

ودخلت بترونا وشينتال وفاوستو. جاءوا لرؤية الطفلة والاطمئنان على صوفيّا. لم يسألوها عن حالتها، فها هم يرون أنّ آلام المخاض باتت من الماضي. مع ذلك، فما زالت الوالدة تشعر بالألم، بعد أن مرّ جسمُها كلّه في ما يشبه معصرة عملاقة. حين نهضت صوفيّا للذهاب إلى الحمام، أحسّت بألمٍ في ظهرها، لكنّه، فكّرت، لن يلبث أن يزايلها، بعد أن دفعته ضريبة مستحقّة، ثمّ إنّها لن تجرّب الإنجاب ثانية، على الرغم من أنّ خروج تلك الصغيرة من أحشائها، بدا لها عملاً من أعمال السحر.

وما هي إلّا ساعات، حتّى شاع الخبرُ في (ديريّا). لم ترغب إنغراثيا في أن تشهد المخاض، إذ لا قبل لها على رؤية المشاهد التي ترهق قلبها،

لكنّها لم تتردّد في مرافقة سائق المزرعة، الذي أرسلته صوفيّا ليأتي بها. وما كان للناس، في السوق وفي الحوانيت وفي الحانات، أن يجدوا مادة دسمة للحديث خيراً من تلك.

– يُقال إنّ البنتَ جميلة. بلا قرون ولا ذيل – أبلغت بيرونيكا پاتروثينيو في الصباح الباكر.

– علينا الانتظار –ردّت صاحبة الحانة–، وعلينا أن نقنع الأب پيو بفحص أعلى رأسها، حين يعمّدها، هذا إذا عمّدوها، للتأكّد من خلوّه من الستات الثلاث، علامة **المسيح الدجال**.

– كفاكِ ترّهات، پاتروثينيو –تدخّل خوليان–. أوّلاً، لأنّ **المسيح الدجّال** رجل. عليك، إذاً، أن تنتظري حتّى تخلّف صوفيّا ولداً. ليس من حقّك التشهيرُ بطفلة بريئة، بعد أن لم تقدري على أمّها.

وراحت تيريسا، زوجة ناظر المزرعة، تردّ على الأسئلة، وهي تجوب السوق والدكاكين، وتقول إنّ الولادة جرت من دون مشاكل، وإنّ صوفيّا بدت سعيدة، وإنّها باتت تمشي، وإن اسم الفتاة فلابيا، لأنّ أمّها قرأت الاسم، الله أعلم أين، وبدا لها مهمّاً ويناسب المستقبل الذي تنتظره لابنتها.

ركع الأب پيو أمام المذبح، يشكر الربّ على هذه الروح الجديدة التي انضمّت إلى رعيته. أشعل شمعة للعذراء وصلّى من أجل صحة المسيحيّة التي ستعمّد بالروح القدس وسعادتها.

وتلقت خيرترودِس، الحامل في شهرها الأول، الخبرَ بكرم الأخلاق ذاته الذي تجاوزت به عن إهانات صديقتها. أبلغت رينيه بالخبر، ساعة الغداء، ونقلت له ما يتداوله الناسُ من تفاصيل، وأعلمته، بين مخبرة ومستشيرة، بعزمها على زيارة صوفيّا ورؤية طفلتها وتسوية خلافاتها معها.

– وستذهبُ أنتَ معي –قالت له–. آن الأوان لأن نكون متحضرين، ولا نظلّ على أحقادنا.

– إن أردتِ الذهاب، فاذهبي. أمّا أنا، فلا أسعى لأن أكون قديس (ديريّا) كما تسعين أنتِ.

وعاشت صوفيّا أسعد أيام حياتها.

لا تشبع من حمل البنت واحتضانها. وتستمتع بإرضاعها أيّما استمتاع، رغم الألم الذي تشعر به وهي تتلقى عضها لحلمتيها الكبيرتين الداكنتين، المألومتين.

تفتح الفتاة عينيها وتتطلّع إلى كلّ شيء، فترى أمّها فيهما فضولاً وحبّ استطلاع. تبكي وتصرخ ساعة الرضاعة، فتهرع صوفيّا، لتحشر حلمة ثديها في فم الطفلة، بعد أن بلل الحليب المتدفق ملابسها. معجزة. وكان فاوستو، هو الآخر، سعيداً. فتراه يختلق أيّة حجّة ليترك الحقل ويعود إلى المنزل، ليطلّ على «ابنة أخته». وفوجئ الجميع، بعد أيّام، بزيارة الأب پيو، الذي آثر الانتظار وقتاً معقولاً قبل أن يدعو المسيحيّة الجديدة إلى التبرّك بماء المعمودية.

- أنعم الربّ عليكم بمساء طيّب، يا أولادي -قال، وتقرّب ليحييهم ولينظر من قريب إلى فلابيا، التي استقرّت، مكوّرة وملفوفة في ملاءة وردية، في حضن والدتها-. لنرَ كيف هي... كم هي جميلة! - صاح الكاهن.

- أليس هذا أجملَ ما رأيتَ، أبانا؟ - ابتسمت صوفيّا.

- لم يبق غير تعميدها، يا ابنتي. وأنا أنصحكِ بتعميدها في أقرب وقت.

- أليس من الأفضل الانتظار حتى تبلغ سنّ الرشد لتقرر ذلك بنفسها - أجابت صوفيّا.

- تلك هي أفكار الكهنة المشعوذين، أوضح الأب پيو. كلّنا نعرف أهميّة أن نضمن دخول أطفالنا إلى الجنّة، كي لا يقعوا عرضة ليمبوس لا ينفع، إن وقع لهم حادثٌ أثناء نموّهم.

- المشكلة، أبانا، أنّي غير متحمّسة لتنظيم أيّ احتفال -قالت صوفيّا-. مع ذلك، فإذا وجدتَ حضرتك ذلك ضرورياً، فسأصطحبها، إلى الكنيسة، يوم الأحد المقبل، وسنعمدها هناك، دون ضجّة.

استغرب الراهب أن تطلب صوفيّا أن تُعمّد ابنتُها في أضيق نطاق، وهي التي ما انفكت تحتفل بالأحداث الضخمة وتقيم الحفلات الصاخبة. تخيّل أنّها ستنفق الكثير الكثير، ولكن يبدو أنّ الأمومة غيّرتها وجعلتها أكثر هدوءاً، فكّر، وهو أمرٌ مناسب لها.

– كما تشائين، بنيّتي. المهم هو أن تُعمد البنت. أمّا الاحتفال فهو أمرٌ متروك لكلّ شخص. أنا يكفيني أن تحتفي الملائكة بها.

وهكذا اتفقا على أن تُعمّد فلابيا يوم الأحد التالي.

وصلت صوفيّا إلى الكنيسة، في الموعد المحدد، برفقة فاوستو وإنغراثيا، اللذين سيكونان العرابين. بقي العديدُ من المؤمنين الذين حضروا قداس الحادية عشرة يتجولون في أرجاء الكنيسة، متظاهرين بالصلاة أو بإشعال شموع النذور أو بانتظار الاعتراف. لكنّهم كانوا يرغبون في رؤية صوفيّا مع ابنتها أمام حوض التعميد والتحقق من أنّ شيئاً خارقاً لن يحدث حين يصبّ الراهب پيو الماء على الرأس الصغير، ليعمدها باسم **الأب والابن والروح القدس**.

وتابعت خيرترودِس تفاصيل مراسم التعميد من مكان قريبٍ، وقد حشرت رأسها بين يديها، متظاهرة بالصلاة. كانت، في الواقع، تستحضر شجاعتها لتقدم على الخطوة التي قرّرت اتخاذها، في التقرّب من صوفيّا وحلّ الخلافات القديمة بينهما. كانت خيرترودِس تعلم أنّ الصديقة لاحظت وجودها، إذ التفتت ناحيتها، حين دخولها، والطفلة بين ذراعيها، وإن تظاهرت بأنّها لم ترها.

بدت صوفيّا لخيرترودِس متعافية وجميلة وأنيقة، كأنّ الأمومة جمّلتْها ورشقتْها، وإن لم تفلح في تجريدها من سمة الفرس الجموح التي تؤطّر صورتها، والتي تبدو واضحة في حركة ذراعيها وتحريك شعرها وحمل الطفلة بثقة رأت خيرترودِس أنّها لن تكتسبها إلّا بعد أن تنجب نصف دزينة من الأولاد.

ومن مقعدها، راحت خيرترودِس تتابع مراسم التعميد. وسمعت صوت فاوستو وإنغراثيا، وهما يردّان على تنبيهات الراهب إذ سألهما إن كانا يرفضان الشيطان ويرفضان بهرجته وزينته وأعمالَه، ويحدّثهما عن واجبات العرّاب. سمعتهم يسمّون الطفلة فلابيا، وسمعت صوفيّا تصرّ على ألّا يكون اسم الطفلة فلابيا ماريّا ولا فلابيا إيولاليا ولا فلابيا مرثيديس. فلابيا، فقط. وصبّ الأب پيو الماءَ على رأس فلابيا، فأطلقت صرخة تنمّ عن صحة تامة

ورثتين قويتين. ناولت إنغراثيا الطفلة إلى أمّها، التي راحت تطبطب عليها وتهدهدها.

كان على خيرترودِس، مع انتهاء مراسم التعميد، أن تتخذ قراراً سريعاً. فقد كانت صوفيّا والآخرون يهمّون بالانصراف إلى الشارع، حيث تنتظرهم *الجيب* لإعادتهم إلى العزبة. نهضت وعدّلت طيّات فستانها، واقتربت من صوفيّا، مبتسمة، لتسّهل على نفسها المهمّة.

– مبروك، صوفيّا! من يصدّق أنّكِ بِتّ أمّاً لطفلة، وكنّا، حتّى وقت قريب، نلعب بالدمى؟

– وأنتِ أيضاً ستصبحين أمّاً... لم يبق أمامك الكثير.

– دعيني أرى البنت.

وناولتها صوفيّا الطفلة، دون تردد.

– ما أجملها! إنّها تشبهك.

– أنا سعيدة بحضورك، خيرترودِس. في إمكاننا، وقد نضجنا وكبرنا، أن نعود صديقتين كما كنّا.

خرجت خيرترودِس مع المجموعة، التي كانت شاهدة على الصلح بين الصديقتين. شعر الأب پيو بـ **الروح القدس** يطوف حول الكنيسة، فراح يبتهل، في قلبه، إلى الربّ أن يعمّ الصفاء (ديريّا) وألا يقع ما يفرّق شمل قطيعه.

وصلت خيرترودِس حتّى *الجيب*، وهي تحمل المولودة. ناولتها إلى أمّها بعد أن طبعت قبلة على خدّها.

– أنتظركِ – قالت صوفيّا.

– سأزورك ذات عصر – أجابتها خيرترودِس.

-37-

باتت فلابيا مركز الحياة في (الإنكانتو)، وتغيّر إيقاعُ البيت الكبير، الذي سرعان ما امتلأ بأجهزة اشتروها من ماناغوا. في الممرّ، وضعوا حظيرة لعبٍ صفراء برّاقة، علّقت فيها أجراسٌ وأشياء زاهية الألوان. تفرح الطفلة بما تراه فتلوّح بذراعيها الصغيرتين.

تولت پترونا مهمّة المربّية واقترحت على صوفيّا أن تتولى تيريسا شؤون المطبخ لكي تتفرّغ هي لمساعدتها في العناية بالطفلة. استحسنت صوفيّا الفكرة، لكنّها لم تكلّف پترونا بغير المهام الروتينيّة المملة، كغسل ملابس الطفلة وعشراتٍ من حفاضاتها، أمّا تحميمُها وإطعامُها وتنويمُها، فقد قرّرت صوفيّا مع نفسها أن تكون مسؤوليتها حصريّاً، إذ لا بدّ للبنت أن تحظى بما حُرمت هي منه.

وصلت خيرترودِس، كما وعدت، ذات عصر، إلى (الإنكانتو). لم تدم الزيارة طويلاً، فليس لديها الكثير لتقوله. حكت كلّ منهما للأخرى عن تجربتها مع الحمل، دون التطرق إلى ذكر الآباء، وأيّة غرابة في ألّا تذكر النساءُ أزواجهنّ حين يجري الحديث بينهنّ عن الأولاد.

«لن نعود صديقتين كما كنّا -قالت صوفيّا لفلابيا، بعد أن ودّعت خيرترودِس عند الباب-، لكنّنا، على الأقل، لن نكون عدوتين»

- حان الوقتُ لكي تكرّسي جزءاً من وقتكِ لأشياء أخرى -قال فاوستو بنبرة حازمة، وهو يتناول الغداء مع صوفيّا، بعد ثمانية أشهر من ولادة البنت-، فأنتِ تجنين على الفتاة حين تصرفين لها كلّ وقتكِ واهتمامكِ. هذا يضرّها. أنتِ تفعلين ما كانت أمّي تفعله معي. هكذا، يشعر الأطفالُ

بالاختناق. اتركيها مع پترونا وعودي إلى مشاغلك في المزرعة، ففي ذلك مصلحتك ومصلحتها.

شعرت صوفيّا كأنّ عقرباً لدغتها، فما أدراه هو بتربية الأطفال؟ ثمّ إنّ ابنتها هي ابنتها، وهي لم تأتِ بها إلى الدنيا ليربّيَها غيرُها.

- أنتِ لا تسمعين لأحد -ردّ فاوستو-. وقد قالت لك دونيا كارمن وشينتال إنّك إن واصلتِ تدليل البنت، فلن تتمكني من السيطرة عليها مستقبلاً. وها أنتِ ترين كم هي عنيدة، وهي بعدُ طفلة.

لم تردّ صوفيّا عليه، بل نهضت، مستاءة، وتركت الطعام واتجهت إلى غرفتها. وجدت فلابيا جالسة في السرير، تلعب بزجاجة الرضاعة الفارغة.

طفلة سمينة ومتعافية. عيناها كعيني أمّها، وكذلك فمها، أمّا أنفها فما زالت صوفيّا تخمّن مصدرَه. قد يكون موروثاً من أحد جدود خيرونيمو. شعرها كستنائي مجعّد، وبشرتها بيضاء، بيضاء جداً، كما تقول. ترى، كحال كلّ أمّ، أنّ ابنتها هي الأجمل في العالم. تحدّق طويلاً في وجهها، ولا تسعد بقدر ما تسعد بحملها بين ذراعيها، على الرغم من أنّ وزنها بات ثقيلاً، وصار صعباً عليها أن تحملها وقتاً طويلاً. وتصرّ فلابيا على أن تحملها أمّها، وتنخرط في البكاء إذا ما امتنعت هذه عن حملها. إنّها عنيدة، حتّى في ارتداء الملابس. وقد لا تستطيع صوفيّا أن ترفع ذراعيها لتلبسها القميص، فتتركها شبه عارية. تنام حين تريد، وتأكل حين تريد، فلا تفعل صوفيّا شيئاً، لأنّ ما يهمّها هو أن تكونَ الفتاة سعيدة، وألّا تفرض عليها حدوداً صارمة تجعلها تعيش، وهي بعدُ طفلة، أسيرة لقيود غريبة تفرضها الحياة.

وهكذا أصبح إسعادُ فلابيا هوسَها الأكبر، وصارت ترى أنّ كلّ ما تفعله من أجل إرضائها قليل. ستجد الوقت الكافي لتعليمها، فكّرت، وستجد الوقتَ الكافي لكلّ شيء.

- لا يعجبني تعلّقُ صوفيّا الشديد بابنتها - قالت شينتال لدونيا كارمن، وكانت الاثنتان تطحنان أعشاباً، في كوخ (مومباچو)، لمكافحة وباء، يصيب البدن بالوهن، شاع بين سكّان البلدة.

- لا أعرف -قالت دونيا كارمن-. لا أذكر كيف عاملتُ أولادي، لكنّي

أظنّ أنّ هذا هو ما يحدث مع الطفل الأول، ولذلك ترين المسكين يعاني كثيراً في ما بعد.

– لكنّها تجاوزت كلّ حدّ –قالت شينتال–. ما تفعله لا يبدو لي جيداً. ليست المشكلة في أنّها تبالغ في العناية بالبنت؛ المشكلة أنّها نسيت كلّ ما عداها. العالمُ عندها توقّف مع ولادة فلابيا. صوفيّا شابة، لكنّها ما عادت مهتمّة لا برجال ولا بأموال. إنها لا تكلمني إلّا عمّا فعلت البنتُ أو ما لم تفعل. ليس ما يقلقني انصرافها إليها، ما يقلقني هو أنّها تربّيها على أن تعتمد عليها كلياً.

تصمت المرأتان. إنه شهر تشرين الأوّل. تهبّ نسمة لطيفة تبرّد النباتات وتُصدر صوتاً مائيّاً أجوف، لدى سقوطها فوق أوراق الأشجار.

– الأسوأ هو أنّ القدرَ يعدّ لها مفاجأة قاسية –قالت دونيا كارمن أخيراً–. يقشعرّ بدني كلّما فكرتُ في ما رأيتُ في أوراقها قبل سنوات.

– لقد فشلت طقوسنا مع صوفيّا – قالت شينتال، وأغمضتْ عينيها. عاد الصمت. وعادت بالذاكرة إلى ليلة استدعوا عمودَ الضوء وأعادوا إلى صوفيّا ذاكرة أمّها. فكّرت في الرؤية المشوّشة التي رأتها، لحظة استطاعوا أن يطلّوا، من نافورة الضوء، على الزمن المطلق. في لحظة مّا، كان الجاغوار والحيّة والطائر مستعدة للعثور على مركز الفتاة. وفي أحد الطقوس، أوقدت فيه نيرانٌ أوشكت أن تلتهمها، أعادوا لها صورة المرآة التي ظلّت مكسورة، لكي تتمكّن من الجمع بين هجران الأحبّة وهواجس القلب. لكنّ القدرَ كان متقلّباً ومتقطعاً، كما هو بريق النجوم. لقد حسبتْ أنّ ولادة البنت هي البرق الذي سيفكّ القيودَ عن قلب صوفيّا، البرق الذي لمحوه، تلك الليلة، في الزمن الخطي لثقب الريح، لكنّ ذلك القلب لم يكن يعطي إشاراتٍ على حركة نحو الخارج. حتى البنت تشكّلت لتدور في فلك أمّها، وصيغت لتكون محكومة بالحاجة الشديدة إلى أن تضع بنفسها حدود وحدتها.

– إنّها تعويذة الفراق –قالت شينتال بصوت عال–، كلّما حاولت كسرها، تورطت فيها أكثر. وهكذا تجدينها تنسج شبكات عنكبوت، بينما هي تحتاج، في الواقع، إلى جناحي عصفور.

– ربّما فشلنا في كلّ شيء معها –قالت دونيا كارمن–. حتى النبوءات لم تكن صحيحة.

– سنرى –قالت شينتال–. ليت الأمر يكون كذلك وتستقر المياه، لكن بركة الانعكاسات في تغيّر مستمرّ، وكأنّ القدر لم يقرّرْ بعدُ كيف يُنهي القصة.

وواصلتا الحديث، منغمستين في أعمالهما، وسط مجالات من الخلوة، راحت فيها كلّ واحدة منهما تخمّن إجاباتٍ حول مصير صوفيّا المتقلّب، أو تحاول، منطلقة من خبرتها، أن تتذكّر حالات مرّت بهما قد تلقي الضوء على العلامات الغامضة التي تحيط بسيّدة (الإنكانتو). في حدود الخامسة عصراً، رأتا صاموئيل يصعد راجلاً على الطريق، متعكّزاً على عصاه. كان الساحر يرتدي سروالاً كاكياً وقميصاً أبيض ناصع البياض، على الرغم من الجهد الذي يعنيه قطعُ المسافة من كوخه.

– مساء الخير –حيّاهما. نهضتا لتحضير القهوة وتنشيط حديث المساء، وأيّ حديث غير الحديث عن صوفيّا وابنتها– لا أدري ما الذي يخبئه القدر للأم –قال صاموئيل–، ولكن علينا أن نعمل شيئاً لحماية البنت. ربّما عثرنا على الحلّ في الفتاة، لا في الأم. بعد أيّام، ينتهي الشتاء، ويجب أن نبلّغ صوفيّا بأنّ عليها أن تقدّم الشكرَ على ما أصاب الفتاة من النِعم، وأن تعدّها لأوّل صيفٍ، ولجميع فصول الصيف في حياتها، لتتعلّم كيف تحافظ على قلبها نديّاً طريّاً في أوقات القحط والعوز.

– أنتَ على حقّ –قالت شينتال، وقد شعرت بالحماس–. سننظّم لها احتفاليّة الـ (روتيّو) واحتفاليّة الـ (روتو – چيكوي) للحفاظ على قوة شعرها وأظافرها السحريّة، قبل الفطام[1].

– كيفَ فاتنا هذا! –صاحت دونيا كارمن–. لقد أذهلتنا كثرة العلامات الغامضة ولم نفكّر في أنّ الفتاة يمكن أن تكون مفتاح كلّ هذا! أمّا صاموئيل فلم يفته ذلك.

1– من الطقوس الوثنيّة لحضارة الإنكا. الـ روتو–چيكوي Rutu–Chicoy يقام للطفل عند الفطام حيث يقصّ عرّابه خصلة من شعره وكذلك يفعل كلّ واحد من المدعوين إلى الحفلة.

ابتسم صاموئيل وذكّرهما بأنّ الأنفاس الأنثوية والذكرية تتعايش في السحرة دون صراع.

- أنا أيضاً عندي غريزة الأمومة - قال الساحر، وهو ينتهي من تدخين سيجارة التبغ الأسود الحار، بينما راحت الشمس تغرق في غطاء (مومباچو) النباتي الكثيف.

-38-

تتمشّى صوفيّا في الممرّ متوترة، وتتوقّف، من حين لآخر، لتنظر إلى فلابيا، التي نامت في حظيرة ألعابها عارية، وقد حشرت إبهامها في فمها. منذ نصف ساعة، وصلت دونيا كارمن وشينتال، ومعهما صاموئيل. جاءوا ليكلّموها عن احتفاليّة الـ(روثيّو) والـ(روتو-چيكوي)، التي تقام لجميع الأطفال الذين يصعب التنبؤ بمستقبلهم، حماية لهم من النُذُر المشؤومة.

لكنها، قالت لهم، حلّلوا شخصية فلابيا حين ولدت، فردّت عليها شينتال بأنّ ما فعلوه، يومَ ولادتها، هو أنّهم بيّنوا لها علامة ولادتها فحسب، وهذا لا يكفي.

قلقت صوفيّا وذُعرت لما سمعته عن صعوبة التنبؤ بمستقبل فلابيا. فهي لا تستوعب أن يصيب ابنتها مكروه. ارتعشت ساقاها، وشعرت بالغثيان. حتّى موضوع «الاحتفالية» لا يبعث على الاطمئنان، لا سيّما أنّ هذه الاحتفاليّة يجب أن تتمّ في غيابها.

- سنأخذ فلابيا منك ساعتين أو ثلاث ساعات -قالت شينتال-. ستكون معنا بأمان. ولا أظنّ أنّك تشكّين في ذلك.

طوال ثمانية أشهر، وهو عمر الصغيرة، لم تترك صوفيّا ابنتها وحدها لحظة واحدة. تحملها أنّى ذهبت، حتّى إذا دخلت الحمّام، استودعتها پترونا. صحيح أنّها لا تتصوّر أن تُلحق شينتال ودونيا كارمن وصاموئيل بالطفلة ضرراً، ولكن، ليس سواء أن تنظّم هي الاحتفاليّة وتُجري الطقوسَ بنفسها، وأن ينظمها آخرون. ما أكثر القصص التي يحكيها الناسُ! حكايات لا تصدّق. ولكن، ماذا لو كان ما يحكيه الناسُ صحيحاً؟ تسمع أنّ الأطفالَ

الصغار هم الصيد المفضل للاحتفالات الشيطانية. فماذا لو خانها أصدقاؤها؟ وما هي الضمانة؟ إنّها لتخجل من التفكير بهذه الطريقة، تقول لنفسها وهي تذرع الممرّ جيئة وذهاباً. تحاول عبثاً طردَ هذه الأفكار من رأسها. وكيف تسيء الظنّ في أشخاصٍ حموها طوالَ حياتها، على الرغم من أنّها تصرّفت وفق ما أملته عليها إرادتها. لكنّ الموضوع، هذه المرّة، مختلف: فهم يريدون أن يأخذوا طفلة تبلغ من العمر ثمانية أشهر إلى تلّة (موموباچو) لدهن جسمها الله أعلم بأيّة أعشاب أو أيّ ماء. وماذا لو غطسوها في بركة المياه الدافئة الشهيرة فأصابها الخرس، كما حدث للصبي الذي كان يأتي بالماء إلى شينتال كلّ يوم؟ وماذا لو لم تجرِ طقوسهم حسب المخطط ووقع مكروهٌ لابنتها؟

لم تستطع محوَ صورة صاموئيل وهو يكرّر عليها أنّ تلك الطقوس «ضروريّة». فماذا لو كان على حقّ، وتسببت، بخوفها، في حرمان ابنتها من تلك الحماية «الضروريّة»؟ ستندم إن هي أجازت لأصدقائها طقوسهم وفشلوا، وستندم إن هي منعتهم من حماية ابنتها فأصابها مكروه.

– ما بكِ، سيّدتي؟ –سألتها پترونا، وهي تجتاز الممرّ حاملة كومة من الحفاضات المغسولة–. أراكِ قلقة.

– اتركي الحفّاضات واجلسي. أريدُ أن أستشيركِ.

حكت لها عمّا جاء بدونيا كارمن وشينتال وصاموئيل.

– ماذا كنتِ ستفعلين لو كنتِ مكاني، پترونا؟

ظلت پترونا صامتة، تنظر إلى سيدتها. لا شكّ أنّها ستشعر بالخوف أيضاً، فكّرت. لكنّ هؤلاء الناس يحبّون صوفيّا، وحين عادتها البلدة كلّها، وقف هؤلاء إلى جانبها. وهي شاهدة على مقدار محبّتهم لها. حين تكلّمت پترونا، بدا الاستياء عليها والتأثّر:

– المشكلة أنّ حضرتكِ لا تثقين بأحد، دونيا صوفيا. بل أنتِ لا تسمحين، حتّى لي، بلمس الفتاة، على الرغم من أنّني لأفضّلُ الموتَ على أن يصيبها مكروه. أرى أن تكفّي عن الارتياب بالناس، فليس هذا جميلاً. وإن هم طلبوا منك ذلك، فلأنّ لهم أسبابهم.

– وماذا لو أخطأوا، ولم تسر الأمور كما خططوا؟ هم بشر، وليسوا ملائكة...

ولماذا سيخطئون، حاججتها پترونا. ولماذا تصرّ على أنّ لا أحدَ يستطيع أن ينجز الأشياء خيراً منها. ولذلك، ولتغفر لها سيدتها جرأتها، قالت، فهي متشبثة بالفتاة. صحيح أن الأمهات يخشين، بطبعهنّ، على أولادهنّ، لكنّها تبالغ كثيراً.

ظلّت صوفيا صامتة مطرقة، فأدركت پترونا أنّ المحادثة انتهت، فنهضت وحملت الحفاضات وواصلت طريقها. وعادت صوفيّا إلى وحدتها، تتأرجح بعصبيّة على كرسيّها الهزّاز.

أمضت يومين مستاءة ومضطربة، لا أحدَ، غير پترونا، يعرف سببَ ضيقها. لقد باتت مقتنعة بأنّها لن تلبّي طلبَ أصحابها، على الرغم من أنّهم لم يشكوا لحظة واحدة في أنّها ستوافق، بل لقد أبلغوها أنّهم سيعودون فجرَ اليوم التالي لاصطحاب فلابيا، التي يجب أن تكون معهم في مكان القوّة قبل أن تعلو الشمسُ في الأفق. «لا أستطيع –تكرّر الأم مع نفسها–. آسفة، لا أستطيع».

– هل لي أن أعرف ما بكِ؟ –سألها فاوستو، عشية اليوم الموعود، بعد أن حملت فلابيا إلى سريرها وخرجت إلى الممرّ لتدخّن–. منذ يومين وأنتِ كالمَدْخنة. التدخين يضرّ بصحّة الأم المرضعة. ماذا جرى لكِ؟

كانت صوفيا عزمت ألا تخبر فاوستو بشيء، لكنّها لا تجد غيره، بعد سماع رأي پترونا، ملاذاً ومستشاراً. فلا بدّ لها من اتخاذ قرار سريعٍ وحاسم.

– طلبت شينتال ودونيا كارمن منّي أن أسمح لهما بأخذ فلابيا لتقيما لها طقوس «حماية». لا أريد أن أظهر لهما خشيتي وارتيابي، لكنّ الحقيقة هي أنّي لا أحبّذ الفكرة. أنا خائفة.

– وماذا تريدان؟

– ستأتيان في الرابعة فجراً، لتأخذا البنت ساعتين أو ثلاث ساعات، ثمّ تعيداها إليّ. فلابيا يجب أن تذهب معهما من دوني.

ظنّ فاوستو الأمرَ أكثرَ خطورة، قال. قد لا تؤمن هي بهذه الطقوس،

ولكن، ما الداعي إلى كلّ هذا التوتر؟ وكيف لها ألّا تثق بدونيا كارمن وشينتال، وهما منها في مقام الوالدة، وأقرب إلى الجنيّات العرّابات، اللاتي يظهرن في الحكايات، منهما إلى الساحرات؛ ما هما إلّا ساحرتان من الساحرات «البيضاوات» غير المؤذيات، وهي تعرف ذلك. فإن كان لا بدّ من الاعتراض على شيء، فلها أن تعترض على الخروج بالطفلة فجراً، فقد تصاب بنزلة برد، لكنّ في مقدورها أن تدثرها جيداً، وتنتهي المشكلة. ولكن ليس لها أن ترتاب في المرأتين، قال، وعاد إلى الجلوس على الكرسيّ الهزاز.

– أنا نفسي استغربتُ أنّهما لم تقترحا عليك تلك الطقوس بعد ولادة فلابيا مباشرة.

– لكنّي لا أعرف إلى أين سيأخذانها، والطفلة متعلّقة بي – ردّت صوفيّا مستسلمة.

– من مصلحتها أن تبتعد عنك، ولو لساعات قليلة – قال فاوستو.

في تلك الليلة، أرقت صوفيّا. في الثالثة والنصف صباحاً، وصلت دونيا كارمن وصاموئيل، وكانت قد قرّرت أن تسمح لهما بأن يأخذا فلابيا. بل لقد اقتنعت بأنّ من الجحود أن تظنّ بهؤلاء الظنون. ستكون الطفلة بخير، وستعود إليها سالمة. نهضت من السرير وتدثّرت بالشال. الليل مظلم، لكنّها تركت أنوار الممرّ مضاءة. كانت فلابيا تنام في سريرها، متدثرة بثيابها. حملتها صوفيّا بين ذراعيها ودثّرتها بلحافين وضمّتها إلى صدرها. وضعت لها، في الكيس، زجاجة رضاعة فيها ماءٌ، وأخرى فيها حليبٌ، وعدداً من الحفاضات، ومصّاصة.

حين خرجت من الغرفة، كانت دونيا كارمن وصاموئيل بانتظارها.

– هذي مفاتيح السيارة، وفي هذا الكيس حليبٌ وماءٌ، فربّما بكت من الجوع –قالت لهما–. أرجوكما، لا تتأخرا كثيراً، وإلّا جننتُ.

طمّنتها دونيا كارمن. فلابيا ستكون بخيرٍ معهما، فهما منها في منزلة الجدّ والجدّة. ظلّت الطفلة، وهي تُنقل من حضن أمّها إلى ذراعي دونيا كارمن، نائمة، غافلة عمّا يعتمل في صدر أمّها من مخاوف ويدور في رأسها من أفكار.

– احذرا ألّا تبرد – قالت صوفيّا أخيراً.

انطلقت سيارة *الجيب* مخلّفة وراءَها سحابة من الغبار. دخلتْ صوفيا إلى المنزل، أطفأت الأنوار، واستلقت على السرير. الساعة هي الرابعة صباحاً. كان جسمها يرتجف، بعد أن مسّته تيارات جليديّة صادرة من خوف يخترق عمودها الفقري. بدا السرير لها، من دون فلابيا، واسعاً، وبدا صمتُ الليل، من دون أنفاس الصغيرة، نَفَسَا صادراً من أعمق خراب. إنّها تشعر بأنّها ناقصة. مبتورة. مقطوعة. وحيدة. لم تمرّ بعدُ خمسُ دقائق، وها هي تشعر بالندم، وتلعن نفسها إذ عرّضت ابنتها لسحر مجهول، ولكن ماذا ينفع الندم؟ لم يبقَ لها إلّا أن تحزن وتبكي بكاء أمّ ثكلى، ثمّ تشفق على نفسها، فتستفيق وتمنّي نفسها بأنّها لن تفقد ابنتها أبداً.

انتظرت شينتال صاموئيلَ ودونيا كارمن في مكان القوّة، المساحة المشجرة القريبة من كوخها، حيث أقاموا، قبل وقتٍ طويل، طقوس إرجاع ذكريات الأم إلى صوفيا.

لم يبقَ إلّا وقت قليل وتبزغ الشمس. فها هو ضياؤها يكحّل بالصفرة حافة الليل السوداء.

تتقدم دونيا كارمن ببطء حاملة الطفلة على صدرها الدافئ العريض، لتحميَها من فروع الأشجار العملاقة التي تغطّي فسحة الأرض. وسار صاموئيل معها يحملُ مصباحاً ليضيء به الطريق، ولحافاً ليفرشوه تحت الطفلة. حين خرجا إلى فسحة الأرض، وجدا شينتال، التي كانت قد وضعت في وسط الفسحة آنية فخاريّة، فيها ماء، وإلى جانبها، وضعت لوازم الـ (روتو - چيكوي) [8]: مقصاً وسكيناً.

ضجّ فجرُ (موماچو) بالأصوات، وراح صُراخ طيور الليل الكئيب يفسح لصُداح الزرازير والصفاريّات والشقراقات الحاد الجميل. وتلاشت الظلالُ في أشعة الشمس الورديّة. ارتدت المرأتان والرجلُ ثياباً بيضاً، وارتسمت على وجه كلّ منهم وداعة الحكيم الذي يواجه براءة الطفولة وضعفها.

وضعت دونيا كارمن الطفلة على لحافٍ فُرش على الأرض، وطوي أربع طيّات، رمزاً لطقوس الماء الأربعة التي يوشكون على البدء بها. بدا أنّ الطفلة تستيقظ، بعد أن فقدت دفء صدر دونيا كارمن، لكنّ شينتال

سارعت وقلبتها على بطنها وراحت تربت على ظهرها، وهكذا يهدئها اتصالها بالأرض ويعيد إليها نبضَ بطن أمّها. حين بزغت خيوط الشمس الأولى، شرعوا بطقس (الروثيّو). بلّلت شينتال يدها بماء الجرّة الدافئ - الذي أحضروه من بركة الانعكاسات العميقة- ولمست ظهر فلابيا وهي تقول: «تعالي، تعالي، لأنّك ستعيشين على الأرض؛ اشعري بها لكي تكبري وتخضرّي؛ تقبّليها». ثم قلبت الفتاة ووضعت يدَها المبللة على صدرها، وهي تقول «فلينظّف قلبُك وليتطهّرْ. وليلزم اتجاه الماء دائماً ويعثر على طريق عطشه». تستيقظ فلابيا خائفة تبكي. ترشّ شينتال الماءَ على رأسِها، وهي تقول: «خذي ماء السيدة مالكة الحياة وتناوليه. خذي هذا الماء السماوي الأزرق الصافي ليدخل جسمك ويعيش فيه». خلعت ملابس الطفلة، بمساعدة دونيا كارمن، وغسلت جسمها، وهي تردّد أدعية وصلواتٍ لحماية كلّ عضو من أعضائها وكفّ الشرّ والمكروه عنها وحفظها من المكائد والدسائس، من أيّ مصدر أتت.

ألبستاها ثيابها ثمّ حملتها شينتال بين ذراعيها ورفعتها نحو الشمس أربعَ مرات، بينما رفعت الطفلة عقيرتها بالبكاء.

- فلابيا، ليظلّ قلبكِ بعيداً عن مستنقعات الحيرة والارتباك

• فلابيا، لتسِرْ جبهتُك وراء أضواء الأشجار والنجوم.

• فلابيا، لتفتح الشمسُ عينيك وتريكِ ألوان الجمال الخفيّ.

• فلابيا، ليبقكِ القدرُ على خطه، وليمكّنْكِ من كسر دوائر الزمن والفراق التي تلاحق أمّكِ.

خفضت شينتال ذراعيها وضمّت الفتاة إلى صدرها. أغمضتْ عينيها وبدأتْ تسمع، وهي في غيبوبة عميقة، صخبَ مهرجان ممزوجاً ببكاء، وترى رجلاً لا تعرف لماذا يبدو لها مألوفاً، يبتسمُ في السائل المنكسر لصور ذهنها. تفتح عينيها وتنظر إلى دونيا كارمن وصاموئيل، اللذين راحا يستجوبانها بأعينهم.

- لا أراه بوضوح.

وجاء دور صاموئيل، الذي أدى طقس الـ (روتو - چيكوي). قصّ،

بالسكين الحادة، خصلة من شعر الفتاة، ثم قلّم أظافرها بالمقص، ووضعها، مع الأدوات، في قطعة من القماش أبيض، لكي يسلّموها إلى صوفيا، لتحتفظ بها تميمة، بعد أن اكتسبت، منذ تلك اللحظة، قوى سحرية.

حين انتهت الطقوس، حملت دونيا كارمن فلابيا، وكانت تبكي. أخرجت الحليب الذي كانت صوفيّا جهّزته للطفلة. وسرعان ما سكتت الطفلة وسكنت بعد أن راحت تعبّ ما في الزجاجة عبّاً.

- انظروا إلى عينيها -قالت-. نظر الثلاثة إلى عيني الفتاة الصغيرة ودُهشوا، وكما دُهشت أمّها حين رأتها لأوّل مرّة، إذ بدت نظرتها، وهي ترضع بشراهة، نظرة مستغرقة مدركة، أو نظرة من لم يكتشف بعدُ معنى الخوف.

جاهدت صوفيا كي تمسك نفسها عن البكاء حين وصلت دونيا كارمن ومعها الطفلة، لكنّها لم تستطع المداراة على شعور اللهفة والقلق.

- من حسن حظكِ أنّ ابنتكِ كائن خاص. كائن سحريّ -قالت دونيا كارمن-، وإلّا لقضى الخوف الذي في داخلكِ عليها وعليك.

على العكس من مخاض صوفيا، فقد كان مخاض خيرترودِس عسيراً، حتّى تعيّن نقلها إلى مستشفى (ماسايا)، لتلد ولادة قيصرية. كان الطفل قويّاً وصحيحاً. ولم تسع الدنيا رينيه من الفرح.

- لو رأيتم كم هو كبير! - قال، بعد أيام قليلة، حين احتفل بالحدث في حانة پاتروثينيو. يزن ثمانية أرطال! ولهذا لم تستطع المسكينة أمّه أن تلده ولادة طبيعيّة.

واستمتع الحضور بما حكاه لهم عن تلك الولادة. روى فرناندو أنّ سيّده دخّن أربع علبٍ من السجائر أثناء العملية القيصرية، وأنّه أثار أعصابَ الممرضات، إذ راح يعترض طريقهنّ ليسألهنّ عن مجريات الولادة، وكأنّهنّ شهدن جميعهنّ ولادة الصغير.

واحتفلت پاتروثينيو بالحدث؛ فها هو رينيه، أحد أفضل زبائنها، يثبت أنّه فحلٌ، وأنّ الغجريّة لم تقدر على تدميره. هكذا نال كلّ واحد ما يستحقه: فكان نصيب رينيه امرأة تناسبه، بينما كان نصيب صوفيّا ابنة بلا أب. يقولون

إنّ الطفلة جميلة، لكنّ سوء تربية الأم جعلتها مزاجيّة وهوائيّة، فضلاً عن أنّ والدتها تغلق عليها وعلى نفسها في (الإنكانتو) فلا يكاد أحد يراهما في البلدة.

حوّلت ولادة ابن رينيه وخيرترودِس انتباه الناس، وصار مدارُ حديثهم حفلة التعميد التي كان رينيه وخيرترودِس يعدان العدّة لها، والتي توقعوا أنّها ستمحو من ذاكرتهم الحفلة الكبرى التي نظمتها صوفيا، قبل ثلاث سنوات، واستعراض الألعاب الناريّة الذي لم يشهد ليلُ (ديريّا) له مثيلاً.

- كم أنا فرحانة لفرح خيرترودِس -قالت صوفيا، بعد أن هدأ انصرافها إلى تربية ابنتها من روح التنافس فيها-. أتمنى أن تنجح حفلتها وتستمتع بها.

- ربّما ستدعوكِ، هذه المرة - قالت لها إنغرائيا.

- لن أذهب -ردّت صوفيّا-. أتمنى لها السعادة ونسيان الذكريات المُرّة. لا أريد أن تطأ قدماي ذلك البيت، إلّا إذا هاج بي الشوقُ إلى المشاكل - قالت مازحة.

التعميد حدثٌ مهمّ. من منزلها، تسمع صوفيّا دويّ المفرقعات وأنغام الموسيقى، وهي تواصل اللعب مع ابنتها، فلابيا، همّها الوحيد في الحياة.

-39-

مرّ على صوفيّا أكثرُ من عامين كبرت أثناءها ابنتها. صحيح أنّها أضاعت حساب الأشهر، لكنّها لم تنسَ كيف انقلبت الفتاة في سريرها، لأوّل مرة، ولا كيف آلمتها لثتها مع ظهور أولى أسنانها، ولا كم جاهدت لكي تجلس وترفع يديها الصغيرتين بحثاً عن التوازن الحرج الذي لا تقدر الطفولة المبكرة عليه. وتتعجب صوفيّا من المرحلة التي تحرقها ابنتها، كلّ يوم، من حياتها، وفقَ ترتيب قديم ودقيق لا يقبل الخطأ. لم تنسَ أيضاً كيف استيقظت يوماً لترى الصغيرة واقفة في مهدها، تمسك بدرابزينه، فكأنها تتدرّب على عنادِها الذي تنبأت لها به النجوم. ما أشدّ متعة صوفيّا إذ ترى فلابيا وهي تحاول، بتصميم لا يثنيه إلّا النوم، أن تخطو خطواتها الأولى. وما أسعدها إذ تراها تنتقل من حيث هي إلى حيث پترونا، ثمّ تقف وتتمتم بكلمات وتمشي، باحثة عن استقلالٍ يُقلق الأمّ، التي ظلّت تحنّ إلى أيامٍ كانت تحمل الصغيرة على ظهرها، محشورة في حقيبة خاصّة صنعتها لها، لتستطيع، هكذا، العودة إلى المزرعة، التي ما انفكّت تدعوها وتناديها، بعد أن صار فاوستو يغيب عنها مطوّلاً، إذ وجد، أخيراً، صديقاً حميماً، يعمل مصمّماً للأحذية «الراقية»، لمحلّات ماناغوا الشهيرة.

بات الاستقلالُ لعبة فلابيا المفضلة. كلّما ازدادت قدماها ثباتاً، زاد ميلها إلى الابتعاد عن الكبار والولوج في عالم الباحة الداخليّة، التي وجدت فيها مسرحاً واسعاً من الأوراق الزاهية والورود الحمر والأشجار العجيبة، بينما يستبدّ القلقُ بصوفيّا، التي تريد أن تظلّ الطفلة تحت رقابتها، فقد يؤدي بها فضولها إلى واحدة من تلك الحوادث التي ما انفكّت تراها في كوابيس كلّ ليلة.

– دعيها تكتشف العالم –تقول لها شينتال، وهي تراها تضيق وتقلق لأقلّ خطوة تخطوها الطفلة–. لقد أبقيتِ عليها، طوال أكثر من عامين، في شرنقة، وها قد صارت البنتُ فراشة. وقد حان الوقتُ لكي تطلعيها على العالم، لا أن تبثّي الخوفَ في روحها.

ما من خيارٍ أمام صوفيّا غير أن تُفسح لفضول فلابيا. لقد تعبت من الجري وراء البنت، فوافقت، أخيراً، على أن توكل لپترونا مهمّة الإشراف عليها لبضع ساعات، بعد أن رأت أنّها تخاطر بسلامة عقلها واستقامة ظهرها، إذ ما انفكّت تنط هنا وهناك، في سعيٍ دؤوب للحيلولة دون أن تحشر الصغيرة إصبعها في المقبس الكهربائي، أو أن تلحق الأذى بنفسها إذ تحاول الإمساك بهذا الشيء أو ذاك. وهكذا، صارت صوفيا تنعم بلحظاتٍ من صفاء الذهن، وترى أنّ الحياة لن تلبث أن تضع حداً لهوس الأمومة عندها. حين تترك فلابيا حضنها، منجذبة إلى قطٍ يمرّ أو خرطومِ ماء يتلوّى في يد پترونا كالأفعى، تشعرُ بضيق طفولي وغيرة، وإن لم تتجرأ على الاعتراف بهما.

آن الأوان لأن تلتفتَ إلى نفسِها وتهتمّ بحياتها، التي توقّفت عند نقطة لا شاغل لها فيها غير فلابيا، قالت لنفسها ذات يوم. معها، ستستطيع فلابيا اكتشاف عوالم، شرط أن تخرج هي أولاً من شرنقة أمومتها المقدسة.

– حسناً، فلابيا –قالت لابنتها، كأنّها تكلّم شخصاً بالغاً، كما اعتادت أن تفعل، منذ أن كانت الطفلة رضيعة–. سنُرضي الدمَ الغجريّ فينا، وسنخرج معاً لنستكشف العالم.

وكان البركانُ أوّلَ عالمٍ تزورانه. على ظهر حصانٍ وديع، راحت فلابيا تصرخ فرحة، وهما تقطعانِ نفس الطريق المؤدي إلى كوخ شينتال، وتسيران في نفس المسالك التي قطعتها صوفيّا، ذات ليلة عاصفة بعيدة، هاربة من رينيه. كانت الطفلة تشير إلى الكلاب والحمير، وتومئ بالتحيّة إلى كلّ من يقابلهما في الطريق.

حين بدأتا صعود الـ (موماچو)، ظلّتا صامتتين، مفتونتين بعالم النباتات الواسع والخضرة المبهرة. طافت الطيور الزرق فوق الحصان، تصدحُ بالفرحة وتشيع التفاؤل. اجتازت صوفيّا كوخ شينتال صعوداً، قاصدة، كما

فعل والدها رامون معها، أن تفرّج فلابيا على القرود العواءة، وهي تتحرك في قطعان، فوق فروع الأشجار. وحين اكتشفت القرود أنّ هناك من يتتبع أثرها، راحت تصرخ صراخاً شديداً، فالتصقت فلابيا بأمّها خائفة، وضحكت هذه ضحكة مكتومة، وتذكرت ردة فعلها هي تجاه تلك المخلوقات، التي فيها من الآدميّة ما فيها من العزلة والوحشيّة.

– فلابيا، انظري إلى تلك القردة مع ولدها الصغير – فتنظر الفتاة بعينين مفتوحتين، فترى حالة مألوفة تريحها وتزيل عنها دهشة البداية وخوفها.

من فوق الأشجار، تطلّ القرود وتضجّ بالصراخ. لا تقترب صوفيّا كثيراً منها، كي لا تستفزّ الحيوانات فتنهال عليهما، كما اعتادت أن تفعل، بفضلاتها، فتتبول وتتغوط على الناظرين إليها عقاباً لهم على فضولهم وهتكهم خصوصيتها.

وأدارت صوفيّا وجهة الحصان نزولاً صوب كوخ شينتال. وجّهت نظر فلابيا إلى أزهار الخبيزة وشجيرات الحمّاض وأعشاب (سان خوان) التي تصبغ بالأصفر حافة الطريق، والسيلينات الحمر بسيقانها الطويلة، وأشجار السامانيا والغار، وأشجار السيبو الضخمة. أمّا فلابيا فراحت تتمتم بما تنطقه أمّها من أسماء وكلمات. يتشرب صدر الطفلة بهواء البركان، ويفتر فمها عن ابتسامة عريضة تشبه ابتسامة شينتال إذ رأتهما مقبلتين.

فتحت رحلة (موماچو) الناجحة شهية صوفيّا لجولات أخرى مع ابنتها. فاصطحبتها، يوماً، إلى مطلّ (كاتارينا)، لترى الأرض وهي تطلّ من أعمق أعماق البحيرة على السماء، وأخذتها إلى متنزه (ديريومو)، حيث يلعبُ أطفال طوال نحيفون، مشحونون بالطاقة، الكرة، وهم يرتدون سراويلهم القصيرة؛ وأخذتها إلى حيث تعدّ نساءٌ بدينات توفي الحليب وكراميل السبوتة، ويطلين جوز الهند باللون الوردي لتزيين صواني الحلويات التي تشتهر بها تلك البلدة.

يوم الأحد، ألبست صوفيّا طفلتها سروالاً وقميص راعية بقر ضيقاً، واصطحبتها إلى حديقة ألعاب جوّالة، نُصبت بالقرب من سوق (سان خوان دي أورينتي). بدا ذلك النشاط الترفيهي البسيط، التي يقلّد أجواء الزمن

الجميل، للبنت أجملَ عالم رأته. ركبت فلابيا، بمساعدة أمّها، دولاب شيكاغو الصغير المقلقل، ودخلت في خيمة راحت فيها لاعبة مستجدّة ترمي بالكرات في الهواء ثمّ تتلقفها، وأكلت بشراهة حلوى القطن التي كان يبيعها بائع متجول في عربته الخشبية؛ أمّا ما كان يفتنها وترتعش يداها الصغيرتان توقاً له، فهو دولاب الخيل الدوّار المقلقل. وما أكثر ما اضطرّت صوفيّا أن تركبه معها، وتلفّ به وتدور.

في تلك الليلة، وبينما كانت فلابيا نائمة، تحلم بأجهزةٍ وألعابٍ لم تخترعها قريحة الرجال الميكانيكيّة بعدُ، انجرفت صوفيّا مع تعبها، وراحت تداعب شعرَ فتاتها. تأرجحت في ألم عظامها، الذي عاد لذيذاً ومُرضياً، ما دامت ثمرته حملَ ابنتها، متنقلة بها هنا وهناك، في الأرض المتربة الفقيرة، حيث نُصب «مهرجان» البلدة. قرأت في إحدى الصحف عن أنّ مدينة ألعاب حقيقية -كبيرة، كما قال الإعلان- ستزور المنطقة قريباً، بعد أن جابت أنحاء أمريكا الوسطى، وستقدّم أنشطتها، في غضون أيام، في أكبر ساحات ماناغوا. ابتسمت صوفيا، وهي تتخيل ابنتها أمام أجهزة حقيقيّة وملونة وجيدة، فتركب هذه العربة، وتصعد على ظهر ذلك الفيل الطائر... المهمّ، حتى هي لا تعرف كم من الأشياء الجميلة والممتعة يمكن لفلابيا أن تراها في مدينة ألعاب حقيقية، لأنّ الصورَ الوحيدة التي خطرت ببالها، والتي لم تشهد أيّة واحدة منها، هي تلك التي رأتها، ذات مرّة، في التلفزيون، حين عُرض وثائقيٌّ عن (ديزني لاند).

غداً، قالت لنفسها، ستتحقق من الخبر وسترتب للذهاب، في أوّل يوم أحد بعد الافتتاح، للاستمتاع، مع فلابيا.

-40-

يوم الأحد، بعد الغداء، ودّع فاوستو صوفيّا وفلابيا، عند بوابة المزرعة. خرجتا بكامل أناقتهما، ومعهما دانوبيو، الذي كان يصرّ على أن يكون سائق *الجيب* في عطلات نهاية الأسبوع، قاصدين ماناغوا، حيث كان مقرّراً أن تُفتتح، ذلك اليوم، «أحدث وأكبر مدينة للألعاب في أمريكا الوسطى».

الطقسُ، عصرَ أيام تشرين الثاني، باردٌ وصحو، فموسمُ الأمطار يوشك على الانتهاء، لكنّ الطبيعة ما زالت محتفظة بخُضرة الشتاء المداريّ. جلست فلابيا في حُجر أمّها، فرحة، تنظر في كلّ اتجاه، وتُتمتم بأنصاف كلماتٍ، فكأنّها عصفورٌ يزقزق.

قبل التوجّه إلى المدينة، قصدوا (ديريّا). أرادت صوفيّا أن تُري فلابيا البلدة أيّام الأحد، حين يتجمّع الناسُ في المتنزه، وفي الحديقة، بملابس العطلة. وأرادت أن تُطلعها على البيوت المطلية بالبياض، وحلبة الديوك، التي يحجّ إليها الرجالُ بانتظار نزالات العصر. «انظري، فلابيا! تلك هي لاستينيا پاچيكو، أخبثُ ساحرة على وجه الأرض»، قالت، وهي تشير إلى امرأة عجوز منتصبة القامة، ممتلئة الجسم، يشعّ وجهها شرّاً وخبثاً، تسير وحدها تحت الأروقة. في الساحة المقابلة للكنيسة، نُصبت أكشاكُ العطارة والتعاويذ والتمائم، التي يأتي السياح والمؤمنون، من مسافات بعيدة، لشرائها، فالبلدة شهيرة بتلك التجارة، والسحرة فيها كثيرون.

– لم يبقَ لنا غير السمعة –قال دانبوبيو.– حتّى السحر بات تجارة.

خرجت بهم السيارة، ثانية، إلى الطريق العام، وما هي إلّا ساعة، حتّى وصلوا إلى ماناغوا. اتّجه بهم دانوبيو إلى موقفٍ للسيّارات. هناك، تركت

صوفيّا وابنتها الشوفير، الذي فضّل أن ينام القيلولة في *الجيب* والدردشة مع السائقين، الذين يقتلون الوقت في الكلام عن مخدوميهم وتلميع سياراتهم.

كان *البلاي لاند بارك*، كما تقول اليافطة الملوّنة المعلّقة على مدخل عالم الألعاب الميكانيكية ذاك، في ما يشبه قوساً للنصر، فضاءً واسعاً يذكّر، فعلاً، بذاك الذي رأته صوفيّا على شاشة التلفزيون. تحيط بالمعرض أبراجٌ عالية غريبة، زيّنت ببالونات زرقٍ وخضرٍ وصفرٍ وحمر. من الخارج، تُرى الأجهزة المعقدة الكبيرة، كالأفعوانية، التي يقول البعض أنّها الأعلى من بين ما شاهدوا منها في تلك الأنحاء. حشدٌ من بائعات المقالي والآيس كريم وأنواع الوَجَبات تجمّع في الشارع المؤدي إلى مدخل مدينة الألعاب، الذي جرى فيه سيلٌ من الأصدقاء والأسر والأطفال، مدفوعين بالألوان والموسيقى التي تُصدرها بطونُ المكائن المعدنية ومكبّر الصوت المركزي، الذي يُعلن، بين الحين والحين، عن ألعاب جديدة. تتمتم فلابيا مندهشة، وهي تسير، جنباً إلى جنبٍ، مع أمّها، التي راحت تقترب من الطابور الطويل، حيث ينتظر العشراتُ دفعَ ثمن التذكرة والدخول في عالم الأحلام المسيّج بالأعمدة الملونة. تنظر صوفيّا إلى ابنتها، مستعجلة دهشتها وفرحها، وتدخل في الطابور الذي راح يتحرّك سريعاً، فالقائمون على إدارة المدينة يابانيون مقيمون في كوستاريكا، وهم يعرفون، بفطنتهم الموروثة وحكمتهم المتوارثة، أنّ الأطفال لا يطيقون الانتظار.

لم تلبث الأمُ أن سلّمت التذكرتين لتدخل مع فلابيا إلى حيث الألعاب. احتارت صوفيّا لحظة اختيار اللعبة التي ستجرّب فيها فلابيا الدوار الذي تحدثه بعض تلك الألعاب والضحك الذي تنتزعه. نظرت إلى كلّ ناحية، محاولة فهم ألعابٍ ضخمة صُمّم معظمها ليولّد أحاسيس شديدة الوقع، لا تناسب طفلة صغيرة من سنّ ابنتها. ثمّ سارت بابنتها حتى رأت دوّامة الخيل، فقرّرت، على الفور، أنّها لعبة مناسبة، ولا شكّ أنّها ستروق لفلابيا. شقّتْ طريقها في الزحام، وهي تحمل الصغيرة بين ذراعيها، فاليوم يوم الافتتاح، ثمّ إنّه يومُ أحد. بحرٌ يموج بالناس، الذين راحوا يتنقلون، هائمين بين الأجهزة، يتفحصونها بعيونٍ لم تألف ذلك النوع المعقد والممتع من التسلية. واجتازت الفتاة وأمّها حلباتٍ وساحات تدور فيها سيارات مليئة بالأطفال،

تعمل بالبطاريات، وتتصادم وتتراطم. ثمّ عبرتا عجلة شيكاغو العملاقة، التي تدور فيها كابينات فردية، بينما تكمل العجلة دورتها. ورأتا بين اللاعبين رجلاً ينفث النارَ من فمه. وتشبع سمعهما بموسيقى تنبعث من أورغنٍ صغير ليرقص على أنغامها قردٌ يرتدي ثوباً أحمر وقبعة. كان الجوّ حاراً، وكانت صوفيّا تشعر بالأجسام تموج، تذهب وتؤوب، فتصدمها في ذهابها وإيابها. أمّا فلابيا، فما كانت تبدو منزعجة من الزحام، بل لقد ألحّت على أمّها كي تنزلها إلى الأرض. وهكذا تحوّلت صوفيّا، وهي تمسك بيد ابنتها، من قائدة إلى مقودة، تسير وراء الفتاة، من مكان إلى آخر، عاجزة عن إرضاء فضولها الطفولي الذي ضاعفه دفقُ المغريات التي ما انفكت تتوالى. وبدا الوصول إلى دوامة الخيل، لصوفيّا، مأثرة كبيرة. لم تتشبّث فلابيا باللعبة، كما فعلت في مهرجان البلدة البائس، حين أصرت على الطواف بالعربة مراراً وتكراراً، بل اكتفت بثلاث جولات، عادت بعدها تجرجر أمّها، وتطلب منها، بلغتها المعقدة، أن تذهب بها لتعاين صدفاتٍ حمراً تدور مسرعة، وتحمل أطفالاً تعلو ضحكاتهم وصراخهم كلّما دغدغهم ارتفاع تلك الصدفات وهبوطها.

حاولت صوفيّا ما استطاعت أن تخفف من حماس الفتاة واندفاعها. وقفتْ معها مطوّلاً أمام القرد الذي راح يتشقلب على أنغام الأرغن؛ ثم أقنعتها بالذهاب لمشاهدة نافخ النار، بينما راحتا تأكلان من عصا حلوى القطن المنفوشة الطويلة. ثمّ انصهرتا، وهما تتنقلان من هنا إلى هناك، مع حشدٍ من رجال ونساء يرتدون الفانيلات أو *البلو جينز* أو ثياب الأحد، ويسعون وراء أطفالٍ هائجين مائجين. يتدافع الناس، في كلّ الأماكن، وفي جميع الاتجاهات. لا تذكر صوفيّا أنّها شهدت هذا الحشد منذ التجمعات السياسية التي كانت تقام في ذروة أيّام الثورة. ناس من جميع الطبقات والفئات يأتلفون في تلك المعمعة حيث يتساوى ماسحو الأحذية الصغار مع أولاد الأغنياء، وحيث يُشاهد رجالٌ عليهم سيماءُ الإدارة وقمصان الرياضة، جنباً إلى جنب مع رجال آخرين قد يكونون سائقي شاحنات أو سائقي تكسيات، توحّد بينهم صورة ربّ العائلة الذي يمسك بيد زوجته ويوبخ أطفاله الذين يلحّون عليه طالبين الآيس كريم أو التصويب مجدداً على الهدف، ليظفروا بدُبّ أو بكُرة. ترفع صوفيّا عينيها وتسمع صرخات

ركّاب الأفعوانية، حيث يستغل المراهقون، من بنين وبنات، الهبوط السريع لينصهروا في عناق بعضهم لبعض. تبدو مدينة الألعاب لصوفيّا حفلة كبيرة يحضرها مدعوون مجهولون، فتستمتع بما ترى، وتسعد أنّها وضعت نهاية لتقاعدها الأمومي الطويل. مؤسف أن شاخ صاموئيل كثيراً. لكان تزوّج، هو الآخر، ووضع نهاية لعزوبيته الطويلة.

واستسلمت صوفيّا لحماس الطفلة وسعيها للصعود في الصحون الدوّارة. انتظرت دورهما، وجلستا في المقعد الوثير، ثمّ تحققت صوفيّا من حاجز الأمان.

وعلى إيقاع موسيقى صاخبة، بدأت الصحون حركتها الانسيابيّة، وسرعان ما بدأت الأم وابنتها الضحك، يدغدغهما ترنح الصحون وشقلباتها.

حاولت صوفيّا الاستمتاع وطردَ ما يساورها من قلق. «صرت خوّافة!»، تقول لنفسها، وهي تتأمل، من داخل الصحن الأحمر، وجوهَ المتفرجين، الذين كانوا يضحكون على ضحك الركّاب وتعبير الخوف على وجوههم. طوّقت بإحدى ذراعيها فلابيا، التي عكست، بضحكاتها العالية، لا مبالاتها. وسرعان ما سرت عدوى الضحك إلى الأم.

حين تعلو تلك الأجهزة في السماء تمكّن الراكب من إلقاء نظرة شاملة على مدينة الألعاب. في الأقل، هناك عشرة من تلك الأجهزة الكبيرة، بينها الأفعوانية وعجلة شيكاغو؛ وبينها برجٌ معدنيٌ تنزل عليه العربات، مسرعة، في حركة حلزونيّة؛ وبينها «المطرقة»، التي تدور حول محور، ودائرة ضخمة تلفّ فلتصق راكبيها بالجدران، امتثالاً لمبدأ الطرد المركزي. في الممرّات، بين الآلات، تشاهد الخيم التي علّقت عليها إعلانات تدعو إلى ألعابٍ أقلّ تعقيداً: مهرجون وبهلوانات يسيرون على الحبل وسحرة يعتمرون العمامة. تُصاب صوفيّا بالدوار وهي تستعرض كلّ هذه الفرشة من الناس والألوان والأشكال، أمّا فلابيا فلا تكفّ عن التلويح بذراعيها والتمتمة، مشيرة بإصبعها إلى كلّ شيء.

وفجأة، بدأت الصحونُ بالتباطؤ، إشارة إلى أنّ الجولة شارفت على الانتهاء. صارت وجوه الناس تبدو أقربَ، وبات تمييزُها أسهلَ وأيسر.

صُعقت صوفيّا إذ بدا لها أنّها لمحت خيرونيمو، يقف قريباً من كشك لبيع الهمبرغر والمشروبات. زاد الأدرينالين في ضربات قلبها. وتذكرت فجأة كلماتها الأخيرة حين وعدتْه بأن تريَه، ذات يوم، ابنته، وتواجهَه بثمرة حبّ لم يُحسن تقديره، حين خلط بينه وبين حُمّى الجنس. وتزاحمت في رأسها ذكرى تجربتها مع ذلك الرجل، فاستبدّت بها العجلة والعصبية. وانتظرت، بفارغ الصبر، أن يعود الجهاز إلى النقطة التي تظنّ أنّها رأت منها خيرونيمو لتتأكّد من أنه هو بالفعل. ونظرت إليه، مرة أخرى، وبسرعة، وفكّرت، في لحظة، أن تلاحقه هناك، لكي يعاين جمال فلابيا وكمالها. وأيّ مكان أفضل من ذلك -مكان غير واقعي ورائع- لمفاجأته بواقع الحياة الذي استطاعت هي، لا هو، خلقه، رغم نذالته؟ راحت الصحون تتمايل في تشنجاتها الأخيرة. صرخت فلابيا من الفرحة والإثارة، لكنّ متعة الطفلة ما عادت الشغل الشاغل لصوفيّا، بل ما عادت الطفلة نفسُها وسيلتها لبيان سخط المرأة الكريمة المعطاء التي هجرها واستهان بها. راح فكرها يحضّر كلماتِها ويقيسها ويزنها، بينما تركّز اهتمامها على ألّا تفقد أثر خيرونيمو، وعلى أن تتوقف تلك اللعبة الملعونة، حتى تتمكّن من النزول والوصول إليه.، كان في الظاهر وحده، وقد انتهى للتو بهدوء من شرب المرطب دون أن يشك في مد الغيظ وجزره الذي ينتظره.

وتوقفت اللعبة. وصمتت الموسيقى. ورفع الركّاب أذرع الأمان وراحوا يسوّون ملابسهم ويستعدون للنزول. حاولت صوفيّا حمل فلابيا بين ذراعيها، لكنّ البنتَ هزّت رأسَها. إنّها تريد الدوران في الصحن ثانية، فقد استمتعت باللعبة كثيراً. رفضت ذراعي أمّها، وصرخت بعد ما رأت من تشدّد أمّها. بدأت صوفيّا تفقد صبرها، ولجأت إلى شتّى الحيل، حتى تمكنت من إقناع البنت بالنزول من الصحن الدوّار، لكنّ هذه رفضت أن تحملها أمّها بين ذراعيها، وأصرّت على السير حتى منفذ الخروج.

سحبت صوفيّا فتاتها المتثاقلة، بعد أن رأت خيرونيمو يدفع الحساب ويوشك على الابتعاد عن الكشك. كان في مقدورها أن تبلغ مكانه، لولا عناد الطفلة، ولولا برودُ الأشخاص الذين راحوا ينزلون ببطء وانتظام. بل اضطرت إلى دفعهم، لتسبقهم في الخروج، ساحبة الفتاة الصغيرة، التي

ما كانت تفهم سبب اندفاع أمّها المفاجئ، والتي رفضت، بالعناد النجمي الذي تنبأت لها به الساحرات، أن تحملها أمّها، وأصرّت على السير وحدها، بل كانت تركل أمّها كلّما حاولت هذه حملها. فكان على صوفيّا أن تكتفي بسحبها من ذراعها، وجرّها وراءها، تشقّ طريقها بين الجمهور، كي لا تفقد أثر خيرونيمو، الذي سار مبتعداً.

عامان مرّا وخيرونيمو لا يخطر ببال صوفيّا إلا حين تذكّرها به حركة من حركات فلابيا أو ملمح من ملامحها، أو حين يظهر لها في أحلام معقدة، تنتهي بهجمة من مشاعر تضيّق عليها.

بات العثورُ عليه وتعريفه على ابنته مهمة عليها إنجازها عاجلاً لا آجلاً، ورغم كلّ الصعاب. اندفعت صوفيّا تشقّ طريقها، تصطدم بأشخاصٍ، وتفرّق أزواجاً، بين تذمّر الجميع، تجرّ وراءها فلابيا المتمردة، التي راحت تقاوم اندفاع أمّها، محتجّة على تصميمها الوحشي في سحبها.

في لحظةٍ، لمحت الفتاة، من بين مجموعة من بائعي البالونات، مهرّجاً يحمل أرنباً أبيض سميناً، يعزف على الفلوت، داعياً الأطفال إلى مشاهدة عرضه. أرادت أن تلحقه. شدّت يد أمها كي تأخذها إليه، وشدّت الأم يدها كي تواصلا سيرهما. لا يمكنها مشاهدة المهرّج الذي أسر قلبها وسلب لبّها. لكنّ افتتان البنت تغلّب على خوفها من ترك اليد البالغة التي تمسك بها. وفي ظرف ثوانٍ، ضاق خناقُ الجمهور على المرأة وابنتها، وضاق طوقه، فأفلتت فلابيا يدها، بعد أن ارتخت يد أمّها، وانطلقت، بكلّ عزيمة الساقين الصغيرتين القويتين والسمينتين وعنادهما، تبحث عن المهرج وأرنبه، مستدلة بالأصوات الحادة التي تنطلق من صافرته الطويلة.

إن لم تغفل صوفيّا، في العامين اللذين مرّا من عمر فلابيا، عن البنت سوى لحظات قليلة وقصيرة، فقد غفلت عنها تماماً وهي تسعى سعياً إلى الرجل، الذي ما عادت ترى إلّا جزءاً من رأسه، في زحمة الناس الساعين إلى الاستمتاع بإجازة نهاية الأسبوع. راحت تقترب منه شيئاً فشيئاً، وشعرت أنّها توشك أن تلحق به، وأنّها قادرة على التقدم بسرعة، فكأنّ أجنحة رُكّبت في قدميها، فما عاد من عائق يمنعها من الاقتراب منه. لكنّ إحساسها المفاجئ

بتهورها واندفاعها أعادها فجأة إلى الواقع. توقفتْ في منتصف سباقها، ونظرتْ إلى يديها، كأنّها تنظر إلى يدين غريبتين. كانتا طليقتين، تخبرانها، وكأنهما وحوش تتهمها، بأنّ فلابيا ليست معها، وبأنها بالغت في سرعتها حتّى ما عادت فلابيا تتبعها.

تجمّدت صوفيّا في مكانها، فكأنّ عقرباً فتاكة لسعتها. وكأنّ سمّ تلك العقرب راح يسري في عروقها. وثابتْ، بعد ثوانٍ، إلى نفسها، فحوّلت عينيها في الاتجاه المعاكس، ونسيت أمرَ خيرونيمو. انحنت قليلاً لتكون على مستوى قامة الطفلة، وراحت تنظر من بين الأرجل، وتنادي على الطفلة بصوت ناعمٍ مرتاب. «فلابيا، فلابيا، فلابيا»، فكأنها تنادي على كلبٍ صغير. «فلابيا، بُنيّتي»، تكرّر، وهي تعود القهقرى باتجاه الصحون الطائرة. حاولت ألّا تفقد رباطة جأشها، فراحت تقنع نفسها بأنّ البنت لا يمكن أن تكون أفلتت يدها من وقت طويل. لا بدّ أنّها ما زالت قريبة منها، واقفة، تبكي، بالتأكيد، لأنّها خائفة وحدها. ستجدها بعد لحظة. «فلابيا، فلابيا»، نادت، ثمّ توقفت لسؤال شريكين إن كانا شاهدا فتاة ترتدي فستاناً أخضر، بمربعات، وشريطاً أبيض وحذاء أبيض أيضاً؛ بيضاء البشرة، واسعة العينين، مجعّدة الشعر؛ حلوة تناهز العامين، ممتلئة الجسم. ولكن عبثاً. لم يشاهدا طفلة بهذا الوصف. واصلت صوفيّا طريقها، وواصلت نداءها. وتوقفت عند خيمة تعلن عن المرأة الحيّة. دخلت، فرأت أشخاصاً وقفوا ينظرون إلى صندوق بداخله امرأة لها جسم حيّة ورأس ربة بيت مخيف، موضوع على طاولة. لكنّها لم تر فلابيا. خرجت وواصلت سؤال كلّ من قابلته في طريقها، الذي راحت تقطعه جيئة وذهاباً. ما عادت تدري تسأل مَن. يأسها يشتدّ، يخرج عن مساره، ويثير أفظع شياطين الجحيم والخوف والرعب. «ابنتي!»، صرخت فجأة، بعد أن تمكّن منها العجز، وتغيّرت سحنتها من الألم. سيدتي، فقدتُ ابنتي... سيّدي، ألم ترَ طفلة صغيرة ترتدي الأخضر والأبيض، ممتلئة الجسم؟ يحدّق الناسُ فيها، وعلى وجوههم علامات الشفقة والرثاء، لكنّهم غير مستعدين لأن يفسدوا إجازتهم بسبب أمّ مهملة. مسكينة، ولكن، كيف لأحدٍ أن يغفل عن طفلته أو طفله في هذه الزحمة، يفكر السامعون ويبتعدون. «ابحثي عنها في مركز الصليب الأحمر. فإلى هناك يأخذون الأطفال الضائعين»، قال لها

رجل. «وأين الصليب الأحمر؟»، سألت صوفيّا، ولكن لا، لن تذهب إلى أيّ مكان، فكّرت، لأنّها إن ابتعدت عن مكانها، فلن تستطيع فلابيا رؤيتها. فلابيا قريبة. لا بدّ أنّها قريبة، بالقرب من الصحون الدوّارة، في المسافة بين الصحون وخيمة المرأة الأفعى، وهي المسافة التي قطعتها محاولة اللحاق بخيرونيمو. تحرّكت صوفيّا في تلك المسافة جيئة وذهاباً، عاجزة عن التصرّف باتزان، بينما امتلأ خيالها بأسوأ الاحتمالات: ربّما نُهبت؛ ربّما عرض عليها أحدهم أن تصحبه لتأكل حلوى القطن، أو لتركب الخيل؛ ربّما رآها شخصٌ يتاجر بالأطفال، وحدها، فاختطفها. وتصوّرت ابنتها، وقد ضاعت منها، تعيش مع الله أعلم أيّة عائلةٍ، تجهل مكان سكنها، وبالكاد تستطيع أن تلفظ اسمها واسم أمّها. وتصوّرتها تكبر على كُرهٍ من تخلّى عنها، وإلقاء اللوم في ما أصابها على الجميع، والاعتراض على ذلك الفعل الذي لم يراعِ شيئاً. ستشعر، وهي بعدُ طفلة صغيرة، بأنّها غريبة، ومختلفة؛ ليست كالفتيات الأخريات، اللاتي يحظين برعاية والدين رحيمين وأسرة لم تضطرّ إلى تبنّي يتيم أو مشرّد. وقد تحبّها تلك الأسرة وقد تتعلّق بها، لكنّها لن تتقبل ذلك الكرم، من دون مرارة. وستضع كلّ من يُظهر لها المودّة موضع اختبار. لن تؤمن بالحب، وحين تحسب أنّها وقعت فيه، ستحتقره وتستهين به، وستخطط بنفسها لرفضه وصدّه، وعندها، ستقع، من جديد، في أشدّ حالات اليأس، لأنّها ستؤوب، ومن جديد، بالفراق والهجر. ستُهجر وتُترك، المرة بعد المرّة. «بنيّتي، مسكينة، بنيّتي»، ردّدت في داخلها. هذه هي دورة الزمن التي حدّثتها الساحرات عنها، والتي حذرتها منها إيولاليا، حين بُعثت من رقدتها، في تلك الليلة، في كوخ صاموئيل. ها هو القدرُ يكرّر نفسه، يلفّ ويعود، وها هي كوالدتها، تعاني من فقد ابنتها، إنّها تلك التعويذة اللعينة، تعويذة كلّ النبوءات. إنّها تعيش متاهة أصلها، لغزَ هجرها الذي لا يُسبر له قاع. وتخيلت اليأسَ العظيم الذي أصاب أمها، وهي تبحث عنها، كما تبحث هي الآن عن ابنتها، تتعارك مع الناس، تشتمهم، تصرخ فيهم، فكيف يقولون إنّهم لم يروا البنت بفستانها الأخضر والأبيض، بعينيها الكبيرتين وشعرها الكستنائي المجعّد. ما عادت صوفيّا تعرف ماذا تفعل. لطّخ غبارُ خطواتها وجهها. ما عادت تدري كم مرّة راوحت في مكانها، كم مرّة راحت

وجاءت في تلك المسافة القصيرة، ولكن يبدو أنّ الفتاة ليست هناك؛ لا يمكن للصغيرة أن تقف في مكانها منتظرة؛ فليس من المنطقي أن تتصرّف طفلة بهذه السنّ على هذا النحو، ستبكي، فكّرت، وستنادي على أمّها. عليها أن تستعين بمركز الصليب الأحمر. شقّت طريقها إلى **الاستعلامات**، حيث أخبروها بأنّ الأطفال المفقودين يؤخذون فعلاً إلى مركز الصليب الأحمر، هناك، في تلك الخيمة البيضاء التي تظهر وسط الألعاب، تلك الألعاب التي بدت لها، فجأة، عدوانية صاخبة، بُحّت حناجرها الحديدية من موسيقى صاخبة لا تسمح لها بسماع بكاء ابنتها، التي لا شكّ أنّها تبكي، يائسة مثلها. يا لها من غبية، أنّبتْ نفسَها. كيف خطر ببالها أن تسعى وراء خيرونيمو. وكيف تحسب أنّها خسرت معه، وهي التي لم تحبّه أصلاً. كلّ ما كانت تطلبه منه هو ألّا يتخلى عنها، لكي تُبطل، هكذا، دورة السحر، وتعثر على مَن لا يهجرها ولا يتركها وحيدة، ضائعة تائهة. وها هي تدرك أنّ أمّها لم تتخل عنها. وها هي ترى أنّها أمضت كلّ حياتها ساعية إلى الانتقام من تلك المرأة المسكينة، وها هي تدرك أنّ أمّها عانت ما تعانيه هي الآن. سارت صوفيّا مسرعة نحو الخيمة البيضاء، تصلي لجميع قديسي **السماء** كي تعثر على فلابيا هناك، جالسة على كرسي بوجهٍ حزين، بفستانها الأخضر وحذائها الأبيض وجواربها المزهرة؛ وتخيّلت كيف سيضيء وجهها الصغير حين تراها. ستركض نحوها وذراعاها الصغيرتان مرفوعتان، وستعانقها، يااااااه، يا إلهي، أتوسّل إليكَ أن أجد فلابيا هناك، تقول لنفسها. تقترب من الخيمة، وتدخل فتجد امرأة بزيّ ممرضة تعتني برجل مُسنّ شاحب. ممرضة ومريض، لا غير.

أجابتها الممرضة بنعم. فالأطفال الضائعون يُحملون إلى هناك، لكنّ أحداً لم يأتِ بالفتاة التي تصف. بإمكانها، إن هي شاءت، أن تجلس وتنتظر، فقد بقيت بضعُ ساعات على الليل، وإن وجدها أحدهم فسيأتي بها، بكلّ تأكيد. عليها أيضاً، قالت لها، أن تذهب إلى **الاستعلامات** وتسألهم عن منظومة مكبرات الصوت في حديقة الألعاب، إذ يمكنهم الإعلان، من خلال مكبرات الصوت، عن ضياع الفتاة، بعد أن تخبرهم بأوصافها واسمها. خفّت صوفيّا عائدة إلى كشك **الاستعلامات**، وهي تلعن الرجل الذي لم يخبرها

شيئاً عن مكبرات الصوت. لا أحدَ يهتمّ بأحد. لا أحدَ يشفق على أحد. كيف يبلغ بها الشرود ألّا تشعر بيد البنت تنفلت من يدها؟ بل كيف نسيت، بحقّ الشيطان، نفسها وانجرّت وراء خيرونيمو، مستسلمة، الله أعلم، لأيّة دوافع وأيّ هوس، مخاطرة بابنتها، كأنّها لا تعلم في داخلها أنّ خيرونيمو مُحقٌّ في ما قال؛ فهي التي أغرته، وهي التي استخدمته حصانَ استيلاد، كما قال فاوستو، وأحسن القول، لتحاول، من بعدُ، أن يعوضها عن هجر أمّها، المسكينة التي لا شكّ أنّها ما زالت تبحث عنها، يعلم الله، في أيّة أرض، تماماً كما ستبحث هي عن فلابيا، طولَ حياتها، إذا لزم الأمر، وإن كانت هي أوفر حظاً، لأنّ أمّها تهيم مع الغجر، في أرض الله الواسعة، بلا وطنٍ ولا سكن، بينما تقيم هي في مكان ثابت، ولديها من الوسائل ما يساعدها في العثور على ضالتها، وهنا تكمن الفائدة من المال. ستنظم حملة كبيرة للبحث عن ابنتها، وستعرض ثروتها كلّها على من يعثر عليها ويعيدها إليها.

– لمَ لم تقل لي إنّ في إمكاني أن أخاطبَ ابنتي عن طريق مكبرات الصوت؟ –حاسبت الرجل الواقف في كشك **الاستعلامات**–. أريدُ أن أكلمها الآن. أريدكَ أن تسلّمني الميكروفون.

ردّ الرجلُ، وقد شعر بالإهانة، بأنّ ليس من حقّها أن تكلّمه بتلك النبرة، فقد سألته عن **الصليب الأحمر** وأجابها، ولم تطلب منه أن يعلن عن فقدان البنت في مكبرات الصوت. أخذت صوفيّا نفساً عميقاً كي تحتوي غضبَها وتنال من الرجل بغيتها، فليس الوقت وقتَ أن تجادله إن كان فعل الصحيح إذ أضاع عليها وقتها، بينما الشمسُ توشك أن تغرب والظلام يوشكُ أن يحلّ.

مرّت لحظات بدت لصوفيّا دهراً. سجّل الموظف البيانات وبدأ يقرأ الإعلان عبر الميكروفون:

« فُقدت طفلة عمرها عامان تقريباً. ترتدي فستاناً أخضر بمربعات بيض، وحذاء أبيض وجوارب موردة. سمينة. بيضاء اللون. عيناها بنيّتان وشعرها كستنائي. اسمها فلابيا، فلابيا سولانو. يُرجى ممّن يعثر عليها إحضارها إلى **الاستعلامات**. »

– كرّر النداءَ، من فضلك – طلبت منه صوفيّا. فكرّر الرجلُ النداء ثلاثَ

مرات، ثم أخبرها أنّه لا يستطيع أن يكرّره أكثر، فالموسيقى يجب أن تستمر، وما عليها، بعد الآن، إلّا أن تصبر وتنتظر. تقضم صوفيّا أظافرها، عاجزة عن فعل أيّ شيء، فالرجل على حق. ليس عليها غير أن تنتظر. عليها أن تتعلم كيف تصبر. تمرّ الدقائق ولا جديد، رغم أنّها صارت تنظر بألف عين، وفي جميع الاتجاهات، وتدورُ حول الكشك، علّها ترى فلابيا قادمة من مكانٍ مّا.

- ناولني الميكروفون -طلبت من الرجل-. ناولني إيّاه، من فضلك.

تمنّع الرجل، في البداية، لكنّه لاحظ مبلغَ يأسها، حتّى لقد بدت له مستعدة لفعل أيّ شيء، حتى أن تضربه، إن هو لم يفعل ما تأمره به. ناول صوفيّا الميكروفون، فكرّرت قراءة الإعلان، ثمّ وجّهت كلاماً لابنتها. قالت لها إنّها ستجدها، ستعثر عليها، أينما كانت. طلبت إليها ألّا تخافَ، أن تلجأ إلى أيّ شخصٍ وتطلبَ منه أن يأخذها إلى «**الاستعلامات**»، فهناك تنتظرها ماما. ثمّ توجّهت بالخطاب إلى من يعثر على الفتاة، فوعدته بمكافأة مجزية، متوسلة إليه أن يعيد إليها ابنتها. قاطعها موظف **الاستعلامات** وأخذ الميكروفون منها، بعد أن وصل المدير ووبّخه على أن سمح لتلك المرأة بكل ذلك الوقت بين قراءة التبليغ وتوجيه الكلام. «هذا يكفي، سيدتي -قال لها المدير، ذو القميص المورّد-، اصبري وانتظري. فعلينا أن نواصل بثّ الموسيقى». حاولت صوفيّا أن تبقي على الميكروفون في يدها، وراحت تصرخ، وتصفهم بالأشرار والأوغاد والقساة.

- أطلب منكِ، سيّدتي، فقط أن تتحلي بالصبر -كرّر المدير القول-. انتظري قليلاً. فإن عثر أحدٌ على البنت، فلن يلبث أن يظهر، ولكن عليك أن تمنحيه وقتاً حتّى يصل إلى هنا. ادخلي إلى الكشك وانتظري!

هدأت بلابلُ صوفيّا، وجلست على الكرسي الذي جاءها به موظف **الاستعلامات**. خطرت ببالها ألفُ فكرة وفكرة: أن تتصل بدانوبيو. أن تطلب فاوستو. أن تذهب إلى الشرطة. لكنّها استبعدت ذلك كلّه، فما عليها هو أن تبقى في مكانها. يجب أن تصبررر وتنتظررر، كما قال لها المدير، بإسبانيته اليابانيّة. ما أشقّ الصبرَ وما أصعبه! تشعر بألم في كلّ جسمها، وتحسّ بأفكارها تتقافز من موضوع إلى آخر، دون توقف. إنّها لا تصدّق ما يحدث

لها. وتتراقص أمامها وجوه إيولاليا ودونيا كارمن وشينتال وصاموئيل. تظهر لها كارتات التاروت، ويتردد في سمعها كلامُ شينتال عن صعوبة تفسير ما تنبئ به أوراقها وما تحذّر منه. تذكّرت حين قرأت لها دونيا كارمن التاروت وأخبرتها أنّ شيئاً ثميناً سيضيع منها، وتذكرت الليلة التي خرجت فيها إيولاليا من دوّامة الزمن لتحذّرها من الدوائر. ها هي تفهم ذلك: فهي تكرّر دائرة أمّها. فقدرُها الذي قالت شينتال إنّ له قراءتين، ويمكن لأي صدفة غريبة أن تغيّره، سلك مساراً قاسياً ومفجعاً. فقد ظهرت في التاروت وهي تقفز من البرج المشتعل مسحوقة، بعد الكارثة. أمّا تلك الطقوس، فلم تنفعها في شيء، ولم تحمِ ابنتها. وضعت صوفيّا رأسها بين يديها، وأجهشت بالبكاء.

– لا تبكي، سيدتي –قال لها موظف الاستعلامات–. ما يحدث معك حدث مراراً لآخرين. والأطفال في العادة يظهرون.

شكرت له صوفيّا مواساته، ومسحت دموعها محاولة أن تتماسك وتكفّ عن البكاء.

– وهل يضيع أطفال كثيرون؟ – سألته.

– أووووه! –صاح الرجل–، جداً. تعلمين حضرتكِ أنّ الأطفال عفاريت، وفي مثل هذا الازدحام، يكفي أن يغفل الآباء عنهم دقيقة واحدة.

– لكنّهم يجدونهم؟

– دائما تقريباً.

– ولكن ليس دائماً.

– نضطر، في بعض الأحيان، إلى استدعاء الشرطة، فربّما خرج الطفل من مدينة الألعاب، أمّا أنا فتصلني الحالات التي يضيعون فيها ويعثر عليهم داخل المجمّع.

لكنّ فتاتها كائنٌ خاص، سحريّ. هكذا قالت لها دونيا كارمن، ولا يمكن أن تضيع بهذه السهولة. عليها أن تبطل السحر. على فلابيا أن تُبطله. ألّا تخرج من مدينة الألعاب. أن تظهر. ما أغرب أن تضيع ابنتها في مدينة الألعاب. فقد ضاعت هي أيضاً بعد مهرجان للغجر شهدته في (ديريا). يا لأمّها المسكينة، فكّرت. خرجت أمّها ليلاً، وتبعتها هي، سارت

وراءها في الضباب، في ذكرى غامضة وغريبة. كيف حدث ذلك حقاً؟ تساءلت، وشعرت بألم عميق يولد في معدتها، شبيه بإحساسٍ بدني. إنّها منهكة، وجسمها متعب. لم تختفِ ابنتها فجأة فحسب، بل اختفى معها حقدُها هي على أمّها، التي ضاعت في متاهات الحياة. وراحت عقدة القوة المدمرة العمياء، التي سحقت أحشاءها وقلبها، لسنوات، تتبدد، لافظة قوتها وطاقتها عبرَ مسامات جسمها، لتتركها مثل شمعة منصهرة، تحترق بذلك الألم الذي يُفرّغ قلبها ويملأه، في وقت واحد. يا للغرابة! كم غريبٌ أن تحسّ، فجأة، وقد زايلها الحقد، وأن تشعر بالراحة، رغم الحزن والضيق. كم غريب أن تنتظر ضياع فلابيا لكي تجد نفسها، فكأنّها كانت تراقبها من بعيد. وما أقسى أن تنتظر ضياع ابنتها لكي تنسى أحقادَها وتلقى نفسَها. ولكن، أهذا هو الوقت المناسب لكي تركن إلى الراحة التي تعتمل في داخلها وتمزج ألمها بالألم الذي تبعثه فيها أمّها؟ إنّها تحتاج إلى أن تكون قوية. فما زال أمامها، قالت لنفسها، أن تعثر على فلابيا. انحنت لشدّ حذائها، بعد أن قدّرتْ أنّ وقتاً كافياً قد مضى. عليها أن تنهض وتذهب لإبلاغ الشرطة، فالشمس تجنح للغروب.

– صوفيّا سولانو؟ – وأفزع صوتٌ رجاليٌ، بدا مألوفاً، صوفيّا. رفعت رأسها فرأت رجلاً لطيف الوجه ينظر إليها. لم تطل النظر إليه، فقد كان يحمل فلابيا بين ذراعيه.

– فلابيا! –صرخت– يا ابنتي الصغيرة! كنتُ أعرف أنّكِ ستظهرين، وستعودين إليّ. كنتُ أعرف، يا حبيبتي، يا فتاتي الصغيرة الجميلة – راحت صوفيّا تصرخ بعبارات مختلطة، وأخذت البنت من الرجل، وهي تصيح وتبكي وتضحك. حضنت فلابيا وعانقتها، بينما راح موظف **الاستعلامات** يكلمها: هل رأيتِ؟ ها قد عادت ابنتكِ. لقد قلتُ لكِ ألا تيأسي، وابتسم في وجه الرجل الذي عثر على الفتاة. راح هذا يتأمّل مشهدَ لقاء الأم بابنتها، واستغرب الموظف التعبير الذي ارتسم على وجه ذلك الرجل، الذي بدا له كأنّه يعرف الأمّ وابنتها، وبدا كأنّه لا يصدق أنّه هو من عثر على تلك الطفلة التي راحت تعانق أمّها. راحت صوفيّا تسأل ابنتها إن كانت بخير... إن كانت على ما يرام، بينما راحت فلابيا تردّ على أمّها وتهزّ رأسها بنعم. بدت الفتاة

سعيدة برؤية أمّها، فراحت تتلمس وجهها بيديها الصغيرتين، وتحكي لها، عن المهرج والأرنب و«الثيّد» الذي أعطاها الحلوى والكوكا كولا.

وانتبهت صوفيّا إلى الشخص الذي أتاها بالفتاة. كان ما يزال واقفاً، ينظر إليها ويبتسم، فكأنّه يريد أن يقول شيئاً، وكأنّه ينتظر شيئاً.

- ألف شكر -قالت شاكرة ذلك الرجل، الذي لم ترَ وجهاً ألطف من وجهه، والسماء على أنّ ابنتها وقعت في يد شخصٍ تبدو عليه سيماء النبلِ- ألف شكر -كرّرت، واقتربت منه، وهي تمدّ يدها إليه، ثم لتعانقه بذراعها الطليقة-. آهٍ لو تدري كم أنا ممتنّة لك. آهٍ لو علمتَ ما مررتُ به من محنة -قالت له، وهي تمسح دموعها بطرف فستان فلابيا-. لقد أفلتت يدها من يدي -قالت-، ولك أن تتصوّر الزحمة والناس... كان تصرفّاً غبيّاً منّي -واصلت صوفيّا الكلام، وكررته حتّى ما عاد مترابطاً-. وأين وجدتها؟ - سألته، أخيراً.

ظلّ الرجلُ يستمع إليها، مبتسماً، كالمستمتع بكلامها.

- أنا لم أجدها، بل هي التي وجدتني -قال أخيراً-. كنتُ أسيرُ، فرأيتُها، وخمّنتُ، من وجهها، أنّها تائهة. اقتربتْ منّي، وفهمتُ أنّها تبحث عن أمّها. وأنا في طريقي إلى مركز الصليب الأحمر، سمعتُ صوتكِ... صوفيّا... وتذكّرتُه... ولطالما تمنّيتُ أن أعود لسماعه...

لم يكن موظف الاستعلامات، الذي وقف شاهداً صامتاً على ذلك اللقاء الغريب، يفهم شيئاً. لم يفهم ذهول المرأة، وهي ترفع وجهها المدفون في شعر ابنتها وتنظر إلى الرجل مشدوهة مبهورة.

- إستيبان؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

الخاتمة

في (موميباچو)، في بركة المياه الشفافة، شعرت شينتال الساحرة، وهي تهمّ بالابتعاد عنها، بحركة مياه سبقتها هبّة نسيم. استدارت، مدفوعة بالراحة التي أحسّ بها قلبها، فرأت الماءَ يندلح في حلقات، ثمّ يهدأ لتظهر عليه صورة صوفيّا تخففها الظلال.

أدخلت شينتال يدها في الماء، لكنّ الانعكاس ما عاد ينقسم كما كان من قبل؛ بدا مصيرُ الفتاة صافياً وواضحاً، وقد تلاقى الجاغوار والأفعى والطير في مركزه.

ورأت شينتال الزمن في الماء وهو يكسّر الدورة، ويحرّر صوفيّا من متاهة أمّها؛ ورأت الحقد وتعويذة الفراق وهما يتلاشيان، فأدركت أنّ طقوس (الروثيّو) قد فعلت فعلها: لقد عثرت فلابيا على الثقب المفتوح في المقدّر المحتوم، وأخذت بيد أمّها عبر غشاء المصيبة السميك. وهكذا بلغت صوفيّا نهاية مشوار بحثها، وصار في مقدورها أن تنظر إلى صورتها في المرآة، وتتصالح مع غموض أصلها، وتكسر النبوءات وتبدأ حياتها.

ابتسمت العجوز ابتسامتها القديمة، وبدأت تسير، متثاقلة، نحو كوخها، بينما شمسُ الغروب الحمراء تُشعل حرائق البركان النباتية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

470 يوم غزة

رأت البلدة، التي استيقظت للتو، عربات الغجر تمرّ. وليس في البلدة من يتذكر حكايات الأجداد عن «الهنغاريين» في نيكاراغوا. لذلك يظنّ الناسُ أنّ ما يرونه هو من الجديد الغريب الذي جاءت به الثورة، مثلها مثل السيرك الروسي والمغنين البلغاريين والشقر الذين ليسوا بأجانب. يشاهد رجال البلدة ونساؤها قافلة الغجريين والغجريات تمرّ.

إنّهم يخافون أساطيرهم والجهل بجذورهم وأصولهم. «هم كاليهود التائهين -تقول باتروثينيو وترسم علامة الصليب على صدرها-: لنشعل الشموع للعذراء -تقول-، هيّا بنا إلى الكنيسة». وتخرج نساء البلدة للصلاة في الصباح الباكر البارد. يسرن ببطء على التراب الذي تخلّفه العربات التي تمرّ في الشارع الرئيس.

ويسرن في طابور على الرصيف، ويتلفتن لينظرن إلى العربات المبتعدة، ويرين الرجل الذي يركب في العربة الأخيرة، وهو يتلفتُ أيضاً، وينظر، ويبحث بنظراته، وقد ظهر على وجهه تعبيران: واحد ينمّ عن ضيقٍ وألم على البنت، وآخر، لا يكاد يبين، ينمّ عن حزنٍ على المرأة التي يحبّها حدّ الكُره. تشعر شينتال، الساحرة العجوز التي تسكن في تلّة (مومباچو)، بنُذُرٍ في الأجواء، فتضع فِلقاً من القرفة عند باب بيتها.

9 789933 617783